

ملكة في الحديقة

تأليف: سنيل بات
ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن



المشروع القومي للترجمة

379

المشروع القومي للترجمة

ملك فى الحديقة

تأليف : سنيل باث

ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحمن



٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

إشراف جابر عصفور

– العدد ٢٧٩

– ملك فى الحديقة

– سنيل باث

– جمال عبد الرحمن

– الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة لكتاب :

Un rey en el jardín

Senel Paz : تأليف

الصابر عن دار نشر : Al Fagura

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E.Mail:asfour@onebox.com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

كان بعض أساتذتنا ينصح بأن يبدأ الباحث دراسته من حيث انتهى الآخرون حتى لا تتجمد مسيرة البحث العلمى بل تتواصل .

وأجدنى فى حاجة إلى العمل بهذه النصيحة ، وأن أدخل مباشرة إلى الحديث عن أدب كوبا لا عن أدب أمريكا الجنوبية ، خاصة وأنه فى السنوات الأخيرة أصبح بإمكان القارئ العربى أن يطالع دراسات كتبت بالعربية ، أو ترجمت إليها ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب " مسار الرواية الإسبانية الأمريكية " لكل من داريو بيانويا و بيناليسى (وقد نشر ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة «المشروع القومى للترجمة» فى مصر) ^(١) وكتاب " أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات " لمجموعة مؤلفين (وقد نشر ضمن إصدارات عالم المعرفة فى الكويت) ^(٢) ، هذا بالإضافة إلى جهود الزملاء الذين كتبوا مقدمات للأعمال الأدبية التى ترجموها وهى الآن كثيرة .

أتحدث - إذن - عن الأدب الكوبى مباشرة ؛ فأقول باختصار إنه أدب نلمح فيه ميزتين : الأولى هى ارتباطه الوثيق بأدب أمريكا الجنوبية عامة ، والثانية هى التزام الكتاب بالحديث عن الثورة التى قادها **فيديل كاسترو** عام ١٩٥٩ . ومن المهم أن نشير إلى أن حديث الكتاب عن

(١) العدد ٥١ . ترجمة د. محمد أبو العطا .

(٢) العددان ١١٦ ، ١٢٢ . ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ، مراجعة د. شاكى مصطفى .

الثورة ليس بالضرورة تأييدا لها ، بل يصل بعضهم أحيانا إلى توجيه النقد إلى بعض جوانب الحياة فى كوبا تحت قيادة كاسترو .

ذكرت تيريسا خورخى كاربيو^(٣) فى محاضرة لها عن ثقافة كوبا أن الأدب الكوبى يبدأ اعتبارا من عام ١٦٠٨ وأن أول أثر أدبى مكتوب فى كوبا عبارة عن قصيدة بعنوان «مرآة الصبر» للشاعر سليستري دى بالبو المولود فى إسبانيا ، وأضافت أن الإنتاج الأدبى الكوبى قد استمر منذ ذلك الحين على فترات متباعدة .

على أننا يجب أن ننتظر حتى نهاية القرن التاسع عشر -التي شهدت فترة الكفاح ضد المستعمر الإيبانى- حتى نستطيع أن نتحدث عن الأدب الكوبى . فى تلك الفترة كان هناك وعى بمساوى الاحتلال الإيبانى ، وقد انعكس هذا الوضع على الإنتاج الأدبى ، أما قبل ذلك فكانت السلطات الإيبانية تقف بالمرصاد لأدنى محاولة للتمرد من قبل مواطنى جزيرة كوبا .

نستطيع أن نقول - إذن - إن الأدب الكوبى الذى نعينه يبدأ مع خوسيه مارتى (١٨٥٣- ١٨٩٥) الذى عبر عن طموحات شعبه وأمله فى التحرر من نير الاستعمار الإيبانى ، ويعدّ مارتى بطلا قوميا فى كوبا ورائداً من رواد الفكر فى أمريكا الجنوبية .^(٤)

(٣) من وكالة الإعلام الوطنية بكوبا ، لدينا نسخة من المحاضرة ولا يوضح فيها المكان الذى ألقى فيه .

(٤) كان خوسيه مارتى مناصرا للحقوق العربية وآمال شعوبنا فى التحرر من الاستعمار ، وكان شديد الإعجاب بأحمد عرابى وعبد الكريم الخطاى ، وكان يهاجم النول الاستعمارية ويعيب على أسبانيا مثلاً أنها تاكل " من عرق جيشها لا من عرق عمالها " .

فى القرن العشرين برزت مجموعة من الأدباء الكوبيين فاقت شهرتهم حدود بلادهم ، نذكر منهم: أليخو كاربتير ، وخوسيه ليثاما ليما ، ودولثى ماريا لويناث ، وسنيل باث وغيرهم .

أعود إلى الحديث عن اتجاهات الكتابة فى كوبا فى مرحلة ما بعد الثورة ؛ فأقول إن هذا الاتجاه الذى نتحدث عنه لا يقطع الصلة بالماضى تماما ، فكاتب مثل أليخو كاربتير يناصر الثورة لكنه ينتقدها فى بعض الأحيان ، ويستغل حركة الواقعية السحرية فى رواياته - وإن كان له منظور خاص يتعلق بسحرية ثقافة أمريكا الجنوبية التى تشمل ثقافة أهل القارة الأصليين وثقافات الزنوج .

نستطيع أن ندرج روايات سنيل باث ضمن هذا الاتجاه الأخير ، فهى تناصر الثورة وتحدث عن ظلم الأغنياء للفقراء ، لكن رواية "ملك فى الحديقة" - على سبيل المثال - نجد فيها أهم ملامح الرواية فى أمريكا الجنوبية ، كما نلمح فيها بين السطور بعض إشارات إلى مآخذ على الثوار أنفسهم وإن كانت هذه المآخذ لا تبطل مشروعية القيام بالثورة .

سنيل باث كما عرفته :

كانت كتابة مقدمة لرواية سنيل باث تمثل ضرورة ، فهنا فى مصر لم يتحدث عنه أحد على حد علمنا ، اللهم إلا مقال وحيد كتبه سامح كريم فى صحيفة الأهرام فى أعقاب حصول المؤلف على جائزة المكسيك الدولية عام ١٩٩٠ ، وهذا المقال لا يتعرض إلا للقصة الفائزة بالجائزة .

ولد سنيل باث عام ١٩٥٠ فى منطقة جبلية رائعة الجمال بوسط كوبا ، تنمو فيها أنواع شتى من النباتات والأشجار . أسرته ريفية فقيرة لا تمتلك أراض ، و كان أهله يعملون -كأجراء- فى زراعة التبغ ورعى الأغنام . عاش سنيل فى هذا الجو حتى عام ١٩٥٨ عندما أجبرت الحرب أهله على الرحيل إلى منطقة قريبة لا تزال أسرته تقيم فيها إلى اليوم .

عندما مات جده تولت أمه رعاية الأسرة فعملت كخادمة منزلية ثم كعاملة فى مصنع للتبغ ، أما سنيل فقد ذهب إلى المدرسة الحكومية ، وتميز بنبوغه فى العلوم وبحبه للقراءة والكتابة . كانت أسرة سنيل من الأميين ، ولذلك فقد تولى هو نفسه تعليم أمه وجدته القراءة والكتابة . فى تلك السنوات اكتشف سنيل حبه للكتب وميله إلى الكتابة ، وفاز بعدة جوائز أدبية على المستوى المدرسى .

بعد إتمام المرحلة الثانوية اختير كواحد من أفضل الطلاب لكى ينضم إلى مدرسة الموهوبين على المستوى القومى فى كوبا ، اعتبارا من ذلك التاريخ وحتى تخرجه فى الجامعة كانت دراسة سنيل على نفقة الحكومة .

اتجه سنيل إلى الأدب فالتحق بكلية الإعلام بجامعة هافانا وتخرج منها عام ١٩٧٣ . كانت الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٧٦ فترة عصيبة فى كوبا ، فقد شهدت تحركات سياسية تهدف إلى التحكم فى حياة العمال والكتاب وإجبارهم على تبني النموذج السوفيتى . وإزاء الرقابة

الصارمة بدأ الكتاب فى الهجرة إلى الخارج ، وعموما فقد شهدت تلك الفترة قطيعة بين النظم اليسارية الدولية والثورة الكوبية . أما الكتاب الشبان أمثال سنيل فقد مثلت تلك السنوات بالنسبة لهم فترة إبداع ، وعندما أنشئت وزارة الثقافة فى كوبا عام ١٩٧٦ بدأت الأوضاع تتحسن .

مارس سنيل العمل الصحفى على المستوى المحلى ، وبدأ فى صقل موهبته فى الكتابة الأدبية ، لكنه لم ينشر أعمالا إبداعية حتى عام ١٩٧٨ حين اشترك فى الورش الأدبية القومية ، وفاز حينها بجائزة القصة القصيرة . بعد ذلك بعامين حصل على جائزة دافيد التى يمنحها اتحاد الكتاب فى كوبا عن مجموعته القصصية " ذلك الطفل " . اعتبارا من ذلك التاريخ ، وضع سنيل فى قائمة أفضل الكتاب فى كوبا ، وذاع صيته بين القراء ، وفى عام ١٩٨٠ انتقل للإقامة فى العاصمة هافانا وعمل فى وزارة الثقافة وفى إحدى المجلات الأدبية ثم مدرسا لفن الكتابة للسينما والتلفزيون .

إذا تحدثنا عن الملامح الشخصية للكاتب فإن أول ما يلفت الانتباه هو تواضعه وحياءه الشديدان ، إضافة إلى اعتزازه بنشأته الريفية الفقيرة . أذكر مثلا أنه حين طلبت منه أن يمدنى ببعض مقالات تتحدث عن أعماله أرسلها إلى ، وكتب يقول فى تواضع جم : " إذا رأيت أن ما كتبه النقاد فيه تقريظ لرواياتى فليس ذلك إلا لأنهم أصدقاء لى وأرادوا مجاملتى " ، هكذا يقول سنيل وكأنه يعتذر عن شىء لم يختلف عليه أحد : إنه كاتب متميز رغم حداثة سنه حين نشر روايته الأولى .

وكاتبنا محدثٌ جيد ؛ فأذكر أنني حين استمعت إليه للمرة الأولى ذات مساءً في مدريد وهو يقرأ فصلاً من رواية "ملك في الحديقة" كان حديث الجميع بعد انتهاء الندوة يدور حول قدرته غير العادية على جذب انتباه سامعيه . كان سنيل متأثراً بما يقرأ إلى أقصى حد ، وكان من الواضح أن الرواية تتناول جوانب من حياته الشخصية، وبالفعل فإن سنيل يقول ذات مرة "هناك الكثير من السيرة الذاتية في روايتي ، لكنني في العادة أكذب كثيراً فيما يتعلق بما حدث لي" (٥) .

تحدث الكتب التي تتناول أدب كوبا بالتحليل عن سنيل باث فتصفه بأنه "كاتب من الطراز الأول رغم أنه شاب" ، ذلك لأن كل أعماله التي نشرها فازت بجوائز محلية أو دولية، رغم ذلك إلا أن كاتبنا له رأى غريب في أعماله ، فهو يقول في تواضع صادق إنه لا يدرى إن كانت أعماله تستحق النشر. رواية "ملك في الحديقة" على سبيل المثال امتدحها الجميع في كوبا وفي خارجها ، وفازت بجائزة النقد في كوبا ، لكن سنيل يقول إنه لا يدرى سبباً لهذا الاحتفاء . وذكر لي ذات مرة أنه تردد كثيراً قبل إرسال الرواية إلى الناشر ، وأنه بعد إرسالها ندم كثيراً ، فقد كان يريد إجراء تعديلات عليها .

عزوف سنيل عن نشر أعماله هو الذى سبب حيرة لدى البعض ، وقد سألته إن كانت الكتابة للسينما قد استحوذت عليه فهجر كتابة

(٥) انظر (Saul Ibargoyen ("La narrativa de Senel Paz" en Plural Mexico)

الرواية ، فأجابنى قائلا " بل تركت النشر لا الكتابة . لدى بعض الأعمال ولم أستقر على نشرها بعد " .

أعماله :

نشر سنيل كثيرا من القصص القصيرة يتركز معظمها حول الطفل والشباب الصغير . وكان التيار السائد فى كوبا خلال سنوات هو الحديث عن تربية الطفل والشباب فى المجتمع الاشتراكى . وقد نُشرت أعمال أدبية كثيرة فى هذا الإطار من بينها قصص سنيل باث ، فالمجموعة القصصية التى تحمل عنوان " ذلك الطفل " تتضمن عدة قصص مثل " إجازة " و " اليشا ألونسو ترقص فى رأسى " و " رودولفو " و " لا تقل لها إنك تحبها " و " مثل تلميذ بسيط " و " دانييل " و " تحت شجرة السوسن " . . . إلخ ، وكل هذه القصص تدور حول نفسية الطفل ، وبعضها يتحدث عن الشباب فى مرحلة المراهقة .

أما قصة " الذئب والغابة والرجل الجديد " فهى تتحدث عن الشباب والحرية ، وقد فازت بجائزة المكسيك الدولية لعام ١٩٩٠ ، ويعتبرها النقاد حدا فاصلا فى تطور القصة القصيرة فى كوبا.^(٦) .

كما نشر سنيل أيضا " الأختان " وهى قصة قصيرة ، و " عزيزى ديجو " وهى مسرحية نشرت فى إسبانيا والمكسيك . هذا بالإضافة إلى " ملك فى الحديقة " التى فازت بجائزة النقاد فى كوبا لعام ١٩٩٣

(٦) انظر Francisco Lopez Sacha "A mi querido colega Victor Fowler para días de mayor entusiasmo" (en La Gaceta de Cuba, Num. 2 marzo-abril 2000, p. 29)

ملك فى الحديقة :

تتحدث الرواية عن معاناة أسرة ريفية فقيرة فى كوبا فى عهد ما قبل ثورة ١٩٥٩ . والمؤلف يروى الأحداث من وجهتى نظر: وجهة نظر الطفل ذى الخيال الواسع ووجهة نظر الجدة التى تتسم بالواقعية الشديدة . الطفل الذى لا نعرف له اسما يسمع لغة الزهور والدجاجات وعباد الشمس والفراشات والبغلة . . إلخ . ، وروايته الخيالية للأحداث تتعارض تعارضا شديدا مع الواقع المؤلم الذى عاشه المجتمع الكوبى قبل الثورة: استغلال الغنى للفقير والاستيلاء على أرضه (السيدة فلورندا استطاعت فى النهاية أن تطرد أسرة الطفل من الأرض ومن البيت ، والسيدة انريكيثا استغلت خادمتها مقابل قروش زهيدة ثم طردتها من بيتها شر طردة) .

يتناول سنيل كذلك وضع المرأة المتدنى فى كوبا رغم تأثيرها الكبير على النشء . إن الجدة دائمة الحديث عن رغبة فيليكس فى إنجاب أولاد ذكور ، بل إن الجدة نفسها لن تسامح ابنتها على أخطائها الكثيرة إلا إذا تحولت البنتان إلى ولدين!! والأم تتحدث عن ضرورة تعليم الطفل ، أما البنتان فيكفى أن تتزوجا برجلين صالحين . مجتمع كوبا قبل الثورة يحتقر المرأة ويسىء إليها ، أما عندما تنتصر الثورة فإن المرأة تخرج إلى الشارع وتشارك فى الاحتفالات -وما يلى ذلك من نشاط اجتماعى- جنبا إلى جنب مع الرجل .

يختلط الواقع بالخيال فى الرواية ، فبعيدا عن الخيال المحض الذى تجود به قريحة الطفل (امتطاء الفراشة والتحليق عاليا ، حواراته مع

عباد الشمس والدجاجات . . إلخ) فإننا لا ندرى على وجه اليقين هل كانت قصة الرجل الجريح المختبئ بين شجيرات الخروج خيالا من خيالات الطفل أم كان حدثا من أحداث الرواية ؟ ويدور فى نفس القارئ نفس التساؤل بشأن ذلك الحصان الذى جاء إلى حقل عباد الشمس كسحابة حمراء .

الطفل الملك - وهو دون شك سنيل الصغير- يحتل البطولة المطلقة : مداخلاته تحتل ما يقرب من ثلثي الرواية ، هذا بالإضافة إلى أن حديث الجدة موجه إليه هو دون إخوته فى أغلب الأحوال ، والمؤلف يريد إبراز الفرق الجوهرى بين رواية الطفل للأحداث ورواية الجدة ؛ فهذه واقعية وتلك خيالية . إنه يستخدم الفعل المضارع دائما مع الطفل ، أما الجدة فهي تستخدم الفعل الماضى . ولكى يؤكد المؤلف الفرق بين الطفل والجدة فإنه يستخدم إمكانيات الطباعة الحديثة فيكتب مداخلات الطفل بحروف عادية ويكتب مداخلات الجدة بحروف مائلة .

أسلوب سنيل ساحر ، فالقارئ لا تكاد تفارقه الابتسامة عندما يطالع ما تكتبه الجدة عن ابنتها -هى دائمة السخط عليها وعلى أحفادها الذين يختلفون اختلافا جذريا عن أطفال زمان ، زمانها هى- وقد وصل سنيل فى بعض الأحيان إلى حد استخدام العامية حتى لكأنك تستمع إلى فلاحه عجوز لا إلى كاتب من الطراز الأول . هذا الاستخدام للعامية يجعل اتصال الكاتب بالقارئ اتصالا وثيقا ، لكننا لا ينبغي أن نظن أن اختيار الألفاظ والتعبيرات العامية وتوظيفها دون

إخلال باللغة الفصحى عملية سهلة . إن الكتاب الذين استطاعوا ذلك قلائل .

تبقى نقطة أخيرة وهى تتعلق بالمؤلفين الذين تأثر بهم سنيل باث . يحدد إيفراين باراداس ^(٧) اسمين على وجه التحديد هما خوسيه مارتى وجارثيا ماركيث ، ويسوق أدلة على تأثر سنيل بمارتى لا نملك معها إلا أن نقره على ما ذهب إليه ، أما ماركيث فيذكر اسمه دون دليل .

سنيل يعترف بتأثره بكل من خوسيه مارتى وأونيليو خورخى كاردوسو (١٨٨٦ - ١٩١٤) ويرى أن هناك تشابها كبيرا بين أعماله وأعمال رينالدو أريناس المولود فى ١٩٤٣ والمتوفى فى نيويورك . يقول إن هناك أوجه تشابه كثيرة بين "ملك فى الحديقة" ورواية "قبل الفجر" لأريناس ، ويعزى ذلك إلى تشابه الظروف العائلية لكل منهما وإلى نشأة كل منهما فى الريف .

أما من ناحيتى فإننى أجد أكثر من سبب يدعونى إلى التفكير فى تأثير الروائى الإسبانى ميغيل ديليبس : مداخلات الجدة فى "ملك فى الحديقة" تذكرنا - من عدة أوجه - بحديث زوجة ماريو فى رواية "خمسة ساعات مع ماريو" ، ثم هذا الطفل الملك يذكرنا بطفل أمير احتل البطولة فى رواية "الأمير المخلوع" لديليبس . وهناك جانب آخر : سنيل يكتب صفحتين كاملتين من روايته دون وضع علامات

(٧) انظر Efrain Barradas (Un rey en el jardin : verosimilitud, historia y estilo (,en Casa de las Americas) Cuba).

ترقيم حتى تكون للنص أكثر من قراءة ، وهو ما يذكرنا بما فعله ديليبس في إحدى رواياته .

الرواية في النهاية مسلية وممتعة خاصة بالنسبة للقارئ الذى نشأ فى الريف المصرى قبل أن تدخله الكهرباء ، إذ سيجد فيها ما يذكره بأيام جميلة خلت لم يتبق منها إلا الذكرى . سيجد القارئ كذلك من خلال الرواية أن تشابه ظروف الحياة فى كوبا ومصر أكثر مما يظن الكثيرون .

لا يسعنى فى النهاية إلا أن أعبر عن خالص شكرى لسنيل باث الذى تحمل فى صبر أسئلتى الكثيرة ، وقدم لى كل ما احتجت إليه من عون ، وللاستاذ الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة على استجابته الفورية لنشر هذا الكتاب فى إطار المشروع القومى للترجمة .

جمال عبد الرحمن

بنى مجد فى نوفمبر ٢٠٠١

(١)

بيتى هناك ، تحيطه الأعشاب والشجيرات وشجر اللبلاب الذى يتسلق الجدران ، والذى يصل مستوى ارتفاعه إلى السقف ، والزهور كلها متفتحة ورائحتها عطرة ، سواء تلك التى تتفتح نهارا أو تلك التى تتفتح ليلا ، والبريق يلمع ، ومن فوق تبدو السماء كبيرة والسحاب أبيض ، ومن جميع الجهات تبدو التلال بعيدة جدا . مراتع الخيول والأشجار الصغيرة تبدو زرقاء ، كما تظهر أراضي السيدة فلورندا وقد حرثت، وتظهر طيور مالك الحزين .

وهأنذا أكاد أقرب من الطريق ، جالس على الحشائش ، عار أتأمل ، الآن أرى أختائى اللتين تعانيان من نوبة برد تنظران من النافذة وتباريان أيهما تصل بصفتها إلى مسافة أبعد ، وفى النافذة الأخرى - الزرقاء - أرى أمى تطرز وشعرها ملئ بالزهور وتهش عن رأسها الفراشات ، وفى آخر البيت ، بمعجزة تقريبا، أرى جدتى تمر وهى تدخن سيجارها . السيجار لا أراه ، لكننى أعلم أنها تدخن .

أنا أريد أن أتواجد حيث أنا ، وأن أكون فى نفس الوقت داخل البيت ، وأن أعرف كيف الحال الآن تحت المقاعد وخلف الأبواب ، وماذا تفعل الكراسى وحيدة فى الصالة . يقولون إن البيت ينهار ، سينهار بين لحظة وأخرى . مسكينة جدتى ، ستضطر إلى أن تخرج مسرعة نحو شجرة الكاميتو . إنها لا تخرج إلى فناء البيت مطلقا ولا تطل من النوافذ أو من الباب كثيرا . يمنعها من ذلك أحد نذورها

الخمسة ، ومع ذلك فقد خرجت ذات يوم . كنا نحن الأخوة الثلاثة نسير كل واحد خلف الآخر ونحن نغنى ، وكنا قد وصلنا إلى هذا المقطع من الأغنية الذى يقول " شمعة فى اليد ، شمعة فى اليد " حين رأتنا الجدة بجوار النباتات . انطفأت منا الشموع ونادتنا الجدة " تعالوا أنتم الثلاثة " ، وبدأ حلول الظلام . قالت الجدة : " من هنا إلى هنا مكان البنتين ، ومن هنا إلى هنا للولد ، كل واحد فى مكانه ، لا يلعب الأولاد والبنات معا " . قالت ذلك ودخلت المنزل كالرق قبل أن يسقط شعاع على النباتات وقيل أن يبدأ الرعد . كان معى فى جيبى قواقع من تلك التى تجلب لى الحظ ، فكان نصيبى فى التقسيم أشجار الخروع وعباد الشمس والنخلتين خلف المطبخ ، وهو أفضل مكان فى الحديقة .

منذ ذلك الحين وأنا أتحول فى الفناء ، أضطجع على الأرض وأشم وأتأمل ، هذا ما أفعله . ليس هناك شىء يعجبنى كالتأمل . فى وقت الظهيرة يخرج من الحقول بخار أرى البيت من خلاله يتراقص ، تتراقص الأشجار ، تتراقص الأرض ، وتتراقص النخلتان . أكثر ما أنظر إليه هو البيت بسقفه المصنوع من الخوص ، ثم السماء ، لأن فى بعض الأيام تمر سحابة عبارة عن حصان أحمر . فى بعض الأحيان تشغل أمى فى التطريز بجوار النافذة وحيث أنظر إليها . شعر أمى أسود وأطول من شعور كل النساء ، تزينه بأزهار صفراء وحمراء . إذا لم تكن هناك زهور صفراء فلا بأس ، أما الزهور الحمراء فلا تنقصها أبداً ، نهارة أو ليلاً . لا تنقصها الزهور الحمراء و أحضرها أنا لها دائماً . أنا الآن بين أشجار الخروع وعبرأوراقها الكبيرة التى تشبه المظلات أرى أمى تطرز بجوار النافذة . أمى لها جناحان كبيران

أبيضان ينبتان عند ظهرها. الجدة لا تدعنا نتحدث عن ذلك ، خاصة أمام الجد ، وتجبر أمى على أن تضع على كتفها تلك الملاءات الملونة فلا تضعها عنها أبداً ؛ لهذا تبدو أمى من بعيد كباقة من الزهور ، ويختلط الأمر على الفراشات فتطير حتى النافذة . أتمنى أن تخرج أمى إلى الفناء ، لا بالثوب الباهت وإنما بالجونلة الحمراء الواسعة وحذائها العالي وشعرها الملئ بالزهور وفي يدها إبريق من عصير الليمون . كانت أمى قبل ذلك تأتي إلى الفناء كثيراً ولم يكن يهمنى فى أى جانب تسير وكنا نحن الأخوة الثلاثة نسير بجوارها ونصطاد نحن الأربعة الفراشات و نغنى . أما الآن فلا ، إنها لا ترفع عينيها عن التطريز ولا تشكو حتى لو وخزت الإبرة أصابعها .

ليس هناك بيت به فراشات و دبابير مثل هذا البيت . إن الجارات تأتين ومعهن أكياس لاصطياد الفراشات ثم يثبتنها من أجنحتها فى فناء بيوتهن بإبر الخياطة ، لكن الفراشات تعود بمجرد أن تطلقها الجارات . يعجبها أن تمكث هنا معى . ذات مرة وجدت عظمة فرسمت ثلاثة صلبان على عيون السمكة التى فى ركبتى . يجب أن نفعل ذلك إذا وجدنا عظمة ، وأردنا أن تسقط عيون السمكة ، بعد ذلك يجب أن نلقى العظمة وراء ظهرنا دون أن ننظر أين سقطت ، لكننى دائماً أذهب وأنظر ، وعندما ذهبت تلك المرة نادتنى فراشة " يا ولد " . كنت ذات مرة أسير فى الفناء كالعادة ، لكننى كنت أسير ببطء ، كنت أخطو خطوة ثم خطوة أخرى صغيرة على أطراف أصابعى كحركات لص ، وشاهدت - كم كانت جميلة! - فراشة ترفرف بجناحيها

بيضاء فوق عباد الشمس . كانت تبدو كزهرة فوق زهرة ، كانت تبدو مثل أمى فى الحديقة ، كانت تبدو كشىء لا مثيل له . كانت تتلأأ ، جناحها كبيران ، صفرتهما زاهية . كانت تحرك ملايين الأرجل وتقلب ملايين العيون وقرون الاستشعار، لكنها لم تشم رائحتى حين اقتربت . لم أكن أتنفس . لم يكن يُسمع سوى صوت الحشائش، وتقدمت . تقدمت وفجأة قبضت قبضة و أمسكت بها وقفزت سريعا فوقها فأقلعنا طائرين . كانت مندهشة ، مسرورة، خائفة، تضحك كمنتصرة دون أن تفهم . وارتقينا ثم ارتقينا . " أمى ، تعالى انظرى ، تعالى " . كانت الزهور هناك أسفل منا وكذلك عباد الشمس . " إلى اللقاء يا عباد الشمس ، يا أمى ، يا جدتى ، يا أخوتى " . كم ارتفعنا ! يا للضحك ، يا للسعادة ! يا لها من أجنحة كبيرة! كان البيت يصغر و الفراشة تطير وتدور ، وفجأة بدأت فى الاهتزاز ، " ألا تقدر على؟ " " هيا أيتها الفراشة الصفراء إلى أعلى ولا تهبطى إلى أسفل " . اقتربنا من الأرض ودخلنا من النافذة . " أمى ، جدتى ، ها أنذا أمتطى الفراشة " فى اتجاه الحائط . سأموت . والآن فى اتجاه المرأة . لكن لا . " انظروا " ثم نخرج ونرتفع إلى مستوى أعلى من مستوى المنزل وأعلى من مستوى شجرة الصنوبر . أعلى من أى شىء . ألا تستطيعين الارتفاع أكثر من ذلك أيتها الفراشة؟ " إلى أعلى أيتها الصفراء " " هل تعبتي؟ هل ترفرفين بصعوبة أيتها الفراشة؟ " " حلقي " ها هو البيت من أسفلنا يكبر . " هل تلهثين؟ " شجرة الصنوبر ثم فروع شجرة الصنوبر وفى النهاية هبطت وهى تتنفس

بصعوبة ومغشياً عليها ، أما أنا فقد نزلت مزهوا وقبعتى فى يدى .
نظرت إليها ورأيت أنها لم يعجبها ما فعلته بها . دنوت منها وقلت لها
تعالى مرة أخرى إلى فنائى غدا ولن أفعل بك ذلك مرة أخرى " ،
وخرجت مسرعا وباكيا .

الوعود التى قطعتها جدتى على نفسها خمسة . أولها ألا تقص
شعرها ، إذ طلبت وهى فتاة صغيرة من تمثال يسوع الموجود فى الصلاة
- وكان ملكا لأُمها- أن يوقع بزوجة أبيها عقابا كبيرا . طالت ضفائرها
منذ ذلك الحين وطالت . هى تمشطها فى أوقات المساء وتلفها عدة
لفات حول رأسها ثم تعقدها عند الرقبة . ومن الوعود الأخرى أن
ترتدى الثياب البيضاء دائما وأن تضع حول وسطها حزاما أصفر إلى
أن تنام ، وذلك لأنها عندما تزوجت جدى طلبت من العذراء أن تهبها
ولدا جميلا مثل ابنها . كانت جدتى تعلم أنه لو ولد لها ابن ذكر
فسيقلع جدى عن شرب الخمر ، ورغم أن العذراء وهبتها أُمى إلا أن
جدتى كانت قد اشترت القماش وظنت أن عدم ارتدائه إلحاد . وقد
قطعت على نفسها الوعد الثالث خوفا من أن تفقد بصرها كعماتها
الثلاث رحمهن الله ، وهذا الوعد هو أن ترتدى بلوزات مرسوم
عليها عيون القديسة لوثيا وألا تخلع هذه الرسوم أبداً . الوعد
الرابع ، هذا الذى لا يدعها تخرج إلى الفناء أو تطل من النافذة أو من
الباب لفترات طويلة ، كان شكرا للسماء أن أرسلت الماعز التى
أنقذتنى وأنا صغير . والوعد الأخير هو أن تصلى لا أدرى كم صلاة
وكم دعاء عند الذهاب للنوم وعند الاستيقاظ ، هذا بخلاف الأشعار

التي ترددها طوال النهار . هكذا فقط امتنع جدى عن الشراب والقمار . لا يريد الجد حتى مجرد سماع الحديث عن ذلك . ليس على الجد ولا على أخواتى ولا على نذور . وأمى عليها نذر واحد لا يدرى أحد كنهه ولا من أجل ماذا . أتمنى لو أن أحدا قطع على نفسه وعدا أن أمشى حافيا حتى يوم زواجى مثل ابن السيدة روسا .

الجدة ليست أطول منا كثيرا ، لذلك كل شئ فى البيت موضوع على ارتفاع منخفض حتى أننا -نحن الأطفال- نكاد نصل إليه . وهى نحيفة ، وهى آخر من يأكل خلف الموقد، وتأكل ما يتبقى فى الأوانى ، وتشرب بعد ذلك قدرا صغيرا من القهوة، تضعه فى زجاجة داكنة اللون حتى نظن أنه دواء ، ترتدى جونلة واسعة، جيوبها عميقة، نجد فيها نحن الأطفال ما يكون قد ضاع منا، بغض النظر عن المكان الذى فقدناه فيه . وفوق الجونلة مريلة بنفس الاتساع و نفس اللون الأبيض ولها جيوب أيضا تحفظ فيها التبغ . تلف هى السجائر بنفسها وتدخنها متخفية خلال النهار دون أن يراها الجد . وفى المساء والليل -عندما يكون الجد موجودا- تحفظ السجائر فى المطبخ وتتمشى قليلا لكى تأخذ نفسا . تسرنى رؤيتها وهى تطبخ أو عندما تتمشى فى الردهة حين تتحرك جونلتها فتمس الأرض أو وهى تبرّد القهوة باللبن بأن تفرغهما من إبريق وتصبهما فى إبريق آخر . وليس هناك أحسن من أن تجلس على مقعدها فينطبق المقعد انطباقا، أو أن تعقد يديها فوق المريلة ، وأن تبدأ - فى أية ساعة كانت- فى حكاية قصص عندما كانت هى أو أمى أو نحن صغارا، أو عندما كانوا يعيشون فى

جهة أخرى . حينذاك لم تكن الفراشات تطير . كانت القطط تأتي وتجلس للاستماع إليها ، وكان الظلام يأتي بعد ذلك . أما إذا ظهرت خلال ذلك أول فراشة ليلية وهى تلمع فكان لابد أن تكون الحكاية مسلية جدا حتى لا أنظر إلى الفراشة ولو بطرف عيني مرة ما . الفراشات الليلية صديقاتي . الجد يمنع أن نكلّم الجدة بصوت عال ، أو أن نغضبها . يجب أن نحسن الأدب معها ، وأن نساعدتها على أن تتخلص بعض الشيء من أعبائها حتى تستريح فى أوقات الظهر ، فالجدة من ذهب ولا توجد مثيلتها ، ويوما ما سنفتقدتها وحينئذ سنعرف قيمتها . الجدة بها شامة فى ذراعيها وشامات صغيرة ومستديرة فوق يديها . إنها جدتنا .

جدى لا يتواجد فى البيت إطلاقا . يخرج قبل أن نستيقظ نحن الأطفال . قبل ذلك يحمل إلينا القهوة إلى مضاجعنا ويقبلنا قائلا "كونوا مؤدبين ولا تكونوا مزعجين وإلا فلن أحضر لكم شيئا عندما أعود" . يجهز العربة والبضائع ويضع البغلة مارجريتا فى العربة ويخرج إلى الطريق بقبعته البالية وينطلقونه الواسع وهو يغنى أغنية ما من الأغنيات الكثيرة التى يعرفها . يعود فى الليل تقريبا ، بعد أن نكون وأما قد اغتسلنا وأصلحنا من شأننا ، وعندما تكون الجدة تمشط شعرها وتبقى جالسة فى مقعدها . هى أكثر من ينتظره . تنتظره أمى أيضا وهى تطل من النافذة أو وهى تطرز فى صمت . تترك عملها كل فترة وتذهب إلى الطريق وتنظر إلى بعيد . تسأل الجدة "أهو قادم؟" فتجيب أمى " لا ، حتى الآن" . أما إذا رآته فإنها تصيح فجأة "هاهو

قادم، ها هو قادم" وتصلح من وضع الزهور على رأسها. وإذا كانت الجدة هي التي رآته فإنها تنادى: "يا أولاد، يا أولاد، انظروا ها هو فيليكس. اذهبوا للحاق به" وتنفض ثوبها وتعديل تسريحتها. أما إذا رأيناه نحن فإننا نخرج مسرعين "جدى، جدى، ماذا أحضرت لنا؟" وإذا كانت الفراشات الليلية هي التي رآته فإنها تشكل حومة ضخمة طائرة ومضيئة فى الطريق حتى نعرف أن جدنا قادم. يأتى بعربة البضائع ومرتديا بنطلونه الواسع. نظير لاستقباله، ويالها من فرحة ومن قفزات! : "جدى، جدى. أنا الذى رأيتك أولا". كم تسرع أمى وجدتى! وكم هما مسرورتان وتلحقان به أيضا، فتحملان عنه الأشياء الثقيلة. إنه يحملنا ونحن سعداء. يقبلنا ويبتسم. لم يبع شيئا. هل كنا مؤدبين؟. اليوم لم يحضر لنا حلوى. "لم تحضر لنا يا جدى؟. يالك من شرير!". تنبعث منه رائحة الحقل والطريق. يتركنا نحضر البغلة والعربة حتى البيت، ويجرها كل منا لحظة، دون أن نتشاجر. حيثئذ تبدأ الجدة فى إعداد المائدة، وتبتسم للمرة الأولى خلال اليوم. يجلس هو على أفضل مقعد. "انزلوا من فوقه يا أولاد، ودعوه يستريح، فالمسكين جاء مرهقا، ولا تسدوا له النافذة، فالهواء يدخل منها". ثم ترينه ما حطمناه فيتشاجر ويؤنب ونرتعد. تنظف المائدة، وعندئذ يكون ماء الحمام جاهزا. تقف أمى بجوار الطشت ومعها الفرشاة ومرآة الحلاقة الصغيرة. ونريه نحن أكبر فراشة اصطدناها وأكبر قوقعة وجدناها وآخر قفزة اخترعناها، ونطلب منه أن يقوم ببعض الأشياء العجيبة، أن يخرج أوراق الكوتشينة من أذنيه،

أن يعنى أو أن يرقص ، وهو قد خدعنا ، لأنه أحضر بالفعل قراطيس وردية مليئة بالحلوى ، لكن لا لكى نأكلها الآن وإنما بعد تناول الطعام . لهذا نتناول طعامنا كله . ذات مرة أهدانى الجد ثلاثة أباريق من الفخار وثلاثة أطباق من الألومنيوم وصنع هو بنفسه الكراسى التى نجلس عليها ووضع عليها الحروف الأولى من أسمائنا . ولو أن إحدى القطط ولدت فإن الجد يأخذ القطط الصغيرة من ذيلها ويضعها فوق جذع الشجرة الذى يدق فوقه الحطب ثم يقطع رأسها بضربة واحدة بالساطور . عقب ذلك لا نريد أن ننظر إليه أو أن نقبله ، لكن الجدة توضح لنا أن ما فعله الجد ليس إثما لأن القطط لا تزال مغمضة العينين و لم تر الدنيا . إن الذنب الأكبر هو أن نتركهم أحياء يقاسون دون وجود شىء يأكلونه .

الجد هو الذى يذوق الحساء ، وهو الذى تقدم إليه الأطباق أولا ، وهو الذى يرأس المائدة ، وهو الذى يقرر متى نستطيع أن ننهض ، وهو الذى يمتدح صفات جدتى وزهور أمى . وأمى تريه تطريزها وهو يقول ما إذا كان التطريز جيدا و بأى لون يجب أن تكون العصافير المرسومة وألوان العرائس ، وهو أكثر الناس علما بالتوابل والحلويات المنزلية ، وهو الذى يحدد مواعيد الهدوء وأوقات الضجيج ودائما يقول " هيا نتمشى " فنخرج للتجول فى الطريق أو نصل حتى النهر ونجلس تحت أشجار الورد لكى نشم رائحتها ونستمع إلى حكاياته عن جزر الكنارى ، رغم أن الجدة - إحقاقا للحق - أفضل منه فى الحكايات . نفضل أن يرقص ويغنى وأن يصنع الأعاجيب . والجد كبير

السن جدا لكن شعره أسود وضحكته مرحة ، ويا لرشاقتة وهو يدخن !
وله شامتان فى جبهته ، وفى الليل تضع له الجدة المراهم وتدلّك له
جسده لأنه يشكو من آلام غريبة أعلى الساق . الجد هو الجد :
ساحر ، رغم أن الأمور لا تسير معه أحيانا على ما يرام . إن الجدة -
لكى تذهب به إلى إحدى العيادات - قد باعت الدجاجات والملابس
التي كانت تمتلكها وباعت أسنانها الذهبية وأجّرت البغلة ماجريتا لمدة
شهرين . أما نحن فقد حملتنا إلى بيت جدينا لأبينا .

نعم ، عندما يمرض أحد أو - ببساطة - عندما تقف الجدة فى
مواجهتنا وتقول " لقد ساء الأمر " فإنهم يحملوننا إلى بيت جدينا
لأبينا . وجدتنا بنفسها هى التى تصحبنا ، ونحن الذين نطأطئ
الرءوس ولا نريد أن نذهب ، لأن أمى تقول إنها تفضل الموت على
التواجد هناك . فى أحيان أخرى يتركونا فى بيت القابلة أو فى بيت
كلوتيلدى ابنة عم أمى أو فى بيت السيد خيرفاسيو الذى لا أدرى ما
هى صلة قرابته لنا . لا يتركونا نحن الثلاثة فى مكان واحد ، وإنما
يتركون كل واحد منا فى مكان ، أو يتركون أخواتى فى مكان
ويتركوننى فى مكان آخر بعد أن يوصونا بأن نتصرف بأدب وبأن نأكل
ما يقدم لنا وبألا نطلب شيئا بأى شكل وبألا نرفض أبدا . ولا
تستطيع جدتنا أن تسمع شكوى منا لأى سبب . وإذا أمضينا اليوم
جالسين فى مقاعدنا صامتتين ومنفذين الأوامر فذلك خير . فى بيت
مونديتو يتركوننى أنا فقط لأن أخواتى قد كبرن وابن مونديتو أيضا قد
كبر وربما يكون قليل الحياء مثل عمه رحمه الله . يقول جدى لأبى

إننا لا يمكن أن نتواجد فى بيته نحن الثلاثة ولا اثنين منا إلا إذا كان لضرورة قصوى لأننا بكل تأكيد نسبب إزعاجاً لجدتنا لأبينا ولأننا نعرض لأتفه الأسباب ولأننا كثيرون ، أما إذا ذهب أحدنا فى أسبوع وآخر فى أسبوع آخر وآخر فى أسبوع آخر فنعم . ويقول أيضاً إن أمى تستطيع أن تزورهم فى أى وقت تشاء ، فهى لم تكن المخطئة بل إن المخطئ كان والدى و أننا لا ذنب لنا . أما من لا يروق لهن أن تذهب أمى فهن عماتى الطويلات العانسات ، فبمجرد أن يسمعن اسمها يضعن مكنسة بملح وراء الباب ويحتجن فى حجراتهن وهن متحفزات . وأقل ما يعجبهن فينا أننا نتفحص كل شىء وأننا نتبول فى السرير من قلة أدبنا ، مع أنهم يوصوننا بعدم فعل ذلك . المكان الذى نستطيع أن نتبول حيث نشاء هو بيت العمه كلوتيلدى . هناك ننام نحن أولاد العم الصغار كلنا معا وفى الصباح لا يدرى أحد من هو الطفل الذى تبول . ولكن ما يحدث هو أننا لا نتبول فى بيت العمه كلوتيلدى ، لا أخواتى ولا أنا . لا أدرى ما إذا كانت جدتى لأبى يروقها أن تأتى أمى ، فعندما تحضرنا جدتى أوعندما تأتى لتأخذنا تجلس الجدتان فى غرفة الطعام وتشرعان فى الحديث عن الأشخاص الذين تعرفانهم . وإذا تعين على عماتى المرور فإنهن يحين " كيف حالك يا أديلا ألفيرا؟ " ثم يمضين . رغم كل ذلك يكفى أن يقول جدى لأبى إننا يمكن أن نذهب إلى هناك لكى نذهب . يكفى أن يقول إن أمى يمكن أن تذهب لكى تذهب ، فلا أحد يجرو على مخالفة ذلك الجد . ولا حتى الدجاجات .

لا يمكن لأحد أن يقول " لا " فى ذلك البيت ولا يمكن لأحد أن يتكلم مع الأعشاب أو أن يتحدث مع فراشة أو شجرة . يقدمون لأحدنا الطعام دون أن يسألونه ماذا يحب ، وعلينا أن نتناول الأكل كله دون كلام ، ويحدث نفس الشيء إذا كان الأكل هو قلقاس أو عجة الصباح ، فمجرد أن أفكر فى الاحتجاج تنظر إلى عماتى شزرا و تقلن إنه إذا لم يعجبني الطعام فلأرحل . ويسألننى إذا كنت أكل فى بيتى أفضل من هذا الطعام ، وأن هذا الطعام لا أضع فيه شيئاً، لا أنا ولا أمى . إن الواحد منا يجب أن يعمل وأن يكون يقظاً، فالجد لا يقول " أحضر ماء . اذهب وغير هذه البطانية التى فى الشمس . ابحث عن البيض فى عش الدجاجة التى أسمعها تصيح " لا ، بل يقول "الزير ليس به ماء والبطانية تحترق من الشمس وأسمع دجاجة تصيح" ويجب أن أكون قريباً حين يقول ذلك ، ويجب أن أعرف أن هذا واجب الأولاد . يالحظى التعس إذا لم أسمعهم ورأى بعد لحظة أن البطانية لا تزال فى الشمس! . من حسن الحظ أن الجدة وعماتى يسارعن بإبلاغى ما يريد الجد، فأخر ما يردنه هو أن يرينه عصياً .

أنف هذا الجد طويلة وهى تتركز على شاربه . تتحرك عندما يأكل . وهو لا يتواجد فى البيت مطلقاً إلا فى ساعة الغداء أو فى ساعة العشاء . يقول إن البيت للنساء والأطفال . الشيء الوحيد الذى يقوم به فى البيت هو ملء الساعات فى الظهر وعند النوم . إذا خرج منه ريح بصوت مسموع فحين يفعل ذلك لا يستطيع أحد أن يضحك أو أن ينظر إلى شخص آخر . لا يستطيع ذلك حتى لو

كانت الرائحة كريهة . يجب أن يظل أحدنا فى مكانه وأن يتظاهر بأنه لم يتبه لذلك . إذ لا يمكن ألا نحترم الجد . حتى البقرات لا يستطعن ذلك ، فهو إذا دعاهن تدخلن إلى الحظيرة طائعات دون خوار ، وهن يستسلمن للحلب فى هدوء . وعندما تراه الدجاجات يأتى فإنهن يخرجن من المطبخ دون أن يطردهن أحد ويتصايحن بصوت منخفض ، وترفع القطط ظهورها وتمشى على أطرافها ، إذ ما معنى أن تنام القطط تحت المائدة بدلاً من صيد الفئران ؟ لا يدخن أحد أمامه . صوته لا يكون رقيقاً إلا إذا وجه حديثه إلى الجدة . حينئذ تهدأ عيناه وتلمعان . الجدة اسمها زينة وهى ليست صينية ولا سوداء لكنه يدعوها هكذا : صينية أو سوداء . يتحدث إليها فى عذوبة حتى لو كان لمجرد أن يطلب أن تقرب إليه شيئاً على المائدة ليس فى متناول يده . وعندما يمر بجانبها يوقفها ليصلح لها وضع خصلة شعر أو لكى ينزع عنها شيئاً ما قد علق بها ، وتستغل هى الفرصة وتصيح وضع ياقة قميصه . يناديها إلى فناء البيت عندما يروق له ويتحدثان بصوت منخفض تحت الشجرة ، اسمه باستور ، لكننا نحن الأخوة عندما نكون بمفردنا ولا يسمعا أحد ندعوه "زيندو العجوز" .

فى فجر ذات يوم كنت مع الجدة فى غرفة الطعام أنتظر أن ينقشع الضباب حتى أذهب إلى الحظيرة وأرى أعمامى وهم يجلبون آخر البقرات عندما دخل الجد . ظللت ساكناً تماماً ، جالساً على مقعدى . سألتى فجأة : "هل تعلم فى أى يوم نحن ؟" لم أكن أعرف ، فنظرت إلى جدتى كى تساعدنى . أجاب هو بنفسه " اليوم

هو يوم العيد وسنشوى خنزيراً . لكن ليس هذا هو المهم وإنما المهم هو أن أباك سيأتى وستتعرف عليه . مشطوا له شعره وألبسوه ثيابه مبكراً ويجب ألا تتسخ ملابسه حتى يجده أبوه مهنداً .

أول ما قررت أن أفعله هو ألا أكل يوسفى ولا جوافة حتى أشعر بجوع شديد فأكل كثيراً أمام أبى عندما يضعون المائدة . وعندما علمت عماتى بمقدم أبى فرحن جداً وقلن إنهن سينظفن البيت وسيغسلن الأثاث . ومشطن لى شعرى وألبسونى ثيابى . ذهبت إلى الفناء مرتديا قبعتى لكى أختار المكان الذى سأنتظر فيه أبى . عندما رأتنى الدجاجات أخرج سألتنى " إلى أين يذهب هذا الطفل بكل هذه الأناقة ؟ أظن أنه مونديتو جوتيريث ؟ " ، لكننى لم ألق بالآلهن وقلت للرياحين التى تفتح فى الساعة العاشرة أن تفتح فى التاسعة ، وطلبت من رياحين المساء أن تفوح عطرا فى النهار وطلبت من الفراشات أن ترقب الطريق وأن تطير عندما يظهر أبى ، وطلبت من القطط أن تصيد كل منها فأرا وأن تستقبل أبى والفأر بين أسنانها حتى يعرف أنهم صيادون مهرة . توقفت فى وسط الورود ، تراودنى فكرة أن أظل هناك وأن أظهار بآنى لم أشهده حتى يسأل " ومن هو هذا الرجل الذى يحرس الشجرة ؟ " " هذا هو ابنك " ، لكن الشمس كانت حارة فذهبت الى ظل شجرة الفناء وأخذت فأسا أقطع بها الحطب وأردت أن يقول أبى " ومن هو هذا الرجل الذى يعمل بجدة ؟ " فتجيبه الجدة أن هذا ابنك ، لكن بدا لى من الأفضل ألا أفعل لأن أعلى جذع الشجرة به نتوءات قبيحة المنظر ، فذهبت إلى

شجرة الصفصاف ووقفت هناك أنتظره فى وضع بدا كوضع رعاة البقر أمثاله " من ذلك الرجل الجاد المهيب الذى يقف هناك ؟ " " إنه ابنك " . " لا أصدق . ياله من كبير وجميل . تعال إلى يا بنى أريد أن أسلم عليك . كيف حال إخوتك وأمك ؟ بلغهم تحياتى " وتخيلت أنه سيقول عندما أقترب منه " إنه شبهى . الآن سأقوم أنا بتربيته . سأصاحبه الى كاماجى وسأدخله المدرسة " .

أبى هو ذلك الرجل الذى تعلق صورته فى الصالة محتطيا حصانا عندما كان شابا صغيرا . كانت له معجبات أكثر مما كان لأعمامى أرماندو وألبرتو مجتمعين . هذا ما تذكره الجدة ، ليس لأنه ابنها وإنما لأنه لم يكن فى الحى أجمل منه أو من يضاهيه رشاقة عندما يمتطى الحصان . أخواتى رأينه ذات مرة وقلن لى إنه أطول من الجد وأضخم لكن له نفس صوته وله نفس ضحكة العم أرماندو وعيون العم أرماندو وأنف الجدة . العم ألبرتو هو أكثر من يشبهه فى المشى والحواجب ولأنه يتكلم هكذا كمن يلقي الكلمات من أحد جانبيه فمه . يروق للاثنين القمصان الكاروهات والقبعات السوداء ، ويبدوان كرعاة البقر وهما فى الحقيقة كذلك . أنا أيضا أشبهه . كل الناس يقولون ذلك . يعرفون أننى ابنه بالشبه . تحدث لى نفس الأشياء ولى نفس الشامة ونفس طريقة المشى والنوم ، كل ذلك دون أن أراه قط إلا فى الصورة المعلقة فى الصالة لأن الدم له قوانينه . إنه نفس الدم . تقول الجدة إنه عندما كان طفلا كان أيضا صغيرا يبعث على الأسى ، لكنه لم يكن يمرض كثيرا وكان يعمل أكثر منى . لا أستطيع أن أذكره

فى بىتى . وعندما يقول أقارب أمى إنه قليل الحياء وإن أمى طيبة وإننى عندما أكبر يجب أن أرعى أمى وجدتى وأنه إذا احتاج منى شيئاً أرفض وأن عليه أن يتذكر أنه لم يهتم بى فى صغرى- عندما يقولون ذلك أقول نعم إننى سأفعل ذلك ، لكننى أتحسر على أبى الذى قل حياؤه حتى أن كل الناس يتحدثون عنه بسوء .

أتخيل أحياناً أننى أبى وأننى مرسوم فى الصلاة أمتطى نفس الحصان وأننى أذهب إلى القرية وأحضر لجدتى الطلبات التى رحتى تحفظها فى الخزانة القديمة . لا يمكن أن أنسى السكر المضأتزوج فى الحال بأمى مرة أخرى . أحياناً أخرى أتخيل أننى أنام معه هو لا مع العم ألبرتو وأنه يغطينى حتى لا يلدغنى الناموس . أتخيل أحياناً أننى أتجول راكباً الحصان الصغير ، لا مع العم أرماندو بل معه هو وأنا نتحدث : يسألنى عن أخواتى وأدعوه لزيارتنا لكى نذبح أفضل دجاجة لدينا .

لكنه لم يكن قد جاء ، وكان على أن أكل برتقالة . وأكلت واحدة أخرى دون أن أنتبه ، ثم أكلت ثمرة جوافة دون أن أنتبه . وضاعت منى فرصة رؤية طعن الخنزير . لم أشاهد كيف أدخلوا فيه السكين ولا كيف يكون الخنزير المذبوح من الداخل . فرغت عماتى من تنظيف البيت والاستحمام . قالت لى جدتى نعم إن أبى سيأتى ، إنه على وشك الوصول . ذهبت إلى حيث النخل ونقلت الخبر إلى النخلات ، فهن صديقاتى وكن ينتظرن مجرد ظهوره حتى يهرعن لاستقباله . وضعت عماتى زهوراً جديدة فى كل الزهريات ووضعت الجدة مفرشاً

أبيض نظيفا على ظهر كرسى لكى تفرشه عندما يكون أبى على مقربة من البيت. عندما سألتها مرة أخرى قالت لى " هذا سيأتى فى الثانية عشرة " لكن الثانية عشرة مضت واضطرت إلى أن أقول لرياحين 'الساعة العاشرة ألا ينغلqn فى الواحدة ورجوت زهور ياسمين الليل أن تظا رائحتهن تفوح. من حسن الحظ أن بعض العصافير كانت تحتفل فوق الشجرة ، أنا كنت أنصهر لأن شجرة الصفصاف لا تغطى إلا ستسألنى أمى بكل تأكيد "ماذا قال لك أبوك؟ هل وجدك غميلا؟ هل سألك عنا وعن أخواتك؟ وهل أعطاك نقودا؟"

سمعتُ عمتى روسا تقول فجأة وهى عند الباب:

- ها هو خواكين يأتى !

وألقت المكنسة من يدها وأسهرت إلى الداخل لتعدل ثوبها.
ردت جدتى وعماتى من المطبخ:

- ها هو خواكين يأتى !

وترك أعمامى الخنزير الذى كانوا يشوونه تحت الشجرة وأسرعوا. جدى وحده هو الذى ظل هناك وعدل وضع القبعة والحزام. بحثت القطط عن فئرانها وجاءت البقرات حتى السور ومعها أبناؤها حديثو الولادة ، ولمع سقف البيت وهاجت الفراشات وغنت العصافير على الشجر وذهبت الدجاجات حتى مقدمة المنزل كما لو كانوا قد وضعوا لها أذرة هناك.

خواكين أبى وقد رأيتـه على حصانه الأبيض يظهر ويختفى بين
النخلات، لكن هناك فى الطريق . سيصل إلى باب المزرعة وسيسلك
الطريق حتى البيت . فى تلك اللحظة لم يكن علىّ أن أخرج
لاستقباله، بل بعد أن يعبر التـرعة الصغيرة، عندما يبدأ الحصان فى
الصعود وبعد أن يأتى متهاديا تحت ظلال الشجر . حينئذ سأرى وجهه .

خرجت جدتى لاستقباله مهرولة وهى ترتدى المـريـلة البيضاء
المطرزة . ستأتى عماتى بعد ذلك وهن يضعن الزهور على شعورهن،
ثم أعمامى والقـطـط والدنيا كلها تبسـم . وقد ظللت أنا حيث كنت ،
تحت شجرة الصفصاف ، أضع إحدى قدمى على حجر ويـدى فى
وسطى كما لو كنت عمى ألبرتو وهو يتحدث . كان الجميع يأتون إلى
الحديقة : رياحين الساعة العاشرة وزهور ياسمين الليل ، وكانت الورود
تسكب عبيرها وكذلك الياسمين . ها هو أبى يمر بين النخل . كان
يضاهى النخل طولا ، و كانت النخلات قد أسرعـت حتى حافة
الطريق يصفقن له . كان الحصان الأبيض ضخما يلمع ، وكنت ترى
أبى مبتسماً لا يعرف مفاجأة أنى هناك . وقد انفرط منى أول زرار فى
القـميص لشدة ما اتسع صدرى . لم تقاوم جدتى الإغراء فأسرعت .
لحقت بأبى فى وسط البوابة و سمعت ضحكاتهم . مدّ إليها ذراعيه
ورفعها على الحصان . كانت جدتى تقبله و نزعـت عنه القـبـعة .
قلت لنفسى " من الأفضل أن أذهب لأجمع الحطب تحت الشجرة " .
لكن لم يكن هناك وقت . كان أبى على وشك أن يرانى . كانت
عماتى تنتظرن عند باب المزرعة . وضع أبى جدتى على الأرض ،

وفى قفزة واحدة نزل وعانق أول أخواته و قبلها ثم فعل ذلك مع الثانية دون أن تتركه الأولى و فعل ذلك مع الثالثة دون أن تتركه الأولى أو الثانية أو الجدة و حان دور أعمامى فى المعانقة القوية . سمعت صوت الربت على الظهر من مكانى وجاء الجميع متعانقين ضاحكين . كانوا يقتربون من شجرة الصفصاف . انفرط منى الزرار الثانى فى القميص وصاحت العصافير على كل الأغصان : " هاهم يصلون " . أخيراً رأيت أبى . رأيتَه تمامًا : مبتسماً ، ظهره إلى الشمس وقبعته فى يده . كم هو ضخّم وأسود الشعر وكم هى بيضاء أسنانه ! شعرت أننى لا أستطيع أن أقول " التحيات يا أبى ، كيف حالك وكيف حال زوجتك وأولادك الآخرين ؟ " وشعرت أننى لن أستطيع الإجابة عندما يسألنى عن إخواتى وأسرتى . شعرت بالخجل لأن الكل يأتى ضاحكاً بينما أنا متجمد ليس فى من حركة إلا عينا مفتوحتان وكانوا على وشك المرور بجوارى دون أن يرونى . هاهو يمر . غيّرت من وضعى مرتين متتاليتين دون أن أتخلى عن تشبهى برعاة البقر ، لكنهم لم يرونى . أطلقت كحة ، قلت شيئاً ما : " ألم ترى لعبتى يا عمتى روسا؟ " . لم تسمعنى . كانت الجدة هى التى أدارت ظهرها ، لا بد أنها هى صاحبة الزهور الكثيرة المطرزة على مريلتها البيضاء . أبعدت بذراعها أجساد العائلة وفتحت طريقاً بين أبى وبينى ، أشارت إلىّ قائلة " أنظر يا خواكين هاهو ابنك " لماذا لا توجد معى القوقعة التى تجلب الحظ؟ كنت على وشك أن أجرى نحوه ، لكن نظرتَه أوقفتنى وانتظرت كلماته التى كان سينطقها .

قال: " عيون جاحظة كعائلة أمه " وأقفل دائرة الأهل واتجه الجميع إلى البيت فخرج جدى بذراعيه مفتوحتين . قال له " ظننت أنك لن تجيء " . تعانقا ، سيصطحبه ليريه الخنزير المشوى بلا شك .

ذهبت أنا لآكل ثمرة جوافة وظللت حيث كنت ، أبحث عن أعشاش الدجاجات .

عندما ولدت أيها السعيد يا للفيضان ! كانت تمطر منذ ثلاثة أيام . لكن لم يكن وابلًا من المطر هكذا . لا ، كان ذلك فيضاناً وهذا البيت ، هل ترون حالته السيئة و الفتحات التي به ؟ حيثُذ كانت حالته أسوأ من ذلك . لم يكن هناك إبريق أو حلة أو طشت أو آنية من الفخار إلا و كنا نستقبل فيها ماءً يتساقط . وعلى أية حال فالماء كان يجرى فى الصالة لأنه كان يدخل من تحت الجدران ومن الأبواب . كانت الأفنية قد غرقت وكان محصول القصب نامياً . لم يكن بمقدور أحد مجرد التفكير فى الوصول إلى الطريق . فى ذلك الوقت عنّ لأملك أن تلذك لأنها هكذا . ولماذا كان ذلك ؟ . مع أول آه اشتدت ظلمة السماء التي كانت مظلمة أصلاً . كان علينا أن نوقد الشموع ، لكن حتى الضوء نفسه لم يكن يرى مكانه . وقالت الرياح " هاأنذا يا بانشو " حيثُذ انفصل سقف البيت طائراً . ذهبت إلى سلطان الله الأعظم ، ذلك القديس الذى أضعه فى الحجرة وأوقدت شمعة له خاصة . حتى ذلك لم يجد . حيثُذ أدركت أن ذلك كان إعصاراً أو فيضاناً كما يسمونه . كانت أمى تحكى أنه ذات مرة فى غابر الأزمان غضب الله من الناس لا أدري لماذا فأرسل فيضاناً وهو ما يعنى أن تظل السماء تمطر أربعين يوماً حتى يغرق الناس كلهم . عقاب . لكن كان هناك رجل اسمه نويل كما تحكى أمى فصنع قارباً وغطى كل الفتحات جيداً وأركب فيه زوجاً من كل الحيوانات التي كانت موجودة وطعاماً كثيراً وبذوراً ، لأن فكرته كانت إنقاذ نفسه وأهله ، وعندما يجف أو يقل الماء يخرج وينشئ ضيعة لا ينقصها شيء . قلت لنفسى : " هذا الماء هو الفيضان بعينه - لأننى لم أكن

رأيت السماء تمطر بهذا الشكل قط - وأنا سنكون من الغارقين لأننا ليس لدينا قارب" وأوقدت شمعة أخرى لتمثال يسوع وهى آخر شمعة كانت معى ، وطلبت منه من كل قلبى ألا يبالغ . و لما لم يكن هناك مكان جاف فقد بدأت الصراصير والعناكب والعقارب فى الدخول إلى البيت . كنا على وشك أن نقتلهم فى البداية ، لكننا عدلنا عن ذلك فيما بعد ، فمن الكفر أن نقتل حشرات لا تستطيع الدفاع عن نفسها . وأملك تواصل الولادة . كنت وجدك نغير السرير من مكانه كل لحظة لأن المياه كانت تتساقط وكانت أخواتك يبكين وكل منهما تحمل مظلة تغطى بها استيلا حتى جئت أنت فى النهاية فى الثانية عشرة ليلا بالضبط . لا أدري فى أى يوم عيد ميلادك . ولم تضع أنت دقيقة واحدة فتبولت هاهنا . كم كان بولك غزيرا! كم كنت نحيفا! وكان يمكن أن نحصى عدد فقرات ظهرك . هل رأيت حثالة البشر الذين يمرون من هنا؟ . نفس الشيء . نفس الشيء كان ذراعاك يبدوان كشوكتين وكنت كلك مجرد عينين وبطن . يا للحسرة التى انتابتنى! . قلت لنفسى " هذا لن يعيش يا أديلا إلفيرا" . كم سررنا حين علمنا أنك ولد ، خاصة فيليكس ، فقد أراد فى البداية ولدا فجاءت أملك ، وأراد بعد ذلك حفيدا فولدت أخواتك . لو أن أخواتك يصبحن ذكورا فإننى أسامح أملك! . وقد أتيت أنت ذكرا . استمر المطر لكن السماء تفتحت ، وفى النهاية توقف الماء . كان الوحل كثيرا لدرجة أنه لم يكن يمكن الخروج إلا بالقفز من حجر إلى حجر حتى يصل أحدنا إلى المرحاض . حينئذ حدث ما حدث : يبدو أن المطر الغزير والرياح قد جعلتا الأرض تقوى فخرجت منها أعشاب وأعشاب يا بنى حتى

أحاطت بالبيت والجدران فى أسبوع واحد وبدا كما لو كانت الحشائش
ستبتلع البيت . لقد غطت الأفنية وتسلفت الجدران وغطت السقف بل
ودخلت إلى البيت . كانت الحشائش تنبت تحت أرجل المائدة وخلف
الأبواب بل وفى وسط الصالة . بين يوم وليلة وفيليكس - فيليكس
المسكين الطيب دائما الذى لا يغضب ولا ينفد صبره أبدا- كان
يستيقظ مبكرا يشق طريقا بفأسه حتى البئر وبستان الكسبرة والمرحاض
والأماكن الهامة . لكنها لم تكن حشائش - تنبها لذلك فيما بعد-
وإنما أزهار، أزهار من كل صنف تفتحت كلها فى آن واحد .
يا للرونق! كان لدينا من كل الأزهار . وجاءت الفراشات كبيرة
وذهبية ومتوسطة ووردية وزرقاء وحمراء وصغيرة وصفراء وذات لونين
أو ثلاثة ألوان وذات أربعة أجنحة أو خمسة . كان أحدها يجدها منذ
الشروق . كان علينا أن نتحدث ونحن ندفعها عن أفواهنا . كانت
تساقط فى الزير أو فى أوانى المطبخ على الموقد وعلى أغطية زجاجات
العطر . كنت أجن ، وكان يجب الاحتراس لئلا تختنق أنت ، وقد
كنت دائما كثير الصراخ . لم يكن من المجدى إبعادها ، فلم تكن
تمشى . كنا نشرب القهوة بالملعقة . فى وقت الظهر لم تكن الفراشات
تجد مكانا تقف فيه وكانت تتصارع على المكان . كان الحل الوحيد هو
نشر ملاءات ملونة على بعد . وعندما كانت الفراشات تذهب للنوم فى
الليل كانت تجيء فراشات الليل كثيرات براقه حتى أننا كنا نوفر الشمع
والضوء اللامع . كان ذلك بمثابة ضوء القديس كنتين ، فلم أرق قط مثل
تلك الفراشات مجتمعة . وكنا قلقين عليك لأنك كنت لا تزال ضعيفا
تزداد نحافة حتى الشفافية تقريبا . كانت الجارات تأتين لرؤيتك أو لكى

يحضرن لك شرابا ما يكنّ قد سمعن عنه ، وكنت أنا ألقك فى ملاءة
وأدخلك تحت الناموسية حتى لو كان فى عز الظهر لكى لا ترينك
على هذا الوضع فينصرفن ضاحكات . لم يصب أخواتك نصف ما
أصابك من الأمراض . لقد أصابتك الحصبة ومقدمات التيفود والسعال
والغدة النكفية وشلل الأطفال و التيفود والحصبة الألمانية والقىء
والحسد والقمل والكوايبس . كل ذلك وأنت صغير . و يا لأمر
إسهالك ! كنت تبدو نحىلا و يالها من رائحة كريهة! . كنت أقرأ
عليك فقرة من التوراة مرات ومرات ولم تكن تشفى لا بالريحان ولا
بورق الجوافة ولا بقشر الرمان ولا بعشب اليابان و لا بأى شىء . ولا
بأغنية " صحة، صحة، يا عجز الضفدعة " والتي كنت أكلف أخواتك
بترديدها حتى يهدأن، لأن الإثنتين كانتا تريدان حملك دائما . هن
أيضا كنّ صغيرات وكن يتتهزن فرصة أقل غفلة منا عنك حتى يخرجن
بك وهن يجردنك . ولم يكن هناك بصراحة ما نريك عليه ، لأنكم
ولدتم فى أوقات عصيبة . لم تكن هناك حرب ولا أى شىء ولم يكن
فيليكس يشرب ، لكن يا لها من أوقات صعبة وكم طالت! . بعد
ذلك لو أن الألبان لم تسبب لك أذى! لكن لا ، فلم تتحمل نوعا
واحدا منها وقد جربناها جميعا: لبن البقر، لبن الخيل والماعز وحتى
عصارة النباتات وماء الأرز ، لكن كل ذلك كان يعادل بيض الكلاب،
فلم يختلف الأمر إذا كان اللبن خالصا أم مخلوطا بالماء أو القرفة . كل
هذا والبيت ملىء بالفراشات والزهور كما لو كنا فى وقت احتفالات .
كان الناس يتهايمسون: رغم حالتنا السيئة إلا أن لدينا وقت للعناية
بالحدائق . بالنسبة لى فأنا مقتنعة تماما بأن ما أصابك هو عين السيدة

فلورندا. إن نظرتها قوية لدرجة يجب الاحتراس منها، فذات مرة كانت فى الفناء شجرة فاكهة مشمرة كنت أنوى أن أعد من ثمرها حلوى لفيليكس وجاءت هى فى الظهر وأثنت عليها مرة واحدة فقط. فى المساء كانت الشجرة ذابلة و فى الليل سقطت. أتى عليها الصبح وهى متعفنة تغطيها الديدان . لابد أن يكون للإنسان عين قوية لكى يحسدك أنت ، لأنك كما أقول لك تبعث على الخوف. أنت الآن دميم ، لكن حيثئذ لم يكن لك شبه. كنت على وشك الموت. لابد أن يكون ذلك، فلم تكن تحمل شيئا فى المعدة. الجانب الحسن فى كل ذلك هو أن جدك المسكين قد ترك الشراب تماما تلك المرة . كان يخرج ومعه البغلة والعربة كل صباح محملا بالحلوى والطلبات لبيعها فى الحقول . كان يذهب وهو لم يكد يتناول مجرد رشفة قهوة. لم يكن هناك فطور، إذ كنا نترك اللبن القليل للطفلتين . خيط ، زراير، إبر، فرش ، تماثيل من الجبس، أمشاط وفلايات. هذه هى الأشياء التى كان يبيعها، بالإضافة إلى الشتلات التى كانوا يطلبونها منه، وبيض دجاجتى الملونة التى كان قد أهداها إلىّ عندما كنا فى فترة الخطوبة. كان يبيع البيض كثيرا لأن كل بيضة تقريبا كان بها صفارين لونهما أحمر. كثير من الناس كانوا يعتقدون أنها تجلب لهم الحظ وأنها مفيدة للصوت وللرجال. بعض الناس كانوا يشترون هذا البيض والبعض الآخر لا يشترونه لكنه كان مبهيجا. سعادة الحياة تلك التى لم تفارقه أبدا، بروحه المرحه وبخفة ظله، فكان يصنع ألعابا سحرية بثلاث زجاجات ويقوم ببعض الخدع مستخدما ورق الكوتشينة ويرقص الرقصة الكوبية فى أى مكان يطلب منه ذلك ويغنى. أما إذا قال له

أحد -لأن الناس فى كل مكان كانوا يعرفون عييه والناس أشرار-
"خذ رشفة يا سيد فيليكس" فإنه كان يرفض . منذ أن ولدت لم يعد
للشرب أو للعب القمار حقيقة . وما عرف بعد ذلك ، فالمرض كان
يأتى إليه سيرا . سمعت دائماً أن أفضل طريقة لكى يعزف سكير عن
الخمر ولا يستطيع شمها ولو من على بعد هى أن نأخذ ثلاث سمكات
من نهر وأن تحمص مع القرقة و أن تطحن وأن نضع للإنسان كمية
ضئيلة جداً على أى مشروب يتناوله . إنه علاج مقدس لكنه يسبب
أعراضاً جانبية وإسهالاً شديداً . لم أقدمه لفيليكس قط وكذلك لم
أضع له قليلاً من لبن الخنزير حديث الولادة فى القهوة و هو علاج
يقولون إنه مفيد . ما الذى كان فيليكس يعود به إلى البيت؟ عدة
ريالات لا تكفى لكى نبدأ . و حتى هذه الريالات لم تكن كل يوم .
كان ذلك هو الشيء الوحيد الذى نمتلكه و كنت و أستىلا نغسل
و نكوى للغير و لكن لم يكن عندنا زبائن باستمرار . أتذكر أنه كانت
هناك فترة لم يكن فيليكس يجد فيها عملاً ولا تحت الأرض ، وكانت
استىلا صغيرة ، وقد استطعت أنا عن طريق غسل الملابس أن أنفق
على البيت لمدة تزيد عن عام . كانوا يدفعون لى رايالا مقابل تنظيف
وكى سترة بيضاء مبطنة . لكى أشتري لك دواء شلل الأطفال
اضطرت ذات مرة إلى نزع عملة كانت أخواتك يضعنها على السرة .
لهذا تبدو سرتهن الآن بارزة كما لو كانت بزازة . حينذاك رهناً نصف
أراضى السيدة فلورندا . بعد ذلك رهناً النصف الآخر وبعنا لها البقرة
والكتاكيت التى كانت تبيض وطلبنا منها قرضاً ، وهكذا كنا نسير
الأمور . بشكل أو بآخر لم نكن ننام دون عشاء . لكن فيليكس بدأ

يشكو من آلام فى الساق . فى البداية ظننت أنها روماتيزم فأعددت له دواء ، لكننا بعد ذلك لم نعلم كنه ذلك الألم ولا كيفية تسكينه . لم يكن يسكنه شىء . لم يبق أمامى أنا واستيلا إلا أن نوقد شموعا لسلطان الله الأعظم وأن نصلى ونردد دعاء القديس أليخو وأدعية أخرى . إننى حينذاك قد ارتكبت الخطأ الجسيم الذى ارتكبته والذى لا أدرى حتى الآن ما هو ، فحينذاك أعرض الله عنى حقيقة . كان الله قد أعرض عنى قبل ذلك مرتين أو ثلاث مرات ، لكن ليس بهذا الشكل أبدا حتى أننى لم أعد أعرف أى طريق أسلك . حسنا ، كل ذلك حدث فيما بعد وأنتم تذكرون . لقد تركت الحكاية الأصلية . الأمر هو أنك لم تكن تشفى وكان قلبى ينفطر لرؤيتك هكذا ضعيفا كثير التبول . كلما كنت أحملك لكلى أنظفك مثلا كنت ألاحظ أنك لا تزن شيئا ، فظننت دائما أنك لن تعيش . لم يكن ممكنا . وكان أمرى معجزة . كنت تعيش على العلاج . كنت تعيش على العلاج وعلى الوعد الكبير الذى قطعته على نفسى أمام الله وأمام العذراء . لكن بعد مرور عام رضيت وذهبت إلى حجرتى دون أن يرانى أو يسمعنى أحد و قلت للسيد المسيح " سيدى قد أدركت أنه ليس هناك ما يمكن عمله . أنت الذى أعطيت و أنت الذى تأخذ فلا تجعله يستمر فى المعاناة . لا أريد إلا أن تدعنى أسمّنه قليلاً حتى لا تضحك منه الملائكة الآخرون فى السماء " . عليك أن تصدق أن بعد هذا الحوار بأسبوع كنا جميعاً جالسين فى الصالة : أنا أحملك بين ذراعى وأغنى لك حتى تنام ، لا لأن صوت بكائك كان مزعجاً - إذ كانت قواك خائرة حتى أنك لم تكن تسمع - فسمعنا صوت حيوان يزمرجر

على الباب كمن يريد أن يدخل . كانت أبوابنا مغلقة إذ كان الوقت أسبوع القديس و لهذا فالشيطان يسير مطلقا . لم يكن فيليكس موجوداً . حملتك أستبلا و بحثت أنا عن الساطور . عندما فتحت رأينا ماعزاً سوداء - بيتا - عيونها غائرة تبعث على الأسى . لقد تحسرت عليها أكثر مما تحسرت عليك ، كم كانت حالتها سيئة تلك الماعز . أدخلناها و كانت إحدى أرجلها مكسورة و بها ديدان و كان ضرعها متورماً و مليئاً بالحبوب . كانت تتألم كثيراً و لم تكن تدع أحداً يلمسها . لكنها تركت فيليكس يلمسها . عندما جاء عالجه . يا للحنان الذى ربط لها به رجلها و الذى عاملها به يوماً بعد يوم بكل هدوء . و كان يحلبها بالتدريج فيمرر يده على ظهرها و يتحدث إليها حتى أفرغ منها كل الأذى المركز الذى كان بها : كان لبناً كثيفاً كريه الرائحة . كانت الحشائش الطازجة تفيض فى الأفنية و يبدو من لونها الأخضر أنها كانت مغذية ، صدقونى إن الماعز بدأت تتحسن وتتحسن و بعد شهر كانت على ما يرام . من السهل أن نحكى ذلك ، لكن لم يكن هناك أحد يصدق ما حدث بمجرد أن يرى لأننى أقول لكم أن تلك الماعز كانت حالتها سيئة جداً . كان ذلك معجزة ، واحدة من أكبر معجزات الله . هى الآن تجرى و تصيح وتتبول وتلعب مع الأطفال كما لو أن شيئاً لم يحدث لها . إنها الماعز ذات أجمل صوت سمعته فى حياتى و نحن حتى الآن لا نجرؤ على شرب لبنها . و ذات مرة فى الظهر ، كأننى أرى ذلك الآن ، دخلت فى الظهر من الفناء إلى حجرتى و معى بعض الملابس لأن السماء كانت على وشك أن تمطر و رأيت يا بنى الماعز مضطجعة فى السرير فوقك

و أنت ترضع ثديها و هي ساكنة كما لو كانت إنسانة و كما لو كانت تعرف ما تفعله . نظرت إلى نظرة هائلة . عندها صحت " سبحان الله ، أسرعى يا أستىلا إلى هنا و انظرى هذا " كانت أستىلا ستطردها لكنى صحت بها ألا تفعل ، لأن هذا اللبن لن يضررك - تأمل - لأن ذلك كان شيئاً غريباً منكما . و بالفعل منذ ذلك الحين تكفلت بيتا بتغذيتك فى أوقاتك بشكل أفضل من أمك و بدأت تتحسن و تسمن . و كم تحسنت ! يا عجباً لأمر الله ! لقد أرسل إليك هذه الماعز خصيصاً من أجل الوعد الذى قطعته على نفسى . وإلا فلماذا لم يحلبها أحد قط و قد تحسنت ؟ . عندما علمت السيدة فلورندا بما حدث كان علينا أن نهديها الماعز ، لكن ذلك لم يهم فقد واصلت أنت التحسن : ذهب عنك الإسهال وأخذت لون بنى البشر ومشيت . كنت مسرورة لكنك لم تكن تتكلم و ظننت أن عيباً ما سيظل بك فهذا منطقى و علينا أن نكون ممتنين و أمكننا أن نكون مطمئنين إلى أنه سيكون هناك رجل فى العائلة مستقبلاً . وذات يوم ، كان عمرك ثلاث سنوات ، و كنت تفهم كل شئ أكثر من أخوات ، كانت أمك واقفة عند باب غرفة الطعام . كان يوماً مشمساً ودخلت أنت من المطبخ ومكثت تنظر إليها و تنظر ثم نظرت إلى و قلت - بوضوح مثلما تتحدث الآن - أن أمك لها جناحان ، هل كانت حمامة !؟

ذات مساء ذهبت وأمى إلى الحقل . بدأنا نسير و نسير و عندما
نظرنا رأينا أننا كنا فى ملاءة مزروعة بنبات عباد الشمس . أينما كنا
ننظر كانت أعيننا ترى عباد الشمس . أعجبنا الزرع كثيراً و كانت
الرياح تحركه برقة فتشابكت أيدينا و بدأنا نرقص و نغنى بأعلى
صوتنا . لا أدري كم من الوقت استمرت هذه اللعبة . عندما إفترقت
أيدينا- وكنا قد تعبنا- عاودنا النظر إلى ما حولنا و ألفينا الحقل أكثر
جمالاً ، إذ كان أشد صفرة - بل أقل صفرة- و أكثر احمراراً .
نظرت و نظرت و فجأة بدأت أجرى . إيه . عدوت على أطراف
أصابعى و ذراعى مفتوحتان . فتحت أمى قميصها فبرز جناحها
الكبيران . أخذت هى أيضاً تعدو و تقفز و تدور حول نفسها و تفتح
عينها و تغمضهما فتمتلئ مخيلتنا بعباد الشمس ، باللون الأحمر
والأصفر حتى إلتقينا و تعانقنا . أدركنا حينئذ أن السماء تنتهى هناك
عند التقائها بالتلال . فكرنا فى البداية أن نعدو إلى النهر و أن نلقى
على النار ملء الأوعية ماء و أن نصرخ طلباً للنجدة و لكن فى تلك
اللحظة نفسها سمعنا جلبة خيول كثيرة انتبهنا جيداً : لم تكن السماء
تشتعل ، بل كانت كوكبة من الخيول الحمراء تلوح فى الأفق وتتقدم
مسرعة صوبنا . وصلوا . عندما داس أول حصان بأقدامه زراعات عباد
الشمس أحدث شراراً و أثار مجموعة من الفراشات وهبت فراشات
الليل مذعورة . جريت نحو أمى . وصل الحصان ووقف متحفزاً
بيننا . رأيت شعره متوهجاً و رغبة فمه الوردية و ذيله الكثيف . أردنا
أن نغطيه بقفزة واحدة . وقف على قدمين و لمعت عيناه . وصل
بقية أفراد القطيع بألوانهم الحمراء والذهبية والبرتقالية وابتعد الحصان ،

لكنه لم يشأ أن يرحل لأن أمى كان جناحها ممتدان و كان شعرها مليئاً بالزهور . وقف مرة أخرى على قدميه و رقص وقدم أطرف ما يمكنه تقديمه . ربما تمنى لو عاد ، لكن رفاقه كانوا قد ابتعدوا فركض وراءهم و هو أشد إحمراراً من ذى قبل . بعد قليل لم يكن القطيع سوى قطع ذهبية تلوح فى الأفق . انطفأت الأطراف الأخيرة المشتعلة فى السماء ، وعندما لم يتبق شىء من كل ذلك ، ولا حتى أقل ضوءاً لحوافر الخيل ، بدأ المساء يحل . استقرت الفراشات والزهور من جديد فغطت نباتات عباد الشمس وغطتنى أنا وأمى ونحن صامتين ، لكن أيدينا كانت متلاقية . عدنا إلى البيت وجلسنا على الدكة ونحن شاحبان . أدركت جدتى أن شيئاً خطيراً حدث لنا فأحضرت لكل منا كوب ماء من الزير .

و ذات ليلة كنت أتصور أننى نبات عباد الشمس . صاحوا " يا ولد، يا ولد " و لم أجب . كنت أعرف أن أمى هى التى تنادىنى لكننى لم أجب . عندما أظن أننى عباد الشمس فلا يجب أن يقاطعنى أحد . لكن النداء استمر " يا ولد، يا ولد " . وسمعت ضوءاً ونحيباً وصوت الرياح التى تهب على السطح و قلت " إن أمرا ما يحدث لأحد " . هنا لا أستطيع أن أتخيل أننى عباد الشمس . فتحت عيني ووجدت الجو كله ضوء . ضوء أبيض باهر يضىء كل شىء ، والرائحة رائحة زهور . كانت أمى إلى جوارى تلفها ملاءة وضممتنى إلى صدرها . رأيت أنها جميلة كمریم العذراء . تخيلت أننى عباد الشمس فوقفت عارياً على صدرها ورأيت خلف كتفها ضوءاً ورأيت جدتى بيضاء وسط الضوء الأبيض والشموع وهى تنحنى على سرير أبيض

يبدو منه - وسط الظلام- وجه جدى هادئا شاحبا. تقدمنا كمریم العذراء والطفل يسوع. وصلنا. انحنينا على السرير. رأينا فتحات أنف جدى سوداء عميقة. أزحت من على شعر أُمى فراشة متربة . قالت لى أُمى "انظر إلى جدك يا بنى" . أجبت: "إنه سحر يا أُمى. سترين الآن ماذا يفعل. لنبحث عن الشئ الذى فقده". لكن مریم العذراء عانقتنى بشدة وأخذت تبكى و أخذت جدتى تبكى أيضا وجاءت الجارات. قلن: "يا إلهى، هذا العويل الذى نسمعه ، ماذا حدث؟ أهذا هو السيد فيليكس؟" "اذهب يا بدرو إلى البلد لترسل البرقيات" "أوقدوا الشموع" "أعطونى الولد". لم أكتشف أنا ما الذى أخفاه الجد ، وامتلا البيت بالناس وامتلاّت الجدران بالظلال. لم يكن الجد يتحرك، لكنه كان يعلم أننى سأكتشف الحيلة، فطالما اكتشفت حيله. نظرت من النافذة ووجدتها. صحت: "إنها النجمة. إنها النجمة. إنها النجمة". قالوا: "أسرعوا. أعصاب الطفل". حملونى وقالوا "أعدوا له الينسون". نظرت أنا إلى جدى الذى لم يدافع عنى. صحت: "جدى، جدى، أخرج لى أرنبا من رأسك وورقة كوتشينة من أذنك يا جدى". صاح بى الناس "يا ولدا!". وظهرت الفراشة الصفراء وابتسمت لى قائلة "تعال إلى الفناء، تعال إلى الفناء". ربت بيدها على رأسى وقالت: "تعال إلى الفناء. لا تبك. تعال إلى الفناء". "يا فراشة". ظهر عباد الشمس وقال لى "لا تحزن. إنها أمور الحياة. تعال إلى الفناء. سنلعب الدومينو ولا تحزن". قلت "فليات جدى" وجاء جدى بشامته الحمراء مبتسما. النجمة والفراشة و أنا كنا رفقاء العبة. وعباد الشمس والجدة

كذلك كانوا باستمرار يقدمون القهوة ومشروب الكاكاو الدافئ . وكان جو الليلة يشتد بردا . فزت أنا فى كل اللعبات و كان الجميع - الجد والفراشة - يضحكون من نكاتى . كان عباد الشمس و النجمة يشجعانى فى كل لعبة و أعلنوا أننى ملك الدومينو و أمير الليل والساحر القادم . مرت فراشة دون أن تنظر الىّ . رأيت أخواتى وقد جلسن على نفس المقعد . كان أصدقائى يلاطفوننى ويريدون أن أنام ، وفجأة لم يكن جدى معنا . انتهى وقت الفجر عندما جاء الأجداد والأعمام والعمات فقبلونى وابتسموا لى . امتلأ الفناء بالضباب وأعدوا لى مزيدا من الينسون . وقبيل الفجر أعدوا لى مشروبا آخر . كثيرات من النسوة العجائز حملتنى و كن يرددن أننى أشبه أبى ، وردت جدتى وخالاتى بالإيجاب وهن فخورات . كل النسوة كن يلبسن الأسود وكن يسرحن شعرى بأيديهن . ملأت رائحة القهوة البيت وأنا تعجبنى القهوة ، أشم رائحتها ، أشربها وأنظر إلى جدتى وهى تعدها . هم يعدونها فقط فى الصباح ، وإذا جاء ضيف يقدمون لى قهوة مخففة . لهذا أذهب أحيانا إلى أول الشارع وأعود وأقول - بصوت أحاول أن يكون مغائرا لصوتى- " قد حضر ضيوف . أعدوا القهوة " . لكنهم بدلا من ذلك يضربوننى بالمكنسة و أختفى تحت السرير وأنا أضحك . أخرج الزهور التى أحضرتها من جيوبى وأختار أجملها وأقدمها إلى أمى .

عادت مريم العذراء إلى الظهور . كنت أمثل حكاية السحابة الحمراء وكان الجميع ينصتون إلىّ . جاءت تبحث عنى . قالت " إنك عريان " . قبلتنى ولفتنى بملاءة وحملتنى . وقالت " سنتناول طعام

الإفطار . الآن لكى تذهب إلى بيت جدك " . كان الضوء خافتا ولم يكن أحد يتكلم . أخذت أشم وأنظر إلى الشموع البيضاء حول السرير ورأيت جدتى وشعرها غير مرتب . كانت تبكى وتبكي وهى خافضة الرأس . شعرت بيديها وهى تلاطفنى . قالت لى " كان جدك يحبك كثيرا " . عندما سمعتها شعرت برغبة فى البكاء . ورغم أننى أغمضت عيني إلا أننى رأيت جدى فى آخر المساء وهو قادم يغنى خلف عربته المحملة بالبضائع الرخيصة . فى الحقيقة لم يكن يأتى ، بل كان يتعد رغم أنه فى مواجهتنا . كان يردد : " مع السلامة " . كانت الريح تحرك بنظلوله الواسع وترفع كومة من أوراق النباتات الجافة حوله . كان كثير من الأرانب والحمام يذهبون معه ، وكانت أوراق الكوتشينة تتساقط من جيوبه . سمعت جدتى تقول - وهى بجانبى تضغط على يدي بيديها - " آه أيها المسكين ، من أين سنأكل الآن؟ " .

عندما ألبسونا ثيابنا لكى نذهب إلى بيت جدى لأبى أخذنا نبكى وعانقنا أمى . عندئذ قال جدى لأبى أننا حزينون جدا ومن الأفضل أن نعلم الحقيقة . ذهبت بنا أمى إلى المطبخ وقالت لنا ببطء : " لا تتحدثوا عن جدكم مرة أخرى . إن الله قد أرسل إليه لكى يخرج أوراق الكوتشينة من أذنه . سندفنه هذا المساء . لا تبكوا أمام أمكم " . بينما كانت تقول لنا ذلك كانت الزهور تتساقط من شعرها .

كان أبى وأمى جيران قبل أن تعلن خطوبتهما ، لكن ذلك حدث فى المكان الذى وضع فيه الرخ بيضته . لم يكن هناك حيثنذ إلا جبال . حينذاك بدأت الحرب و لم يستطيعا الزواج . ذهب أبى لكى يحارب مع الثائرين ضد أسبانيا و جرحوه مرات عديدة و عانى كثيراً ، كثيراً . عانى الجميع لأنه حينذاك انتهى كل شئ فى هذا البلد . لم يكن من الممكن الخروج إلى الطريق أو الذهاب إلى القرى أو الاجتماع بصدق و التحادث معه . لا شئ من ذلك لأن الناس كان يتعقبهم الإسبان وإذا تجاهلوا الأوامر كانوا يقتلونهم . أحياناً كان الأسبان يسمحون للنساء بالذهاب إلى القرى و كنّ يستطعن شراء أشياء كالأوانى و أدوات القهوة أما الملح و السكر فلا ، لأنهم كانوا يفتشونهن و كنّ يتعرضن لسوء المعاملة . بعد ذلك انتهت الحرب وكان من الممكن الخروج و لم يكن أحد يطارده ، لكن كل شئ كان ممسوحاً كركبة عجوز ، ولم تكن هناك طريقة أمام الشعب للحصول على شئ . يقول أبى أنه و أمى جلسا ذات مساء على سفح الجبل ليفكرا فى أمرهما و إلى أين سيتجهان وأنه نظر إلى جهة ما فرأى نحلة تحط على شجيرة ، ولم تكن الشجيرة شيئاً ذا قيمة ، رأى النحلة تمتص رحيقها . يقول أبى أنه سمع صوتاً يردد : " افعل مثل هذه النحلة " و أنه نظر إلى أمى و أن أمى قد سمعت الصوت أيضاً . فبدأ الاثنان العمل فى تلك اللحظة نفسها ، يغمرهما شعور جميل . لم يكن هناك أحد يعيش فى تلك الناحية ، وأبى هاجم الأدغال وحده و أخذ يعمل بيديه و يعمل حتى شيد بيتاً من حجرتين وصالة من أجود الأخشاب -لأن الأشجار كانت كثيرة جداً- وجهاز حجرة

طعام ومطبخا سقفه من الطوب وباب يفتح بشكل دائرى . تم طلاء الجدران بالجير وزرعت أمى حديقة صغيرة . كان بيتها دائما أبيض نظيفا . من حسن الحظ أن أمى - عندما بدأت الحرب - كان لديها ثياب كثيرة فوضعتها فى صرة وجالت بصرتها فى تلك الجبال والحروب هنا وهناك ، لا تدعها لأى سبب كان . كانت إذا تمزقت منها تحيكها وإذا اتسخت لم يكن ذلك يهملها ، بل كانت تتابع سيرها . وعندما انتهت الحرب يا سيدى ، وكان أهل كوبا حفاة عراة ، فتحت أمى صرتها وكان لديها ثياب للجميع . عند ذلك جاء قضاة إلى الريف وتزوج أبى من أمى و بعد عام ولدت أختى ايوسيبيا و بعد عام آخر ولدت أنا ، وبعد ذلك ولد أخى أناستاسيو ، وهو يعيش إلى الآن وكان آخر الأولاد ، لأن أمى ماتت من نوبة عصبية . كنت صغيرة ولا أتذكر عنها إلا أنها كانت فى المساء - مثل الآن أو أكثر ظلمة إذ أنه كانت هناك جبال من جميع النواحي وأدغال وكانت هناك تلال عالية جدا جدا - كانت أمى تجلس فى المساء داخل الفناء تحت شجرة وارفة كانت هناك مكان شجيرات الخروج تقريبا ، وكانت تطرز وتغنى أغنيات زمان لأنها كانت تغنى بشكل رائع وكان أبى يحب سماعها . كان يقول لنا أنه فى محيط عشرة أميال لم يكن أحد يعرف أو يسمع عن امرأة تطرز أحسن من أمى وأن الناس كانوا يأتون إليها من كل ناحية ليطلبوا منها أشياء تطرزها . كنت وأختى ايوسيبيا نلعب بعرائس من قماش صنعت فى البيت وكنا نرعى أناستاسيو الذى كان صغيرا . عندما كانت أمى لا تستطيع الرؤية لمواصلة عملها كانت تطلب إلينا أن نمشط لها شعرها الأسود الطويل وكنا نمشط ونمشط ، حريصين على

ألا نَجذب ضفائرها . كانت كل واحدة منا تمشط ضفيرة حتى لا
نتشاجر - كانت ضفيرتي أنا هي اليمنى - وهكذا حتى يأتى أبى . كنا
نراه يأتى من بعيد ، يصفر حتى نلحق به . بعد ذلك كنا نأكل . كانت
كل أيامنا تمضى جميلة بهذا الشكل . لكن فى ذلك الوقت حدث أن
ماتت أمى . أنا متأكدة أنها لو كانت تعلم ما سيحدث لنا لما ماتت .
حسنا ، كان أبى يكافح مرة أخرى حول البيت لكى يبعد الأدغال .
يقول أبى إنه جلس على جذع شجرة لكى يستريح ووضعه يده فى
ناحية - دون إرادة- فلمس شيئا باردا . كانت كرات كبيرة مستديرة
مليئة بالملح . كم كان سعيدا بها! . يقول أبى إنه فى تلك اللحظة
نفسها سمع ديكاً يصيح على بعد فى حظيرة فذهب يبحث عنه -
ومعه كرات الملح - رأى ديكاً كبيراً ودجاجة ملونة يبحثان عن عش
ينامان فيه . استطاع أن يمسك الدجاجة ، أما الديك فقد هرب منه .
وضعت الدجاجة اثنتى عشرة بيضة ، ولما لم يكن هناك ديك فلم تكن
تصلح للتفريخ ، وعندما ذهب أبى إلى البلد - وكان يذهب كل أربعة
أو خمسة أشهر ، فقد كان بعيداً وكان لابد من الذهاب على حصان-
اشترى أربع بيضات وأفرخت الدجاجة . بعد قليل كان هناك فناء مليء
بالدجاجات الملونة كدجاجتى هذه ، إلا أن تلك كانت أكبر ، إذ كانت
هناك أذرة وفيرة . بعد ذلك لم نكن نعيش بشكل سيئ ، فالحمد لله لم
نكن نمرض أبداً وكانت تلك الأرض تختلف عن هذه الأرض المرهقة
التي لا تنتج إلا الزهور . هناك كنت إذا ألقيت حفنة من البذور
ورويتها قليلاً كنت تحصد محصولاً من أى شئ . ذلك اليوم الذى

أحكى عنه رجوع أبى من الجبل بكمية من خلايا النحل التى وجدها .
كان النحل يلسعنا نحن أما هو فلا . فى اليوم التالى ذهب يبحث عن
خلايا أخرى وهكذا كان لدينا الكثير ، ولما كانت الزهور متوافرة فلم
يرحل النحل . وجمع أبى ثروة من العسل والشمع ، وكنا كل يوم أكثر
رخاءً من ذى قبل ، وعشنا كما يعيش الناس . منذ ذلك الحين كنا
نعمل كالكبار فقد كنا يتامى وكان هناك الكثير الذى يجب عمله فى
بيت كبير فيه كل يوم أشخاص أكثر . كان أبى يتعاقد معهم للعمل فى
مزارع التبغ التى كان يمتلكها . ولما كان أبى ابن جزيرة من كنارياس ،
أى من الجزر الحقيقية ، فقد كانت تعجبه زراعة التبغ . كنا نغسل
وننظف ونكوى ونحن صغار ، وكنا نعمل أى شئ عدا الطبخ ، فقد
كان من نصيب امرأة سوداء تحدث معها أبى . كان أناستاسيو يساعدنا
فيحمل إلينا الماء ويجمع الحطب ويضع الأكل للخنازير . ذات مرة -
وسترون الآن من الذى سيظهر فى هذه الحكاية- كنت قد ظلمت
أسبوعا كاملا لا أنام فقد كنت أسمع صوت حصان يجرى فى كل
ناحية ، بل حتى فوق سطح المنزل . فى النهاية استجمعت قواى وفى
الفجر قمت لأنظر فوجدتها مارجريتا ، البغلة الجميلة . ربطها أبى
وأخذ يسأل فى كل مكان عن صاحبها ولما لم يظهر لها صاحب قال
لى " هذه البغلة لك ولكنك ستعيرنى إياها للعمل " . قال أناستاسيو
فى الحال " سنسميها مارجريتا " . وظل اسمها مارجريتا كما لو كانت
شخصا . لم نعرف أبدا من أين جاءت ، كالماعز التى أنقذت الطفل .
بعد ذلك أراد أبى أن نتعلم نحن الثلاثة القراءة والكتابة . كان يعرف

امرأة..... ماذا كان اسمها؟ ياللعجب! كيف أنسى اسم الأستاذة! كانت صديقتي. كلمها أبي لكي تعلمنا وردت بأنها ستأخذني أنا فقط. كان أبي يعطيها من كل شيء : أرز، عسل، دجاج، من كل ما كان لديه في مزرعتنا. بقرة. كان اسم الأستاذة ميكائيل! تعلمت منها شيئاً في مستوى المرحلة الإعدادية في ذلك الوقت. لهذا فإنني لا أردد كلمات غير لائقة إلا إذا خرجت عن طوري معكم، إذ أنكم من أمباجنا. لكن الأستاذة كانت تغير على زوجها منى وكان هو أستوري بدين -الأستوري هو إنسان جاليقي بخيل جدا- فبدأت تضربني وتقول أن رأسى به قمل وأننى أتبول عمداً في السرير لكي أجعل رائحة فرشها كريهة، مع أن الحقيقة أنه إذا كان في رأسى قمل فقد انتقل إلى من رأسها هى. هذا برغم أننى كنت أساعدها في شئون البيت مثل أية امرأة كبيرة. انتظرت يوم الأحد لكي يأتى أبى ويأخذنى وقلت له أننى تعلمت الكثير وأننى أفقد ايو سييا و أناستاسيو والمزرعة. يشهد الله أننى لم أذكر له شيئاً من سوء معاملة الأستاذة ولا من ظلمها. فى ذلك الوقت لم يكن بمقدور الأطفال أن يهتموا الكبار لأى سبب. أطفال ذلك العصر كانوا يحترمون الكبار، لا كما يحدث الآن. لم يكن أبى فى البداية يريد أن يأخذنى، لكنه وافق فى النهاية لأن الأستاذة أقرت أننى تقدمت كثيراً وأننى أجد القراءة والكتابة. هنا بدأت معاناتى فى الحياة، إذ كان أبى قد تزوج بامرأة وكان ذلك أمرا سيئاً وخطيراً. كان اسمها باولينا أثناجا جارثيا. فليغفر الله لها رغم كثرة ذنوبها. ان الإنسان لا يجب أن يتمنى شراً لأحد.

شيئاً فشيئاً اختفت رائحة جدى من البيت . وبقدر ما اختفت الرائحة بقدر ما ضعف بصر جدتى . إنها الآن تجلس فى ناحية بمدخل البيت وهكذا تمضى ليلتها . عند الفجر نأتى إليها لكى تعد لنا طعام الإفطار، وفى أحيان كثيرة لا نجدها . نبحث عنها فى كل مكان حتى تحت السرير ولا نجدها . أمى لا تفارق النافذة وهى تطرز وتطرز ولا تشغل بأن جدتى اختفت . على أن أكون يقظا حتى آخذ منها الملابس التى تنتهى من تطريزها وإلا فإنها تطرزها مرة أخرى، وأزيل من على شعرها الزهور الذابلة . وفى النهار أيضا لا نعلم أين اختفت الجدة، أما فى المساء فإننا نجدها فى مكانها المعتاد بمدخل البيت . الريح ترفع لها صفائرها لكنها لا تجرؤ على بعثرة شعرها، والريح أيضا تحمل كلماتها إلى مسافات بعيدة . نعلم أن الجدة على قيد الحياة لأنها من حين لآخر تداعب دجاجتها الملونة النائمة بجوارها . امتلأ البيت بالحشرات وتساقطت من السقف باستمرار نشارة الخشب . لم تكن جدتى ولا أمى تهتمان بها وكانت تتكوم على أكتافهن . وإذا دق الإنسان فإنه كان يسمع صوت الصراصير وهى تأكل الجدران . نعرف أن كل مكان فى البيت به عنكبوت وعقارب تترقب مرورنا لكى تقفز فوقنا وتلسعنا . فى الفناء تطير جياذ الشيطان ، لكننى أبعداها لأننى أشير بعلامة الصليب وأقول "سان جورج ،سان جورج ،سان جورج" . ورغم ذلك فإن أحدها لسعنى . الريح تسقط أوراق الشجر بالحديقة وهذه الأوراق تغطى جدتى، إذ إنها لا تزيحها عنها . وهكذا تختفى جدتى مرة أخرى . تكتشفها الفراشات عند المساء إذ تظن أنها أحد أعمدة مدخل البيت فتريد أن تدخل تحت القشرة . بعض هذه

الفراشات تبلغ هدفها لأن جدتى لا تذبها. عندما يتعين على جدتى عمل شئ ما فإنها تنهض وتذب عنها الفراشات ، لكنها تعود إلى مكانها فى الحال. لا هى ولا أمى عدن إلى كنس البيت ، والدجاجات تتجول فى الصالة والحجرات ، لا يدفعها أحد ولا يلقي لها أحد طعاما. الدجاجات تنام حتى الظهر تحت الكراسى ولا تذهب إلى العشة. حتى الققط لا تريد الإستيقاظ ولا تفتح أعينها حتى لو مرت الفئران فوقها. نحن الأطفال نسير حيث يحلو لنا ، وأخواتى لا يخلعن حذاء أمى ذا الكعب الطويل.

ذات صباح كنا فى المطبخ : أمى تطرز ونحن ننظر إلى شعلة الموقد حيث كانت جدتى تغلى اللبن. سمعنا صوت السيدة فلورندا عند الباب. جدتى - كما لو كانت تستيقظ لأول مرة منذ أيام- قفزت إلى الوراء وفتحت عينيها التى لا لون لها، ورفعت الدجاجات والققط رؤوسها.

قالت جدتى بصوت منخفض: "كنت أعرف أن هذه على وشك المجئ". ذهبت إلى الصالة وهى تجفف يديها فى مريلتها وقالت "صباح الخير يا سيدة فلورندا كيف حالك؟. ادخلى واجلسى". قالت ذلك بصوت رقيق أليف.

قالت السيدة فلورندا "لقد حزنت لما أصابكم يا أديلا إلفيرا، لكننى معسرة وتعرفين ما أتيت من أجله. ألم يسلم إليك كارميلو الرسالة؟". أجابت جدتى: "لماذا لا ننتهز الفرصة وأعطيك الآن زهور

القرنفل التى طلبتها منى بالأمس؟" . اصطحبت السيدة فلورندا إلى
الفناء . وقفت وأخوتى عند الباب نراقب .

- هأنذا أحضر قرطاسين . سنرى ما إذا كنت سأعود وبهما
فراشات .

تحدثنا بصوت منخفض وجاءت أمى أيضاً إلى الباب . قالت :

- " يا إلهى ماذا حدث ؟ "

كان ماء القهوة يتساقط على الموقد و كنا نحن و أمى نراه ،
لكن الجدة هى التى كانت تغلى الماء . لذلك لم يجرؤ أحد منا على
عمل أى شئ .

ذهبت السيدة فلورندا بعد لحظة و ظلت جدتى جامدة فى مكانها
قد أدارت لنا ظهرها و كنا نحن نتنظر فى صمت . عادت بعد ذلك
تمشى نحو البيت . كانت جدة أخرى . كانت عيناها متوهجتين
وأسنانها مطبقة بعصبية . جرينا نحو أماكنا و بدأنا نتصرف بشكل
لائق . فجأة فتحت الأبواب و الشبايك . قالت :

- الميت إلى المقبرة و الحى إلى الدجاج .

أمسكت مكنسة و أخذت تضرب الدجاجات بانفعال حتى أن
بعضهن بدأن يطرن و خلفهن القطط . لم يتوقفوا إلا عند الباب .
ابتعدت الفراشات عن البيت . دخلت جدتى إلى حجرة الطعام
وظلت أخواتى جامدات فى مكانهن . صاحت جدتى فيهن بصوت

غير معهود فيها : " ماذا تفعلون هنا ؟ عندما كنت فى مثل عمركم كنت فى هذه الساعة أجلس مرهقة من العمل . هيا اذهبوا و افرشوا الأسرّة الآن و حذارى أن تكونوا قد تبولتم بالليل " و قالت لى :

- " و أنت لن تسير اليوم فى الأدغال كالفراشة . لقد انتهى ذلك العهد . إلى العمل فأنت قد كبرت . احمل الماء و ألق القمامة . ماذا يمكن أن ينتظر منك ؟ . إننا نطعمك و نطعمك و لا ندرى فى النهاية لماذا . عندما تكبر ستكون شيطاناً أو ماسح أحذية أو لصاً أو تموت من الجوع . على الله العوض لو تعين علينا انتظارك ! . من يربى الغراب يخلع له عينيه ! "

لم أشاهد جدتى بهذا الغضب قط و ظللت أنظر إليها . كانت هى أيضاً تنظر إلىّ و لكن كما لو لم تكن جدتى . صاحت " قلت لك هيا إلى الفناء . إلى العمل ! " و ضربت الأرض بقدمها .

تساءلنا فى الفناء أنا و أخوتى " ماذا حدث للجدّة ؟ "

- هل تريد أن نضع ماءً للشجر أو شيئاً لقتل النمل ؟

- هل لدغتها حشرة ؟

كانت الدجاجات تنظر إلينا من بعيد و هى ترفع رؤوسها تحاول أن تسمع .

سألته أُمى : " هل قالت لك السيدة فلورندا شيئاً سيئاً يا أُمى ؟ " .

أجابت: "وأنت كالحمقاء. ألم ترى أن ماء القهوة انسكب؟ لن نتناول شيئاً الآن. فى هذا البيت إذا لم أقل أنا ما يجب أن يفعل سيموت الجميع. دعى تطريزك واجمعى الثياب المتسخة ، فلدينا كم كبير من الملابس للغسيل. هيا ! الآن! . هذا لن يؤجل إلى الغد".

نظرت أنا وإخوتى لنرى من سيتوصل أولاً إلى مغزى ما يحدث. نظرنا إلى أمى لكنها لم تنظر إلينا. فى الحال اقتربت منا الفراشات والدبابير وسألونا "ماذا يحدث للمرأة العجوز؟". قلنا "لا ندرى. فجأة أصبحت هكذا". قالوا: "لا تقتربوا منها ولا تكلموها. إنها الآن فى الصلاة وقد فتحت الصندوقين. تبحث عن شئ ما. هل فقدتم شيئاً؟. لا تذهبوا. إنها يتطاير الشرار من فمها" قالت لى الفراشة الصفراء "إن أمك تبكى أيضاً".

عندما خرجت أمى بصرة الملابس المتسخة جرينا نحوها لمرافقتها إلى النهر. نفعل ذلك دائماً، وبينما هى تغسل نقفز نحن بين الصخور ونسمع صوت التيار ونأكل الزهور الصفراء ونغنى. قالت أمى "لا تأتوا معى. لا أريد أطفالاً. إننى مرهقة".

فى المساء جلست جدتى مرة أخرى فى ركن من مدخل البيت. عندما اقتربت منها أولى فراشات الليل أخذتها ورمتها فى الأرض ووضعت قدمها عليها. هربت الفراشات الأخريات. ذهبت أمى إلى مدخل البيت. كنت وإخوتى نكتم أنفاسنا. قالت: "قولى يا أمى، هل قالت لك السيدة فلورندا شيئاً؟".

توقفت الجدة ومرت من الناحية التي كادت تسقط منها . كنا نحن الأطفال نقف فوق المائدة ننظر إلى ضوء المصباح . رأيناها تقترب . " يا إلهي " . أطفأت المصباح بنفخة وأنزلتنا . قالت :

" تلعبون بالشمعة لكي تتبولوا بعد ذلك في السرير . اشربوا وناموا . من يرى أطفالا مستيقظين في هذه الساعة؟! "

قالت أمي : " ألا تقولين لي يا أمي ما ذكرته لك السيدة فلورندا؟ " .

أرقدتنا الجدة نحن الثلاثة في السرير وكررت أمي سؤالها .

قالت الجدة : " ستذهبن إلى حيث يعوى الذئب يا استيلا ، إلى حيث يعوى الذئب " . قالت ذلك وهي تنظر إلينا وتضغط بفكيها على سيجار لم تشعله . كان الشرر في عينيها . " وأنتم! ناموا! " .

نمنا . اضطجعن هن أيضا . ظللت أنا أسمع أمي وهي تتقلب في سريرها ووظنت أن أمرا ما ألمَّ بها . بعد كثير قالت جدتي بصوت غير معهود فيها :

- استيلا

- نعم

- أمهلتنا السيدة فلورندا أسبوعا لكي نغادر المزرعة . لا أدري إلى أين سنذهب .

لم تتقلب أمي بعدها ولا مرة واحدة .

قالت جدتى : لو أن فيليكس هنا! " . تنهدت ونمنا .

فى اليوم التالى استيقظت جدتى مبكرا أكثر من أى يوم آخر وبدأت فى إعداد الإفطار . استيقظتُ فى الحال و ذهبت إلى المطبخ لأرافقها . لم أدر هل ألقى إليها التحية ، فقد ظل وجهها كاليوم السابق . كانت تنحنى على الكانون و تنفخ فى الشعلة و عندما اتقدت الشعلة أضاءت وجهها . حيثئذ ابتسمت و رأتنى . اقتربت من إحدى الفراغات الكثيرة فى جدران المطبخ و تبولت فى اتجاه الفناء .

قالت جدتى بصوت غير معهود فيها " خذ القهوة و اجلس هناك "

قلت " هذا ليس فنجانى "

قالت " لا تتناول شيئاً إذن -ألقت القهوة بالفنجان - لست على استعداد لتدليل الصغار . اذهب لتنام فلم يناد عليك أحد " .

لكننى لم أنم بل ذهبت إلى الفناء لكى أرى كيف يغطى الضباب الشجر بحيث لا يكشف إلا الأوراق العالية و رؤوس عباد الشمس . ظهرت أخواتى و هن متشابكات الأيدي و سألننى ما إذا كانت الجدة قد زال عنها الغضب فيذهبن إلى المطبخ . أجبتهن بالنفى و قلت لهن إن وجهها متغير و أنها تحطم الفناجين . قلن " إذن علينا أن نعمل " هنا خرجت أُمى من حجرتها و بيدها التطريز . مرت بنا دون أن تنظر إلينا .

قالت اخواتى وهن عند الباب " ها هو ابن السيدة فلورندا يأتى من هناك " .

قدمت جدتى قهوة للجميع و خرجت تلتقى بابن السيدة فلورندا قبل أن يصل إلى البيت و يتعين عليها أن تقدم له قهوة . عادت و هى أكثر تجهماً و جلست بجوار النافذة و بدأت تلف سيجاراً دون أن تنتبه إلى أن لديها سيجاراً مشتعللاً فى فمها . عندما لفت السيجار أشعلته أيضاً .

سألته أمى : " ماذا سنفعل يا أمى ؟ " . لكن جدتى بدلاً من أن تجيبها توجهت نحونا و انتزعت منا الفناجين إذ كان المفروض أن نكون قد إنتهينا من تناول القهوة ، فاليوم علينا أن نعمل أكثر من أمس وأنا نعيش كسالى نمص دمها كأبناء العقارب ، وأن علينا أن نذهب إلى الفناء و أن نسقى الشجر وأن نلقى الحب للطيور وأن علينا أن نبحث بين الأشجار وألا نعود إلى البيت إلا إذا وجدنا ثلاث بيضات و إلا فليس هناك طعام للغذاء إذ ماذا نظن !

قالت أخواتى للدجاجة : " اسمعى أيتها الدجاجة " .

قالت الدجاجة : ماذا ؟

- لماذا لا تبيضين ؟

- لأنكم لا تضعون لى أذرة

- بيقى ، فقد سمعنا جدتنا تقول أنها ستمسك بكن جميعاً وتذبحن .

صاحت الدجاجة : " يا ديك ، يا ديك ، يا دجاجات ، اسمعوا ما تقوله البنات !

فى البيت قالت جدتى لأمى :

- استيلا ، قولى للأولاد ألا يقطفوا ثمارا من أى شئ لأى سبب ولا حتى ثمار التمر الهندى . هذا المساء ستأتى السيدة فلورندا لإحصائها على الشجر وغدا سيأتى رجل ليجمعها ويبيعها فى البلد . عليهم ألا يقتربوا من الزهور أيضا . لا شئ مما يوجد هنا الآن ملكنا . إذا رأيت قشرة ادفنيها .

قالت لنا أمى ألا نمر من تحت الأشجار وأنا لا أدرى ماذا تقصد ، فالنخلتان وعباد الشمس ملكى . بعد ذلك رأينا جدتى تضع ماء ساخنا لشجرة الليمون . لم نقرب لنقول لها أننا لم نجد بيضا . بعد ذلك قالت :

- غدا سأذهب إلى البلد لأتحدث مع أناستاسيو .

قالت أمى : نعم يا أمى ، هذا ما يجب أن نفعله ، أن نتحدث مع خالى أناستاسيو لكى يساعدنا ويحصل لى على عمل .

- تعجبك فكرة الذهاب إلى المدينة ، لكن لا تفكرى فى أننى سأتركك تبحثين عن زوج آخر .

- ووعدك يا أمى ؟

لم تجب جدتى . ظلت تنظر إلى أذنيها وخلعت أمى قرطها فى صمت وسلمته إليها . قالت جدتى :

- خذى دجاجتين أو ثلاثة كبارا وأعديهم . لا تنسى .

- لا توجد دجاجات كبيرة

- الموجود يا بنت . آه .

كانت زوجة أبى - التى يسمونها تينا رغم أن أسمها باولينا- لا تستيقظ فى الفجر لإعداد القهوة . كنا نستيقظ أنا و أختى من شدة خوفنا من العناكب و الصراصير . و لم يكن باستطاعتنا التحدث فى المطبخ حتى لا تستيقظ تينا ، ولم نكن نستطيع إشعال ضوء آخر غير ضوء الموقد حتى لا نستهلك كيروسين . إننى أتذكر الفزع و الرعب الذى كنا نشعر به . عندما كان أبى يأتى بعد حلب البقرات كنا نقدم له القهوة ثقيلة مرة فى فنجان صينى أبيض . بعد ذلك كان يذهب إلى عمله . كنا نعد قهوة باللبن لدسته العمال الذين كانوا يعملون معه و كنا ننادى أناستاسيو لكى يحمل القهوة فى براد إلى الحقل . كنت أجلس أنا و أيوسيبيا على كرسي متعانقتين و أقدامنا إلى أعلى ، نصلى حتى لا يأتى عنكبوت إلى أن يتضح النهار . عند ذلك كان يتعين علينا أن نكنس الأفنية . تلك كانت أفنية حقيقية ، بأشجار كثيرة و أزهار . كنا مهما كنسنا تظل الأوراق فى المكان الذى نظفناه فى البداية . أسوأ الأوراق كانت أوراق الصنوبر . كم كانت كثيرة أوراق الصنوبر تلك ! . بعد ذلك كنا نضع الماء للأشجار و الذرة للدجاجات و كنا نضع النخالة للديوك . كانت تينا تستيقظ فى التاسعة أو بعدها و ذلك لا يحدث فى أى ريف . كانت تجعلنا نقشر الخضراوات و نجمع الأرز و الفاصوليا و نبحت عن البيض فى أعشاش الطيور و نغسل المقاعد و نمسح الأرض و نعمل و نعمل دون توقف . فى الحادية عشرة تقريباً كنا نعد الموائد لحين قدوم رجال الحقل ، وكانوا جميعاً أهل جزيرة يأكلون كالثيرا . كانت أوانى تذهب وأوانى تعود . بعد ذلك كنا نقدم القهوة و الدخان و ننظف الموائد حيث يبدو أن

الذين أكلوا حيوانات . ثم نغسل الأواني و نكنس المطبخ وصالة الطعام . بعد ذلك كانت تينا ، على مضض ، تأخذ صحفتين كطبقين لنا و تضع فيهما قليلاً مما تبقى فى الأواني ، دون أن تسألنا مطلقاً عما إذا كان نوع الطعام يعجبنا . و كان لابد من الفراغ من الطعام فى صمت حتى آخر ملعقة دون كلام . كان علينا -أطفال ذلك العصر- أن نتحمل كل شئ . ثم بعد ذلك لم تكن لدينا لحظة فراغ أو لعب بالعرائس . لا شئ من ذلك بل العمل مرة أخرى . كان علينا أن نعيد المفارش التى توضع أمام أولئك الرجال إلى بياضها الناصع ، فلو كان بها بقعة فإن تينا لا تقبلها . حينذاك كنا نغسل فى طشت . نأخذ جذع شجرة ضخمة مثلاً و نجعله على شكل طشت . كان منها أحجام مختلفة كل حجم له استعمال . لم تكن تينا تتركنا نضع صوراً لأمى فى أية ناحية فى البيت و لا أن نضع لها زهوراً فى كوب وراء الباب . كانت لدينا صورة صغيرة لأمى نخفيها فى مزارع البن و دائماً ما كنا نحافظ عليها نظيفة وجميلة ، لكن ذات مرة جاءت كلاب مهجنة وحطمت كل شئ فبكينا كثيراً . فى المساء كانت تينا ترانا وقد استحممنا نرقب وصول أبى عبر الطريق . وكانت ترسلنا لجمع الأرز وكنس الأفنية مرة أخرى وأشياء من هذا القبيل نستغرق فى إنجازها وقتاً طويلاً . لكن مهما كان الأمر كنا نتحمل ، وكان أناستاسيو يساعدنا . وعندما كنا نرى أبى يبدو من بعيد عند التل كنا نلقى ما بأيدينا ونجربى لنختفى حتى نروعه عندما يمر . كان هو يتصنع كما لو كان قد فوجئ كثيراً ، وإذا كانت له رغبة فى اللعب كان يسقط من على بغلته يأتقان كبير وهو يضحك . بعد ذلك كان يركبنا بغلته ،

واحد منا كل يوم . عادة نكون قد جهزنا له الحمام وإناء به ماء نظيف فاتر إذا كان يريد الحلاقة . كنا نمسك له الموسيقى والفرشاة والصابون ذا الرائحة ، وكنا ننظر إلى مواضع إصاباته فى الحرب . كنا نتبعه أينما ذهب كالكلاب الصغيرة . وفى أيام الأحد كان يضطجع ظهرا ليستريح تحت أشجار الصنوبر حيث الهواء العليل . وكنا نضطجع إلى جانبه نحادثه ونداعبه حتى يغلبنا النعاس جميعا . كان أحيانا يحكى لنا أكاذيب كبرى ، لكن حذار أن يضحك أحد . من هذه الأكاذيب أنه وهو صغير ربى حيوانا على عصير القصب وكانت للحيوان سن واحدة وذراعان طويلان يصلان إلى الأرض . فى البيت لم يكن أحد يعلم عن الحيوان شيئا . وذات يوم نسى أن يضع طعاما للحيوان فظهر له وقت النوم وقال له من الشباك " تاتا ، أعطنى عصير القصب . تاتا ، أعطنى عصير القصب " . كل ذلك كان يضايق تينا ، وكانت تتجول فى البيت وهى تسخر . أحيانا كانت تتصنع المرض حتى ينصبَّ اهتمام أبى عليها هى ، أو تشكو منا أننا لا نعمل وأننا لا نسمع كلامها . كذب . لكننا لم نكن نستطيع أن نرد ، وكان أبى يغضب لدرجة أنه عاقبنا ذات يوم . لم يضربنا أبى إطلاقا إلا فى يوم أعطانا فيه علكة . كنا فى الفجر نعد القهوة وجاء هو بحبل طبقه أربع مرات وأوسعنى ضربا . بعد ذلك ضرب ايو سييا . كان أناستاسيو حاضرا وقد اتسعت حدقاته هكذا ينتظر دوره ساكنا . لكنه لم يضربه . لم نعرف لماذا ضربنا ولم نجرؤ على السؤال . لابد أننا فعلنا شيئا ما . حتى تينا رأت أن الأمر زاد عن حده فقامت وسألت أبى ماذا حدث . سألنا أبى " هل تعرفون لماذا أضربكم؟ هل تتذكرون أختى أورستيلا؟ لا أريد أن أسمع اسمها فى

هذا البيت . فى هذا البيت اورستيلا ماتت " . لكن ذلك حدث مرة واحدة . كان أبى يحبنا كثيرا وكان لطيفا جدا . على الرغم من محاولات تينا لأخذه منا فإنها لم تفلح تماما ، ولم تفلح خاصة فى إبعاده عن أناستاسيو الذى كان يحبه أكثر لأنه أصغرنا ولأنه ولد . حيثئذ فكرت تينا فى التفريق بيننا أنا وايوسيبيا ولم نكن قد افترقنا قبل ذلك أبدا . كانت تغتاظ من ايوسيبيا أكثر لأن الجميع كانوا يقولون أنها تشبه أمى ، فطلبت من أبى أن يعيرها لاختها التى كانت تريد فتاة تساعدنا وترافقها . رفض أبى فى البداية لكن تينا حاولت وحاولت حتى أقنعتة . أظلمت الدنيا فى وجهى من الحزن واللوعة ولم نجتمع أنا وأختى بعد ذلك قط لأنها عادت وهى فى الخامسة عشرة وأحببت شابا تزوجته ورحل بها بالقرب من كاماجواى ، يعنى بعيدا بالفعل . حيثئذ كانت تينا تجعلنى أعمل ضعف ما كنت أعمل . كانت تلك أشد سنوات عمرى مرارة ، لا بسبب العمل وإنما بسبب المعاناة والإهانات والكلام البذئ . أحد رجال الجزر الذين كانوا يعملون مع أبى أعجب بى وكنت على استعداد للزواج منه ، لا لشيء إلا لمفارقة تلك المرأة المتوحشة ، لكن كيف كنت سأترك أبى بمفرده؟ ثم إن الرجل كان يكبرنى كثيرا . لكن بعد ذلك تدخلت العناية الإلهية ، فبدأت هى تشكو من الآلام وتعانى حتى أننى أشفقت عليها . كانت بدينة لدرجة لا تتصورونها ، وفى خلال أشهر لم يكن أحد يعرفها من النحافة . كان كل فستان لديها نعمل منه فستانين . ذلك الأمر لا بد أن تراه لكى تصدقه . كانت تبعث على النفور والاشمئزاز . اصفر لونها وتغيرت عيناها . فى أى ساعة كانت تعاودها الآلام وكانت تخرج مهتاجة

لباس النوم أو عارية ويزبد فمها وتبكي خلف المطبخ وتتمرغ فى
مرابض الجياد وتأكل الأعشاب كالكلاب التى تشكو من معدتها . كان
يتتابها هياج كبير فتكسر الأطباق والصور الرخامية لزواج أبى الأول .
وكانت تضرب نفسها وتعض نفسها . ذات يوم أوقعتنى وبيدها سكين .
لم يدر أبى ماذا يفعل ، أحضر لها الطبيب عدة مرات مع ما يتكلفه
ذلك ، ثم الصيدلى والقابلة والبيغاوان اللذان طلبتهما ، كل شئ . لم
تكن تلك مجرد أدوية بل علاج موصوف وشموع تضاء ونذور
للقدسين . وفى النهاية لا شئ . كانت حالة تينا تزداد سوءا كل يوم
ويزداد لونها اصفرارا . كانت تسب أبى وتلقى عليه مسئولية ما يحدث
لها . كانت تسمى معاملته وتقول إنه يقتل النساء وإنها أقسمت أن
تسمم الأكل حتى نموت قبلها . لم تكن تريد رؤيتى على الإطلاق
ودعت ألا يكون لى أبناء ذكور وأن تكون بناتى شريرات . ذات ليلة
صعدت إلى السطح ومعها زجاجة كحول لتشعل النار فى البيت
وتحرق نفسها . أظن أن الحمى هى التى أفقدتها عقلها . عموما فإن
المزرعة بدأت فى التراجع . فى ذلك العام سرق العمال أبى ، وأقدم
الرجل الذى كان يريد أن يتزوجنى على دخول حجرتى وكانت كارثة
على وشك أن تحدث وقالت الصاعقة " هأنذا " ولم تترك شيئا قائما
إلا وأعطيته . لم تحدث صاعقة كتلك أبدا . إن صفائح الزنك كانت
تطير فى الهواء وتقطع رؤوس الأبقار . إحدى الصفائح طرحت
الشجرة التى كانت بالفناء أرضا . أعاذنا الله من عاصفة كتلك . فقدنا
كل شئ فى ذلك العام ، فماتت الدجاجات والنحل واحتلت
الصراصير البيت واحتلت الحشرات الفناء واحتلت أشجار الطلح مراتع

الخيّل، والتسبغ أصابته الآفات. وعندما رأت تينا أنه لم يتبق شيء -إذ انتهى أبى من النحافة- أخذت حبلا وخنقت نفسها فى حجرة الطعام حتى نتذكرها عند تناول الغذاء والعشاء. تركت ورقة قالت فيها أنها انتحرت بسبب أبى. أرايتم سوء طويتها؟! أرادت ألا تدعه يعيش فى سلام، وقد نجحت فى ذلك تقريبا. سامحنى الله، إذ يقولون أنه حتى ألدّ الأعداء يجب ألا نتمنى له شرا. لكن كل الناس الذين كانوا يعيشون هناك فرحوا لموتها إلا أبى، فقد جلس فى ركن وظل أسبوعا لا يتكلم ولا يتناول إلا القهوة. لم يتحرك حتى لمرافقة الجثمان إلى المقابر. لم يسعد أبى بعد ذلك فى حياته ولم يضحك. أناستاسيو أخذه عمه لكى يعلمه حرفة الصيد، وأنا التى كنت صغيرة ألححت على أبى أن نغير البيت ونذهب إلى الريف. بعنا القليل الذى تبقى لدينا واشترينا بيتا صغيرا فى الريف وفتحنا دكانا. حيثُد عرفت بلدتكم هذه. كانت تلك أيام سعيدة لم يتبق منها شيء.

جهزت جدتى البغلة . كانت مارجريتا قد ضعفت كثيراً ولم تستطع السير لكن جدتى ثنت الحبل وضربتها عدة ضربات حتى أن المسكينة أصبحت خفيفة وعاد إليها شبابها . صاحت جدتى فيها :

- وأنت أيضاً تريدان أن تنغصى على حياتى يا مارجريتا؟

عندما ركبت جدتى ناولتها أمى أكبر الدجاجات فى البيت . سارت جدتى فى طريقها دون أن تودعنا وأخذت تبتعد وتبتعد . قالت أمى :

- يمكن أن يحدث لها أمر سيئ . أدعو الله ألا تمطر .

كنا فى الحديقة ولم يكن أحد يمسك شيئاً فى يده . دخلت أمى وأخواتى صامتات وذهبت أنا مع بعض الدجاجات حتى منتصف الطريق . ذهبت أنا لأرى جدتى لحظات أخرى . أما الدجاجات فكان أكثر حزناً وذهبن لتوديع زملائهن الذين لن يعودوا أبداً . كان شبح جدتى وهى على البغلة يتعد ويصغر بمرور الوقت ، لدرجة أننى بعد لحظات لم أرها ، رغم أننى فتحت عيني جيداً . حيثُ ظلت فى منتصف الطريق ونظرت ناحية المنزل الذى تحيطه الزهور والفرشات بسقفه الأحمر اللامع دائماً . كنا فى منتصف الصباح ، ربما لذلك قد أعجبني المنظر لكننى لم أرد الدخول لأن البيت من الداخل بغير جدتى يكون وحيداً والأثاث أكثر ارتفاعاً والجدران أكثر صمماً . ترى كيف يكون المكان الذى تسير فيه جدتى فى هذه اللحظة ؟ وأى زهور توجد عند التربة يا فتى ؟ عادت الدجاجات التى كانت معى إلى البيت واحدة وراء الأخرى وشعرت أنا أننى إذا لم أصرخ أو أعدو بكل

سرعتى أو إذا لم يظهر قوس قزح - رغم أن الوقت لم يكن بعد انتهاء المطر- فإننى سأذهب لأجلس مع اخوتى و أدعو أو سأختبئ تحت السرير أو المائدة . لا أدري ماذا حدث ، فقد فقدنا كلنا الرغبة فى الحديث والغناء ، حتى الفراشات . بالأمس كانت الفراشات تحطّ على رأسى والآن ترانى أمرّ ولا تنظر إلىّ كما لو لم أكن أنا وهذا لأن الفراشات نائمة ، إذ ليس لها رغبة حتى فى الطيران . والدبابير عندما تريد أن تتوقف فى الهواء تتشابك أجنحتها فتسقط ، وضوء فراشات الليل لم يعد يضىء تقريباً وليس أزرق ، و حتى رائحة الياسمين لم أعد أشعر بها . أمى هى التى تسببت أكثر من جدتى فى أن تسير الأمور بهذا الشكل لأنها تنسى وضع الزهور فى شعرها وترتدى فستاناً قديماً لا لون له ولا تبعد عينيها عن شغل التطريز . يا للروعة لو أن أمى فى عز النهار صعدت إلى سطح البيت وفتحت ذراعيها تماماً وغطت رأسها بالزهور الحمراء والصفراء . إن الفراشات ستنصبّها فى الحال ملكة على الأفنية و ستعترف بها كفراشة أصيلة ، أكثر أصالة من الفراشات نفسها . وسنرتدى أنا واخوتى ملابس المساء ولن نملّ من التصفيق . من المؤكد حيثئذ أننا سنرقص فى الحديقة كمرات سابقة . قالت أختى وهى عند الباب :

- " يبدو أن أشجار الخروع التى خلف المطبخ تناديك وهى منزعة جداً " .

كانت أمى قبل ذلك تتجول فى الأفنية على شاطئ النهر وهى تضحك وترتدى لباساً أبيض فتبدو كالملائكة ، وكنا نتابعها ونقذفها

بالأزهار والأحجار الصغيرة الملونة وكان جدى و جدتى يسيران خلفنا وهما يرقصان وخلفهما فراشات الليل . كنا نغنى ونتنزه جميعاً ونذهب للاستماع إلى حلقات ليونادرو مونكادا فى بيت السيدة فلورندا . كان كل منا يذهب ومعه ورقة خروج ليستخدمها كمظلة إذا أمطرت السماء . صاححت أختى :

- قلت لك إن أشجار الخروج خلف المطبخ تريد أن تذهب إليها .
أمر ما قد حدث وأمى تطرز وهى مخفية وراء الباب . قالت أختى الأخرى :

- ها قد جاءت الفراشة الصفراء تناديك لكى تذهب وترى ما الذى حدث بين أشجار الخروج . نحن لا نجرؤ على الذهاب .
قالت الفراشة :

- هناك رجل جريح بين شجيرات الخروج قدم فى الفجر .

ذهبت لأرى ما الذى يحدث لأشجار الخروج ذات الأوراق التى فى حجم مظلة المطر . ذهبت ومعى عباد الشمس فى يدي أترقب . كانت أشجار الخروج صامتة ومنفعلة . ابتعدن عندما مررت بهن وقلن فيما بينهن " آه عندما يراه ، آه عندما يراه ، عندما يرى الرجل الجريح " . تابعت تقدمى وفجأة رأيته بين الحشائش . فى البداية تبادلنا النظرات ونحن متجهمون ومندهشون . بعد ذلك قام هو ، وشعرت أنا برغبة فى الغناء عندما رأيت صدره وقد احمرّ بدم سال من ثلاثة جروح . مدّ لى يده فجريت إلى المنزل .

يبدو أن أمى سمعت صوت أنفاسى فى منتصف الصلاة لأنها رفعت
عينها ورأتنى فابتسمت من بعيد دونما رغبة .

قلت أخيراً :

- هناك رجل جريح فى الفناء يا أمى .

لكن أمى كانت تطرز وهى حزينة تفكر فى أمرها . وضعت يدها
على رأسى وقالت لى :

دعنى يا بنى فأنا أعمل . لا تدخل الفزع على أخوتك . هناك تين
شوكى على المائدة . خذ أصغر واحدة واترك الأخرى لهن .

دخلت الفراشات إلى صالة الطعام ونظرت إلى . سألتنى " ألا
تصدقك ؟ " . نظرت الفراشات من النافذة وذهبت إلى حيث الرجل
الجريح ثم عادت . حطت الفراشات كلها على رأسى وقالت لى "
أننى رأيت هذا الرجل من قبل وقد ركب سحابه حمراء تبدو
كالحصان . نادى علىّ مرة أخرى ووقع . جرت الفراشات واقتربت أنا
رويداً رويدا . نظرت إلى عباد الشمس ليقول لى هل أنا نائم أم
يقظان .

قال لى الرجل وهو على الأرض وقد ابيضّ تقريباً من الشحوب :
- اقترب .

سألته : هل أتيت راكباً السحابة الحمراء ؟

أوماً برأسه . سألته

- هل أسقطتك؟

قال : قل لأملك أننى هنا وأننى أموت .

- أنت تموت ؟ . أمى تطرز . أمى لها جناحان أبيضان .

قالت الدباير :

- إن أمه لا تصدقه .

وضع الرجل يدي بين يديه الداميتين . قال

- الآن ستصدقك .

جاءت الفراشات والدباير معى . قلن " الآن ستصدقك " وقال
لى عباد الشمس " أسرع " . قلت :

- إن الرجل الجريح سيموت يا أمى إذا لم نساعدته

- ماذا تقول يا بنى ؟

قال الدبور :

- إنه لصادق يا سيدتى . انظرى إلى يديه

- انظرى إلى يدي

- آه يا رب !

قالت أمى و هى بجوار الرجل :

- أين جرحته؟

- هنا يا أستيلا ، ثلاثة جروح . ساعدينى .

شحب لون أمى أكثر من الرجل وكانت الشمس تشع على ظهرها . بعد ذلك امتلأت عيناها بريق وتجهمت وفعلت ، كما لو كانت تغسل يديها حتى قالت " ساعده أنت يا بنى رافقه إلى البيت ، دعه يرقد فى حجرتى حتى أبحث له عن شئ نعالجه به " ابتعدت مسرعة وهى تعدل شعرها وفستانها . نادى على أخوتى خلف المطبخ وطلبت منهن ألا يشرن الضجيج وأن يرقبن الطريق أمام البيت خفية كما لو أنهن لا يفعلن ذلك وأن يخطروها فى الحال إذا ما جاء أحد خاصة السيدة فلورندا أو الحفير . " هناك سر كبير داخل المنزل " ذهبت أمى إلى الممر لتغلى الماء ، بعد ذلك خرجت إلى الفناء . أخذت تطريزها الذى كان قد سقط منها بين أشجار الخروع وقالت للدجاجات والدباير والقطط أن يتفضلوا بعدم الإزعاج وألا يدعوا أحداً يسبب ضوضاء وأن يراقبوا الطريق ويخطروها إذا جاء أحد . قالت لهم " لدينا سر كبير داخل المنزل " .

دخل الرجل من الباب بالكاد وكان يعادل سرير أمى طويلاً تقريباً . خلعت أمى عنه قميصه بعناية فائقة وأخفت القميص فى مكان لا يراه أحد . بعد ذلك نظفت الرجل جيداً بماء مغلى فظهرت الجروح الثلاثة فى الحال فى الصدر . كانت الجروح واحداً تحت الآخر . بعد ذلك نظر الرجل إلى - كانت أمى تنظر إليه و كان هو ينظر إلى أمى دون أن تتكلم - وضعت له مرهما خاصا بجذتى . تألم وسال منه

العرق . عندما أخذنا نربط له الجروح كان قد نام والعرق يسيل منه بغزارة . وضعت أمى رأسه برفق شديد على الوسادة وقد وضعت لها كيساً نظيفاً و مشطت له شعره الأسود ولحيته حتى ينام وشكله أكثر جمالاً . تأملنا شكله . خلعنا عنه حذاءه ، تأملناه بسلسلته . تأملناه بمسدسه وخنجره ، تأملناه وظننا أنه لابد مستريح على هذا السرير ذى الملاءات البيضاء والمفارش النظيفة وأنه سيشفى حالاً وتأملناه ونظرنا إلى أنفسنا . وضعت أمى كل الأسلحة على كرسى ووضعت أنا عباد الشمس فى نفس المكان . قالت لى أمى بحركة شفيتها " لنخرج على أطراف أصابعنا و ساعدّ له مرقّة دجاج ليتناولها حين يستيقظ " أجبتها بنفس الطريقة " أعدى مرقّة بدجاجتى ، وسأظل أنا هنا لأرعاها وأهش عنه الذباب " قالت أمى " لن أعد مرقّة بدجاجتك حتى لا تشعر جدتك " . نظرنا مرة أخرى إلى الرجل وذهبت أمى إلى الممر . خرجت أنا إلى الفناء على أطراف أصابعى وأمرت الجميع بالصمت . " لم يتكلم أحد هنا . كيف حاله ؟ " صمتاً . إنه الآن أحسن ، عالجته أمى وهو الآن نائم ونعدّ له مرقّة دجاج لكن صمتاً " قلت لأخواتى " صمتاً " وقالوا لى " نعم صمتاً " و سيخطرورنى إذا جاء أحد وأنى سأخطرهم بحالة الرجل ومتى يستطيعن رؤيته . قلت لهن " صمتاً ، سأخطركن " . عدت إلى الحجرة . أتمنى ألا تحضر جدتى الآن وألا تحضر السيدة فلورندا .

بدأ المطر بعد ذلك دون رعد أو رياح وكانت السماء لم تمطر منذ مدة كبيرة . كان مطراً هادئاً لينام الرجل مستريحاً لسماع صوته

ولكى يظهر قوس قزح عندما يستيقظ . أصبح الفل نظيفاً وأينعت
الزهور ولمع سطح البيت وأخذت أخواتى المكنسة وكنسن ونظفن
الأثاث ، أثرن الغبار فى البيت . استحمن هن أيضاً وارتدين
البلوزات المطرزة فأصبحن أكثر امتلاء . فى كل لحظة كانت تأتى
إحداهن إلى الحجرة . سألتنى " هل يمكن أن نذهب لتعرف عليه
بهذه البلوزات ؟ " كنت أخطرهن بحالة الرجل . يسألنى هل يضعن
شرائط على رؤوسهن ؟ ثم يختفين . كل ذلك فى صمت ولم يكن
أحد يعلم أين ذهبت أمى . ظللت أنا أرقب نوم الرجل الجريح وأنظر
إلى وريديه اللذين يهبطان فى ذراعيه كنهرين أزرقين . فجأة فاحت
رائحة كل الزهور فى الحجرة . كانت أمى وقد وقفت عند الباب
بجونة حمراء وحذاء بكعب . سألتنى

- هل استيقظ ؟

- كم أنت جميلة يا أمى !

- أعددت مرقة دجاج شهية

- اجلسى إلى جوارى لحظة

- سأذهب لأطرز . أخبرنى عندما يستيقظ .

كان الليل يدخل تقريباً عندما فتح الرجل عينيه . فى الخارج كنا
نسمع صوت أجنحة الفراشات والدبابير وهى ترقب عبر حديد

الشباك. نظر أولاً إلى السقف . تحركت . ثم نظر إلى . ابتسمنا هكذا
ونحن نتبادل النظرات . بدا حينذاك أن الرجل يريد أن يقول كلمة لي
وحدى . سألتني بصوت جميل

- من ينام هنا ؟ أنت؟

- أمي . هل تريد أن أحضر لك ماء من الزير ؟

طلب مني أن أقرب وأخذ يدي

- ألا يسمعنا أحد؟

- لا

- هل أنت متأكد؟

- نعم

- جئت لأتحدث معك ، لأقول لك شيئاً عليك أن تفعله .

جعلني أقرب منه أكثر و أنحنى عليه أكثر

- هل حقاً لا يسمعنا أحد؟

- لا أحد ، لا أحد .

- حدثتني الشجيرات عنك خيراً . عندما تركتني السحابة

الحمراء في النهر قالت لي فراشة صفراء أن أجيء للبحث عنك وأنتك
ستساعدني .

كانت أمى جميلة لدرجة أننى والرجل شعرنا بالدوخة . قالت :

- اذهب للصالة يا ولد

- لا ، إنه رجل صغير

- سأذهب لإحضار مرقة الدجاجة التى أعددتها . إنها تشفى بمفردها . بعد ذلك عليك أن ترحل . لا يجب أن تراك أمى هنا

عندما خرجت أمى أخذ الرجل يدى مرة أخرى وقال لى بسرعة وهو ينظر ناحية الباب و إلى :

- أنا فى الحرب وأريد أن تجمع ذات يوم الأزهار وعباد الشمس والفراشات والدبابير وفراشات الليل وأن تمضى بهم عبر الطريق فى صف طويل مرصوص حيث تغيب الشمس . كلكم فى الطريق . لكى نبدأ عهداً جديداً لا بد من أن تفعل هذا ، ويجب أن نغزو الغرب بجيش كهذا الذى أحكى لك عنه . ستكون أنت القائد وسينضم إليك أطفال آخرون بحدائقهم .

عادت أمى بالمرقة ، لكنه كان قد أنهى الحديث معى . خرجتُ إلى الفناء . أحاطتنى أخواتى والفراشات والدبابير وسألتنى هل يجب أن يحافظوا على الصمت حتى الآن ، قلت لهم لا ، وأن يذهب الأخوات لتناول مرقة الدجاج وأن يتركونى بمفردى بين أشجار الخروع . سألتنى فراشات الليل " لماذا تلمع عيناك جداً ؟ " أجبت : " فى البيت كل الناس تلمع أعينهم " .

فى المساء جلسنا حول المائدة : أخوتى فى جانب ، وهن ىدخلن
حبات العقد ، أنا والرجل فى الجانب الآخر بيننا سرّ بالنظرات .
وضعنا المصباح فى منتصف المائدة و جلست أمى خلف النافذة تطرز .
كان الرجل ينظف مسدسه . سألته أمى دون أن ترفع عينيها عن
التطريز .

- كيف أصابوك ؟

- كمين . كنا ثلاثة . قتلوا الاثنين . بما أننى أعرف هذه
المنطقة جيداً استطعت الاختفاء ، والمكان الوحيد الذى استطعت المجئ
إليه هو هنا ، لكننى لم أكن أعرف كيف سيستقبلنى والدك وخاصة
أمك .

- لم تكن لتلتقى بأبى . وقد ذهبت أمى إلى المدينة . لا تتصور
الظروف التى نمرّ بها .

أحياناً كانت أمى تنظر إلى الرجل بسرعة وذات مرة التقت
عيونهما وقالت هى : " هذه الخيوط متعفنة " . قال الرجل :

- لم يكن يجب على العجوز أن ترحل .

- الآن كل ذلك ملك السيدة فلورندا وعلينا أن نرحل . نحن
نسوة وحيدات دون رجل يحمينا فماذا يمكن أن نفعل ؟ أنا حظى وافر
فقط فيمن يخدعوننى .

توقف الرجل عن تنظيف المسدس وأسند رأسه على المائدة .
نظرتُ أنا إلى أمى .

- من أى شئ مات العجوز؟

- لا ندرى . بسبب ألم فى الفخذ جعله يعانى أكثر من عام
وبسبب الغرز التى تورمت

قالت أمى بعد لحظة :

- سأذهب لأصفى قليلاً من القهوة .

ثم ذهبت إلى المطبخ .

قالت أخواتى

- انتهينا من عُقد ، سنعمل عُقداً آخر .

جاءت رائحة القهوة إلى صالة الطعام

عندما عادت أمى كانت معها الفناجين والأكواب يخرج منها
البخار . وزعت الأوانى و جلستُ إلى المائدة دون أن تتناول قهوتها
وهى تنظر إلى العقد الذى انتهت منه أخواتى . قالت :

- لماذا لا تترك هذه الحرب ؟ قد يقتلونك .

كان الرجل قد انتهى من تناول قهوته وبدأ فى تنظيف مسدسه من
جديد . قال

- لا تدرين . لا يمكن لأحد أن يعيش .

- حسناً . من الأفضل أن تستقر فى مكان ما وتحصل على عمل . أعانك الله .

- الله غير موجود .

- لا تقل ذلك .

- أنت تؤمنين به ولا يساعدك .

- إذا لم تؤمن بالله فبمن تؤمن ؟

أخذ الرجل ينظر إلى ما بداخل المسدس من الفوهة . ذهبت أمى إليه وقالت :

- عليك أن ترحل غداً بمجرد شروق الشمس .

أوماً الرجل برأسه . قالت :

- فى الليالى الأخيرة سمعنا صوت طلقات .

- وستسمعون ثانية . لهذا تقلقنى العجوز .

- أنا أعرف أنهم سيقتلونك فى الحرب .

- هل هذا حجم مناسب للعقد؟ . لقد مللنا .

- أليست هناك نساء ؟ لكى يطبخن ويغسلن ويداوين الجرحى

- هل هذا حجم مناسب للعقد ؟

أجاب الرجل :

- نعم . لا ، ليس هناك نساء . وسقط التطريز على الأرض
مكثنا فى صمت وفجأة بكى أُمى وخيم الصمت علينا . قالت
أُمى :

- اذهبوا لتناموا يا أولاد .

لكننا لم نذهب . قالت للرجل :

- أنت لا تدرى كم أعانى . ولم أستطع النسيان .

- لم يكن ذلك بسببى يا إستيلا بل بسبب العجز . أنا كنت
على استعداد لتحمل مسئولية الأولاد رغم أنهم ليسوا أولادى .

- نعم ، نعم . أعرف .

- جميلة جداً هذه البلوزة .

- لم ألبسها من قبل .

نهضت أُمى لتجمع تطريزها ووضعتة فى الحجرة . قالت وهى
فى الصلاة :

- من الأفضل أن ننام . لا يجب أن تظل الأضواء حتى الآن .
تبولوا فى الفناء .

- أين سأنام أنا؟

عندما استيقظتُ كانت أُمى والرجل فى المطبخ يتحدثان بصوت
منخفض . استقبلانى بابتسامة وأعدت أُمى الإفطار . قال الرجل :

- سأذهب الآن

- ناد على أخوتك لكى يتناولوا طعام الإفطار ويودعوا الضيف .

قَبْلَ الرجل أخواتى وعندما ودعنى قالت أُمى أنها ستعدّ له قهوة
مرة أخرى لكى يحملها معه فى آنية .

- يجب أن يكون ذلك بسرعة .

أعدّتها بسرعة وكانت قهوة جيدة . قال

- سأذهب الآن فعلا .

ذهبت أُمى إلى الحجرة وأحضرت له ميدالية عليها صورة العذراء
وعلقته فى القميص من الداخل . قال الرجل :

- علىّ أن أذهب . كونوا عقلاء .

سألته أُمى :

- هل كانت القهوة جيدة؟

تساقطت منها الزهور الواحدة تلو الأخرى . قال الرجل وهو عند

الباب :

- تصرفوا بتعقل .

- ألم تنس شيئا؟ هل أذهب لأتأكد؟

- لا

لم تستطع أمى أن تسيطر على نفسها . خفقت أجنحتها بشدة داخل البلوزة حتى شقتها وملأت المطبخ . سقطت الأكواب والأطباق على الأرض وطار رماد الموقد فى كل مكان وعمّ الضباب . لم تبق لها زهرة واحدة فى شعرها . جرت أخواتى وأسندت كل منهما جناحا ، لكن الأجنحة كانت قوية لدرجة أنها رفرفت أختاى معلقتان بهما . تعيّن على الرجل أن يحتضنها وجلس بجوارها فى نفس المقعد وشرح لها أهمية الحرب . كنت قد ذهبت إلى الفناء بحثا عن زهور . قلت :

- اثنان من الحرس يأتیان .

قالت أمى :

- يا إلهى - هداً الجناحان- إنهم لا يمرون من هنا فى هذه الساعة أبدا

- لا تنزعجى . تصرفى كما لو لم يكن هناك شئ .

قال ذلك وذهب إلى الحجرة ومسده فى يده

قال الحرس :

- صباح الخير

ردت أمى بصوت رقيق

- صباح الخير ، صباح الخير .

قلت أنا

-صباح الخير

- لم نفطر حتى الآن. أعطونا قليلا من القهوة

- تفضل. يجب ألا يحرم أحد من القهوة ، خاصة في وقت مبكر كهذا ، فالسير هنا بدون شيء من القهوة في المعدة هو آخر ما يسمح به. أما اللبن فلا ، فليس لدينا حتى لبن لنا.

قالوا وهم يشربون القهوة:

- ليس من الضروري . في هذه الفترة من الأفضل النوم حتى وقت متأخر.

ابتسمت أمي .

قال الرجل وقد ابتعد الحارسان:

- الآن أستطيع أن أرحل .

صافح أمي وقبل أخواتي وقبلني و نظر في عيني . ودّعنا جميعا بإشارة برأسه . صاحبه حتى النخلة الموجودة عند الباب . لا أدري كم من الوقت مرّ منذ أن رحل وأنا ماكث هنا ، عيناى مغمضتان حتى لا تفارقنى رؤياه .

كانت أمي بجانبى . لم يكن فى شعرها زهرة واحدة ، وكانت قد خلعت جونلتها الحمراء . قالت لى :

- ماذا تفعل هنا؟. اذهب إلى داخل البيت . لا يجب أن تأتى أمي وتجذك هنا مبكرا تتجول بين الأشجار . البس بنطلونا وإلا سيلدغك النحل فى فخذك .

- أنا أودع الرجل الجريح .
- أي رجل جريح؟
- قالت أخواتي وهنّ عند الطريق :
- هذه جدتي تأتي
- قالت أمي :
- تعال نستقبلها - وسارت أمامي وهي تطرز .

لم يكن المكان الذى ذهبنا إليه أنا و أبى بلداً جميلاً ، بل لم يكن بلداً على وجه التقريب . كان به شارعان ترابيان مليئان بالحصى يتقاطعان فى حديقة . كانت الحديقة قديماً بها بئر و شجرة ورد وعندما انهدمت حافة البئر و سقط فيها ثلاثة أطفال احتج الناس لدى العمدة . عاد الناس إلى الاحتجاج عندما تخطى نبات العليق الأمريكى تمثال زعيم وطنى وشجرة الورد . لكن بعد ذلك لم يحتج الناس أبداً ، وظلوا بلا بئر ولا حديقة وبدون الأطفال الثلاثة وبدون شجرة ورد . وأقفل مقر العمدة أبوابه وسرح موظفيه وأصبح الناس بلا عمدة . لكن ذات مرة كان هناك احتفال بعيد الاستقلال وانتخابات وعمدة وقسيس وكنيسة وكل شئ ثم لم يكن هناك شئ على الإطلاق . كان العمدة رجلاً عجوزاً لا يخرج من بيته ولم يكن أحد متأكداً من أنه لا يزال على قيد الحياة ، والقسيس حمل متاعه ورحل . أخذ معه أحسن صليب فى الكنيسة : الصليب الوحيد فى الحقيقة . الناس كلهم بعد ذلك متشابھون وضعفاء ويعملون فى مزارع التبغ القريبة . كانوا يخرجون فى الفجر تحت الضباب دون كلام . بقية الناس كانوا ينامون حتى الضحى عندما يرتفع صوت امرأة عجوز تسأل عن صحة شخص ما كان على وشك الموت أو تسأل عن أمر هام آخر . لكن ذلك لا يحدث إلا أحياناً . وفى معظم الأحيان كانت هناك الشمس فى مواجهة البيوت العارية من الدهانات والشوارع الخالية . لا يفتح أحد نافذة ولا تجد كلباً يعبر الطريق . فى الحادية عشرة تقريبا كان الأطفال يخرجون إلى الشارع يلعبون . لم تكن هناك مدارس ، لكن الأطفال لم يكونوا يلعبون الحجارة ولا يتشاجرون ولا

يتصايحون. عند الظهيرة كانوا ينادون الأطفال لكي يحملوا الغداء إلى الكبار في الحقل. عندئذ كانت الشمس تحمى أكثر لكي تلتسع الأطفال. كان الحصى يتوهج فتتورم أقدام الأطفال. كان من يمشى دون مظلة أو من له أهذاب قصيرة يكاد يفقد بصره. وكانت السقوف المصنوعة من البوص على وشك الاشتعال. كانت القرية كلها تعود إلى النوم. كان الحر شديدا لا يطاق ولم يكن بمقدور الفتيات اللاتي يطرزن مفارشهن بجوار الزير التحلى بالصبر والتحمل. فى الرابعة مساء كان هناك مطر خفيف يتحول بعد ذلك إلى سيول قوية قطراتها سميكة لكنها تتساقط برقة. فى نفس الوقت كانت الرياح تهب وأوراق الشجر تنخلع وتطير فوق المنازل وكذلك الملاءات كانت تسقط من على الحبال. كل ذلك كان يحدث فى أقل من خمس عشرة دقيقة. كانت الشمس تعود إلى الظهور وتسخن الجو إذا أرادت ، وكانت فراشات بيضاء صغيرة من تلك اللاتي لا يمكن الإمساك بها تحط فى مجموعات فوق أرضية الشارع المتماسكة. وعندما يعود الرجال من الحقل كان بعض هذه الفراشات تخرج طائرة ، أما الغالبية فكانت تبقى وتسحق ، إذ لا يهتمها ذلك. فى المساء كان الرجال يجلسون أمام أبواب منازلهم وملابسهم مكوية يدخنون فى صمت وملامحهم متجهمة. بعض الأطفال كانوا يلعبون لعبة الكلب المختفى. كانت أسرهم تناديهم فيدخلون البيوت ليناموا. لم تكن نافذة واحدة تظل مفتوحة. كان المحبون ينصرفون مبكرا ، يحيى كل منهم الآخر فى طريق العودة وفجأة يخيم على القرية صمت لا يقطعه حتى الشخير ، ولا يضىء القرية إلا بعض المصابيح العامة التي لم تحترق بعد. وكان الغد كالأمس.

كان هذا هو الحال عندما جئنا لنستقرأنا وأبى. كان هو حزينا
وكننت أنا سعيدة على أمل أن تتغير حياتى فى المدينة. اشترينا بيتا
صغيرا فى آخر الشارع الرئيسى وبيضناه. ولم تمر خمسة عشر يوما
على مجيئنا حتى أعلنوا أن خط السكة الحديد سيمر بالمدينة. أعلنوا
ذلك بالطبول والأبواق ، لكن أحدا لم يفرح ، لدرجة أن الأشخاص
الذين جاءوا للإعلان تعين عليهم شرح ما معنى كلمة "خط" وما
معنى "سكة حديد" و ما هى المزايا التى تعود من ذلك. كننت أنا التى
جلبت ذلك الحظ السعيد ، وكننت على وشك التعرف على فيليكس.

كانت الجدة وهى قادمة راكبة بغلتها تقترب ببطء شديد لدرجة أنه كان يبدو أنها لا تتقدم. كانت أخواتى يقفزن فرحا لاستقبالها ، لكنهن تعبن فذهبن إلى البيت. شربن ماءً وعدن إلى الطريق يقفزن من جديد. لم تنظر إليهن الجدة ولم تلق علينا التحية ولا على أمى. تابعت طريقها حتى وصلت إلى حيث الشجرة. نزلت من على البغلة ودخلت البيت دون أن تنفض من على نفسها الغبار. جلست على مقعدها فى مكانها وناولتها أمى كوبا كبيرا يسيل منه الماء . بدأت تشرب رويدا رويدا دون أن تغير من موضع نظرها. جلست وأخواتى جلسة مؤدبة دون أن نضع ساقا على ساق أو شئ من هذا القبيل. وعندما انتهت جدتى من الشرب أحضرت لها أمى فنجانا من القهوة.

- بصرى يزداد ضعفا يوما بعد يوم.

- هل تريدن أن أكشف على عينك؟

قلت:

- كان هنا رجل جريح يا جدتى

- لا

قالت جدتى وهى تنظر إلى أمى:

- ما هذا الرجل الجريح الذى تتحدث عنه يا ولد؟ لا تقل هذا الكلام حتى لا تروّع اخوتك.

- اذهب إلى حيث البغلة وأحضِر الحلوى التى أرسلها لكم جدكم أناستاسيو وفكوا رباط مارجريتا المسكينة.

- هل تحرقك عيناك؟ لماذا لا تريدن الكشف عليها؟
- أهدانى الرجل الجريح عقدا.
- لا يفيد فى ذلك. إن عيني تحرقنى ولا أرى إلا ضبابا.
- أى عقد يا ولد؟
- خذى ، لم أبع قرطك. هذا القرط اشتراه لك فيليكس يوم أكملت الخامسة عشرة من عمرك.

دخلت الدجاجة الملونة وصعدت فوق رجل جدتى

- حسنا ، قولى لى ما الذى اتفقت عليه مع خالى أناستاسيو
- لم تجب جدتى. بدأ وجهها يتجههم وعيناها تدوران وضغطت على أسنانها. بحثت أُمى عن تطريزها وبدأت العمل. أخواتى بدأن يتسللن رويدا رويدا ، حتى جرّين ليختفين تحت السرير. خرجت أنا إلى الفناء وفى الحال أحاطت بى الفراشات.

صحت وأنا فى الحديقة "أيتها الزهور". كانت السحب تمضى بطيئة فى السماء وكان ظل الشجر يمضى طويلا من أفق إلى أفق ولونه رمادى. كررت النداء "أيتها الزهور" "أنا صديق الرجل الذى رحل فى الفجر ، ذلك الذى به ثلاثة جروح فى صدره وهو فى الحرب. لقد عيننى قائدا للحديقة وأمرنى أن أنظمكم فى صفوف أنتم والفراشات والدبابير والنخل وشجيرات الخروع وفراشات الليل وكل الطيور وكل الشجر ، وأمرنى أن أمضى بكم فى هجوم ناحية

الغرب". صمتت الحديقة وتوقفت الطيور فى السماء وخرجت الأشجار تتجول ماشية . داعبنا نسيم الصباح و أحاط بى الجميع متيقظين دون كلام . تأكدت من أن صوتى يصل إلى أبعد مكان وبدأت أمشى وأنا أقول " رددوا النشيد . احملوا الأعلام . حرّضوا الأطفال الآخرين وحدائقهم " . صعدت فوق صخرة و رأيت حولى جيشاً جراراً صامتاً . رفعت ذراعى إلى أعلى و قلت " لقد غادر الرجل الجريح بيتى فى الفجر وسال دمه من وريديه الزرقاوين الموجودين فى ذراعيه القويتين كنهرين لونهما أزرق . قال الرجل أنا سنصل إلى حيث تغيب الشمس ، حيث الضوء المنير الذى يأتى من السماء ويخرج من الأرض . هناك سنلتقى بأطفال آخرين وجيوش أخرى وسنبداً معا عهداً جديداً تحدث عنه الرجل الجريح الذى غادر بيتى عند الفجر" . قلت وأنا أنظر إلى جيشى الذى يتمايل عندما تحركه الريح: " فى هذا العهد الجديد تستطيع أمى أن تضع عنها ملابسها وأنتن أيتها الزهور تستطيعن أن تحلقن كالفراشات والطيور وسيكون للطيور ضوء مثل فراشات الليل وسيكون لفراشات الليل أوراق كأشجار الخروج وستحدث كلنا لغة واحدة وسيعزف عباد الشمس على قيثارة جدى كما يريد" . أنارت الشمس رؤوسنا وحرك الهواء نباتاً صغيراً أو جناحاً ، وتأكدت من أن جنودى كثيرون ومخلصون . تأكدت أنهم مدّ البصر وأنهم يحيطون بى متأثرين . تابعت حديثى: " لقد قالت لى جدتى ذات يوم: عندما تكبر ستكون شيطانا أو ماسح أحذية أو ميتا من الجوع . فى بيت السيدة فلورندا لوحة مرسوم فيها شياطين كثيرون فى جهنم . أيتها الزهور: أنا

لا يهمنى أن أكون ماسح أحذية أو لصا ، أيتها الفراشات ، أو أن أكون ميتا من الجوع يا عباد الشمس ، لكننى لا أريد أن أكون شيطانا كشياطين السيدة فلورندا" . انسلت الزهور من أوراقها واقتربت أشجار الخروج أكثر لكى تسمع خطابى . نزلت من على الصخرة وبدأت أتجول بين جنودى وهم ثابتون كثيرون . مددت يدى لهذا وربت على رأس ذاك . كانوا ينظرون إلىّ باحترام . تقول نظراتهم إنهم على استعداد للسير فى اتجاه مغرب الشمس تنفيذا لأمر الرجل الجريح الذى نقلته إليهم أنا قائد الحديقة . قلت : "أنا وأنتم ينتظرنا نفس المصير الذى ينتظر جدتى ، وهو نفس مصير آبائى وآبائكم وأجدادكم أنتن أيتها الزهور والفراشات . كنا سنكبر ونحس نموت ، ونحن نلعن الأرض والسما . كنا سنحمل الحزن كما حمله آباء وأجداد الرجل الذى كان فى بيتى وكما حمله هو نفسه . لقد عانى هو من جراح فى صدره وهو فى الحرب . لقد شرب من ماء الزير ويأمرنا بأن نشكل صفا لا نهاية له وأن نمضى فنحرق جذور القصب وأن نردد النشيد ونحمل الأعلام ونتجه نحو الغرب . عندما نفعل ذلك فإن قوة جديدة ستسرى فى شريانى الرجل الجريح اللذين يجريان كنهرين فى ذراعيه القويتين" . سرت هممة تأييد وسط الجيش وتمايلت الزهور ورقصت الطيور وبعثت فراشات الليل أضواءها وحركت أشجار الخروج أوراقها وحركت النخلة سعفها . كقائد للحديقة واصلت جولتى . «فى يوم أن نعلم كيف نشكل صفا متراصا يقودنا إلى المكان المضبوط الذى سينبعث منه النور الذى يبدأ معه عصر جديد ، سواء أكان هذا النور يخرج من الأرض أو ينزل من السماء ، ستطير آلاف الحمام وسنحمل البشرى إلى كل مكان» . لم تكن هناك كلمات أخرى ولا حركات

أخرى . أنهيت خطابى الذى ألقيته خلف المطبخ وأنا أحتضن عباد الشمس . نفخ الجيش صدره شجاعة وهبت الرياح ثانية عليه وعاد كل فرد إلى مكانه وعدت أنا إلى البيت لأشرب ماءً من الزير .

سألت أمى جدتى وهى تغرز الإبرة فى نفس المكان :

- حسنا ، قولى يا أمى . على أى شئ اتفقت مع خالى
أناستاسيو؟

- صدقينى ، لو ذكرت أمامى اسم أناستاسيو مرة أخرى سأحطم وجهك . اتركى التطريز وهلمى لحمل كل المتاع فهذا ما يجب أن تفعله .

وخزت أمى أصابعها بالإبرة و رفعت عينيها الحزيتين الباكيتين .

- أن أمى تبكى يا جدتى

- بالتأكيد ستصلح الأمور كلها هكذا ! . إنها تبكى الآن! لماذا لم تفكر فى ذلك عندما تزوجت بأول رجل قابلها وأنجبت ثلاثة أولاد؟

- ماذا بك يا أمى؟

قالت جدتى عند المطبخ :

- لقد ذبح أحد دجاجة هنا . تترقبون غيابى للإجهاد على ما لدينا بدلا من حراسته . هذا ما تجيدون عمله .

- ليس بى شئ. اذهب لتلعب عند شجر الخروع. هيا نقول للسيدة فلورندا أن تمهلنا مزيدا من الوقت يا أمى. ألن يساعدنا خالى أناستاسيو؟ لقد ساعدته أنت دائما. هل حصلت لى على عمل فى المدينة؟ هل كلمته فى ذلك؟

ردت جدتى وهى تمسك شمعة بيدها فى المطبخ

- اسكتى يا حمقاء. أم تريدين أن أقول لك من السبب فى كل ذلك يا قطعة الجحيم؟ وإلى الآن تريدين الزواج ثانية! قالت لى أختى عند الفناء:

- أختى، اخرج من البيت. إن البغلة تبكى وتقول أنها هى الأخرى لا تستطيع مزيدا من التحمل.

- قولى لى مرة أخرى فى عمرك أن هناك رجلا يعجبك أيتها الحمقاء! واعلمى أننى قد حذرتك! يا رب نتسمم كلنا.

- سأحضر لك زهورا يا أمى

- يالتعاستى ولدىّ ابنة حمقاء عديمة الفائدة! ما يجب أن أفعله هو أن آخذ حبلا وأشنق نفسى حتى تدبروا أموركم بأنفسكم. لماذا لم أفعل ذلك حتى الآن! ماذا أفعل أنا فى الحياة بعد أن مات فيليكس؟

- انظرى يا أمى، هذه زهرة.

لكن أمى واصلت البكاء

- جدتى

صاحت جدتى وهى تلقى بالزهرة بضربة يد

- الكلام الفارغ هو ما سيساعدنا به أناستاسيو! وأنت أغرب عن وجهى بروثك وبهذه القمامة التى تحملها . أنا أشغل ذهنى لأبحث لكم عن سقف ومأكل وأنتم فى الحماقة . هيا!

خرجت جريا إلى الفناء . لن أكلم جدتى مرة أخرى ولن أكلم أمى أيضا . أمى وجدتى الآن ليستا أمى وجدتى .

جاءت أخواتى إلى حيث جلست واختبأنا نحن الثلاثة بين شجيرات الخروج . علينا أن نسير فى الطريق ونتوه حتى يبكوا علينا ويعلم الجيران . أو أن نقع نحن الثلاثة فى بئر .

حانت ساعة الغداء ولم يستدعنا أحد ثم حانت ساعة العشاء . ذهبت و إخوتى نختبئ تحت السرير وأنا أحيانا لا أحب أن أكون إنسانا . من الأفضل أن أكون نخلة فى الطريق أو سقفا لمنزل أو حصانا يجرى . لو كنت حصانا لما تركت أحدا يمتطينى . أمى نعم أما أى شخص آخر فلا . والأفضل من كل ذلك أن أكون ليوناردو مونكادا . كانت جدتى ستذهب كل ليلة إلى بيت السيدة فلوراندا لسماع مغامراتى وكنت سأظهر لها ذات يوم عند باب المطبخ وأقول لها :

- صباح الخير ياسيدتى .

- يا استيلا ، يا أولاد ، اجروا . انظروا الى مونكادا .

تاتى أمى و الاولاد .

- آه ، إنه مونكادا . متى جاء ؟

- فى الليلة السابقة . جاء فى سحابة .
- أحقًا ذلك يا مونكادا ؟ ياللعجب ! هل تريد أن أعد لك
مرقة دجاج ؟
- استيلا ، اذهبي وضعى زهورا على رأسك بينما أحادثه .
- حسناً .
- لكن انزل يا مونكادوا من على فرسك . يا بنات احضروا
كرسياً لمونكادا . الكرسي السليم .
- لا أستطيع النزول يا سيدتى . لابد أن أذهب لأنازل بعض
الأشرار الذين يريدون أن يغتصبوا الأرض من بعض المواطنين الطيبين .
- آه ، إنه نفس ما يحدث لنا .
- وتسأل أختى .
- وهل أنت إنسان طيب جداً يا مونكادا ؟ هل يدك أو قدمك
اليسرى مشلولة ؟
- سألت جدتى .
- هل تعرف يا مونكادا أن صاحبة هذا البيت تريد أن تطردنا
ونحن لا نعرف إلى أين نذهب؟ سنموت من الجوع والبؤس .
- انظرى يا أمى إن أختى تدفعنى نحو أقدام حصان مونكادا .

قالت أمى :

- إن موسم البرد يبدأ الآن يا مونكادا وليس لدينا أغطية ولا شئ ترتديه .

- اليوم ليس لدينا شئ نضعه فى الإناء ، والدجاجات لا تبيض لأننا لا نلقى لها طعاما . أليس معك شئ ؟
قالت الجدة لأختى .

- قفوا ساكتين مؤدبين لكيلا يعضكم الحصان .

- أحضرت لكم كثيراً من الأشياء التى لم تروها من قبل .

- أحقاً يا مونكادا ؟ يا له من شئ طيب !

- استيلا ، إن مونكادا هو الرجل الذى يناسبك .

- أرنى ، أرنى .

- أحضرت لكم عقوداً وأحمر شفاه ومناديل عليها صور الزهور وتماثيل من الخزف وراديو وزهريات تعلق فى الجدران ومصابيح تضىء وميدليات عليها صورة العذراء ومفرشاً لمائدة الصلاة ومنضدة صغيرة للصلاة وزهوراً وإبراً وخيوطاً وعدسات وشرائط وعطوراً وجواهر ومراوح ومعاطف وأطباقاً ومرايات وعقوداً وأشياء أخرى كثيرة من تلك التى كان جدكم يبيعها .

- وهل أحضرت لنا قليلاً من النشا لنعد طعاماً للأولاد؟

- وهل أحضرت لنا خبزاً ؟

- لا لم أحضر .

فجأة صاحت جدتى فى مونكادا :

- لا تزعجنى أكثر. قلت لك إننى لا أريد أن أرى طفلاً على مسافة ميل . اذهب إلى خلف المطبخ لتلعب بالقمامة والعصا .

من الذى استدعاك للمجىء ؟

- كنت أريد أن أقول لك إن السيدة فلورندا حضرت يا جدتى .

جرت أمى نحو الحجرة وقالت السيدة فلورندا وهى عند باب الصلاة :

- صباح الخير .

- صباح الخير يا سيدة فلورندا .

أحضرت جدتى كرسيًا من صالة الطعام وقالت :

- اجلسى على هذا الكرسي فهو أفضل كرسي لدينا .

- أرى أنكم لم تجمعوا متاعكم . لا أدري كيف أحادثك أنت .

قالت السيدة فلورندا ذلك وأخرجت سيجارا

- اذهبى يا استيلا وأحضرى نارا للسيدة فلورندا .

ظهرت أمى ، وجهها أبيض من البودرة . دخلت أنا وإخوتى وأخذنا ننظر إلى السيدة فلورندا ونحن مختبئون خلف الكراسى .

قالت أمى :

- صباح الخير يا سيدة فلورندا .

- ماذا حدث؟ هل انتهيت من التطريز الخاص بى؟
- أظن أننى سأنتهى منه هذا المساء.
- قالت أمى ذلك وهى تبتسم. نظرت إليها جدتى وذهبت هى إلى المطبخ. قالت جدتى:
- كنت أتمنى لو أنك يا سيدة فلورندا...
- لحظة يا أديلا ألفيرا. لقد كنت طيبة جداً معكم. لا أمهلك ولا يوم آخر. ماذا حدث مع الشعلة؟
- جاءت أمى ومعها شعلة فى ملعقة وفنجان من القهوة. أشعلت السيدة فلورندا سيجارها ولم تشرب القهوة. بعد لحظة وقفت.
- قالت جدتى:
- هذا المساء سأذهب إلى بيتك يا سيدة فلورندا لأتنبأ أريد أن أحادثك فى أمر ما.
- يمكنك المجئ وقتما تحبين. إن مسلسل مونكادا فى قمة الإثارة، لكنك تعرفين ما أريد. لا يجب أن أكرر ذلك على مسامعك يا أديلا ألفيرا وإلا فذلك أسوأ.
- نقرت دجاجة دجاجة أخرى. قالت السيدة فلورندا:
- ما أجمل هذه الدجاجة!
- إنها دجاجة الولد بنت الدجاجة الملونة التى أهدانى إياها فيليكس عندما كنا مخطوبين، تلك التى هناك. يا ولد سلم على السيدة فلورندا.

- صباح الخير والبركة يا سيدة فلورندا .

- ألبسى هذا الطفل بنطلوناً . ويجب ألا يتجول الأولاد فى الأدغال . يقولون إنه منذ أيام قتلوا اثنين من المتمردين فى هذه المنطقة . لم يكن ينقصنا إلا ذلك !

رافقت جدتى السيدة فلورندا ، وعند الحديقة أخذت السيدة فلورندا تستعرض الأشجار و تلمس الأزهار و تشمها وتلقى بالأسئلة على جدتى . فى النهاية انصرفت ، وعادت جدتى إلى البيت . عادت ووجهها مكفهر كما لو كانت قد انتهت من نفخ النار فى الموقد . عندما رأت الجدة أخواتى ينتظرنها عند الباب صاحت :

- هيا إلى العمل ، خذوا المكنسة و نظفوا كل الأفنية وعندما تفرغوا من ذلك ضعوا ماءً فى الزير ثم اغسلوا الأوانى وكسروا الخطب .

اجتمعت أنا وإخوتى خلف المطبخ .

- هيا ندعو الله أن تموت الجدة لكيلا تصبح قاسية علينا .

- أن تموت فلا . إنها مسكينة .

- أن تقع و تنكسر رجلها إذن .

- لا ، إن ذلك سيؤلمها كثيراً وهى ضعيفة وستموت .

- أن تتابها الحمى كل يوم .

- لا أيضاً .

- أن تجرح نفسها بالسكين .
- لا .
- أن يصيبها زكام سيئ جداً .
- سيئ جداً لا .
- أن يصيبها زكام خفيف .
- هو ذا ، هو ذا .
- هيا ندعو الله أن يمنحنا هذه الأمنية .
- هل نقدم نذرا ؟
- واحد . اثنين . ثلاثة .
- يا قوة الله العظمى التى فى السماء . يا مريم الطاهرة ، ندعو الله أن تصاب جدتنا بزكام خفيف حتى تتعلم ألا تكون قاسية معنا .
- فاجأتنا الجدة وفى يدها عصا وصاحت بنا :
- ماذا تفعلون هنا وأنتم تتحدثون بدلا من أن تعملوا ؟ .
- تعالوا هنا .

ذهبنا نحن الثلاثة . وعندما مررنا بالمطبخ رأينا أمنا تبكى كما لم تبك فى حياتها خلف الموقد . وكان الموقد يبكى . لم نر أنا وإخوتى أمى حزينة بهذا الشكل قط . ظللت وإخوتى مستكينين بلا تنفس نتابع الجدة التى كانت تتجول فى الصلاة وهى لم تقل بعد ما العمل الذى علينا أن نؤديه . فى النهاية قالت :

- هل ترون هذه الأجولة التى أحضرها الآن ابن السيدة فلورندا؟
وهل ترون كل شجيرات الورد الموجودة فى الأفنية ؟ نعم أليس
كذلك؟ أولا احملوها شجرة شجرة واقطعوا كل الزهرات وضعوها فى
الأجولة الموجودة هنا. بعد ذلك اقطعوا كل شجيرة من الجذر وضعوها
فى الأجولة الأخرى. لا أريد أن تبقى ولا شجرة واحدة ولا بذرة ولا
ورقة. هيا.

أدارت لنا ظهرها وذهبت تبحث عن أمى . وجدتتها عند ناصية
الباب ، بيدها عصا هى الأخرى. توقفت هى عند الضلعة الأخرى
وصاحت بها:

- إلى العمل .

قلت وإخوتى فى سرنا: "هذا غير معقول" وظللنا بلا حراك فى
وسط الفناء. بدأ المطر. قالت زهور الداليا: "هذه جريمة". أخذت
وأخوتى نجمع الورود وكانت زهور الداليا تبكى وكان الزعفران يبكى
وكانت زهور "لا تنسى" تبكى. كانت أخواتى يرتدين فساتين حمراء
وكان المطر رماديا. أبصرتنا زهور البيجونيا قادمين فقالت
زهور الياسمين: "اتركوا لى على الأقل البراعم". لكننا قطعنا
البيجونيا والجرس والياسمين. قالت الدباير: "أنتم وأنتم ، تعالوا
هنا. يا أيتها الحمامات المطوقة، أيتها الطيور المتسلقة ، ماذا تفعلون؟
يا زهور السوسن ويا فراشات ، اكرهوهم". وقالت زهور القرنفل:
"لكن ألم نتفق على تشكيل صف طويل جدا ونسير نحو الغرب
ونحن نردد الأناشيد ونحرق جذور القصب ونحرض أطفالا آخرين
ونحمل الأعلام لكى نبدأ عهدا جديدا؟" وقالت زهرة السحلب:
"أأست قائد الحديقة؟". وقالت الدباير: "اكرهوهم". واصلت

وأخواتى العمل تحت المطر ونحن نبكى ونجرب الأجوالة المليئة بالزهور .
لم نترك ولا واحدة حتى لو كانت ياسميناً أو وردة . جرت الفراشات
ولم تصدق ما ترى وقلن : " أنتم؟! وأنت؟! " . كانوا يسرون خلفنا
ويقولون : " هذه جريمة . لكن لا تبكوا . خذونا نحن أيضاً وانزعوا
أجنحتنا " . تواصل المطر علينا وعلى الحديقة فمحا صورة جدتى وأمى
وكل منهما تمسك عصا فى يدها وهما عند الباب . واصلت الدبابير
النداء : " أيها السمان ، أيتها العصافير ، انظروا ماذا يفعلون! كانوا هم
الثلاثة ، وقد رأيناهم كلنا . لا تكلموهم وقولوا للفراشات ألا
تكلمهم . سنتظر أن تأتى فراشات الليل هذه الليلة وسنحذرهم من
اللعب معهم أو الكلام معهم وعلينا أن نصعد إلى السماء لكى نمنع
السحابة الحمراء من المرور . إنهم هم الذين قطعوا الزهور " . وصاحت
أشجار الخروج : " ماذا سيقول الرجل الجريح الذى شرب ماءً من الزير
وهو الآن يحارب ويبذل الدم الذى يجرى فى شريانيه كنهرين فى
ذراعيه القويتين؟ " " لا تقترب منا ثانية لترى الشمس من خلال
أوراقنا و لن نظل عليك ثانية " . تعانقت أخواتى وهن يرتدين
الفساتين الحمراء تحت المطر الرمادى وبكين وهن يجمعن زهور
المارجريت . تعانقت أخواتى ونظرن إلى فلم يبق فى الحديقة إلا عباد
الشمس الأصفر الذى أملكه . ورغم أننى حاولت التهرب إلا أنه كان
أمامى تحيطه الفراشات التى تريد أن تعرف هل سأقتلعه هو أيضاً .
وصلت وقلت له " يا صديقى عباد الشمس " قال لى :
" لا تبك . اقتلنى " ارتميت بين ذراعيه الرقيقتين . من خلال المطر
رأيت خيال جدتى قادمة لترى ما يحدث . قال لى عباد الشمس

" لا تبك . اقتلنى " . شدته بلين " هل ألتك؟ " . عندما أمسكته
بيدى وهو لين، أصفر، عباد شمس نائم على صدرى خرجت سائرا
وعيناي مغمضتان تحيطنى الفراشات . وأخفته تحت السرير . قبلته
وقبلنى . سألت جدتى " أين الولد؟ " عندئذ رجعت وقلت إننى كنت
أشرب وإننا قد انتهينا . قالت : " اذهبوا إلى داخل المنزل ولا تبللوا
أنفسكم أكثر . سأحمل أنا الأجلة إلى الطريق وستمر السيدة فلورندا
لتأخذها وتبيعها فى البلد " . كان الوقت ليلاً تقريباً . رأينا كل
الفراشات والدبابير قد حطت على البيت وهى تبكى . أسرعنا لننام و
غطينا رؤوسنا تماماً لأننا لم نكن نريد أن نرى فراشات الليل عندما
تعلم بما فعلناه أنا وأخواتى المجرمات .

كان الوقت فجراً تقريباً عندما شعرت بأخواتى بجوارى .
قلن لى :

- أخى ، هل نسير فى الطريق و نضل ؟
- الدنيا اليوم ظلام . غداً .
- سنذهب ونترك ملابس وعلامات لكى يعرفوا أننا رحلنا لأننا
لا نحتمل المزيد من المعاناة .
- و إذا بكت أمنا ؟
- سنعمل غداً طوال اليوم لنكسب قوتنا حتى نرحل .
- لن نكلم جدتنا .
- ولا أمنا .

- كنس البيت مقابل الفاصوليا .
- وكنس الألفية مقابل الأرز .
- وملء ثلاث أوعية ماء من النهر يعادل بيضة مقلية .
- وملء أربعة أوعية مقابل قهوة باللبن .
- غسل الأواني الصينى دون كسر أطباق والبحث عن البيض فى عشش الدجاج ودفع الدجاجات إلى خارج البيت مقابل غسيل ومكواة ملابسنا .
- ما الذى يمكن أن نقوم به أيضا ؟
- قتل النمل .
- والتنفيض .
- وتكسير الحطب .
- ومراقبة مجئ السيدة فلورندا .
- وإذا عملنا وعملنا وليس هناك ما يؤكل؟
- ذلك من الأفضل . فهكذا ندفع لهم مقابل إحضارنا إلى الدنيا وتوفير مسكن لنا منذ ولدنا .
- هيا ندعو الله أن تصاب الجدة بزكام خفيف .
- لا . أن تموت وأن تفقد بصرها .

- وأن تصاب أمنا بزكام شديد .

- هيا نبكى نحن الثلاثة فى صمت .

صاحت الجدة :

- ما هذه الشرثرة التى أسمعها ؟

ولم يُسمع مزيد من الشرثرة .

أمضيت وإخوتى اليوم مختلفين مسختبين تحت السرير . سمعنا صوت الفئران وهى تأكل بنهم غير معهود . كانت أمى تجمع حاجياتنا فى صمت وتضعها فى لفافات . ظلت تقوم بذلك حتى الظهيرة . حيثُذ جلست فى الصالة تطرز وتبكي دون أن تسأل عنا . فى كل لحظة كانت إحدى أخواتى تخرج بحذر شديد لتحضر قليلا من الماء لعباد الشمس . ذات مرة أحضرت زهرات مارجريت كانت موجودة على الأرض وزرعناها خلف الباب . سألتنا زهرات المارجريت :

- أنتم طيبون أم أشرار؟

لم نتكلم بقية اليوم . لم يتكلم أحد ، وعندما جاء وقت العصر - كان الوقت ليلا تحت السرير- جلست جدتنا فى مكانها عند الباب . أعدت ماءً للاستحمام وقالت لأمى :

- استيلا ، أخرجى الأولاد من تحت السرير لأننا سنذهب إلى بيت السيدة فلورندا للاستماع إلى حلقات مسلسل ليوناردو مونكادا .

الجيران كلهم يذهبون كل ليلة إلى بيت السيدة فلورندا . هناك يتحدثون وعندما يحين وقت التمثيلية فإن السيدة فلورندا تعلن ذلك وتوزع القهوة وتدير المذياع . بعد ذلك يلعب الرجال الدومينو ويتحدثون عن أعمالهم وتحدث النساء كذلك وتحيك ، أما نحن الأطفال فنريد أن ننصرف .

عندما وصلنا صمت الجميع وألقينا التحية . قالت جدتى :

- مساء الخير لكم جميعا .

- مساء الخير ، مساء الخير .

- أيها الأطفال اتركوا مقاعدكم لأديلا إلفيرا واستيلا فهما كبار

- كنت أنتظرك يا أديلا إلفيرا لأننى كنت أريد أن أعرف ما هو علاج الغدة النكفية ، لأن ابنى صغير ووجهه متورم منذ أمس .

وسألت السيدة فلورندا :

- هل أحضرت لى التطريز يا استيلا ؟

- بالنسبة للغدة النكفية أعطه شراب البنجر وطريقة إعدادة هى أخذ عصير البنجر وتغليه مع العسل أو السكر . إنه مشروب لذيذ جدا . ويمكن أيضا أن تضعى فيه عقدا من الخروع ولا تتركى الطفل يبتل لأى سبب أو يبذل مجهودا حتى لا تنزل له اللوز وهذا أمر سيئ .

- نعم يا سيدة فلورندا . كيف لا أحضر التطريز ! هاهو ذا . لم يخرج كما كنت أتمنى .

- انظروا يا له من مفرش جميل! ياللملاءات! يالفرش المطبخ!
يا للروعة!

- تعالى يا ميكائيل لترى حاجيات زفافك.

- كنت أعرف أن تطريزك رائع لكن الرؤية هي أفضل شئ .

- وأنا ابني روميلسندو مصاب بالحصبة ولقد أتيت لكى تصفى
لى دواءً .

- أعطه شيئاً مطبوخاً ساخناً وإذا كان الشئ المطبوخ ورق
برتقال فهذا أفضل . وعليه ألا يستحم ولا يتعرض للهواء حتى يبرأ .

- أولادك متجهمون جداً . ماذا بهم ؟

قالت السيدة فلورندا :

- لقد طرزت لى كل حاجيات زفاف ابنتى .

- هم هكذا دائماً ، فلاحون .

أسرت جدتى حديثاً إلى السيدة فلورندا وخرجت إلى مسافة ما
بعيدا عن البيت . بعد لحظة استأذنت أمى وتبعتهما . ظلت بعيداً عنهما
وكنت أنا قريباً منهما وقريباً أيضاً من النساء أسمع حديثهن .

- إنهم مساكين ، فالبيت الذى يعيشون فيه أصبح ملكاً للسيدة
فلورندا وعليهم أن يغادروه . ستقيم السيدة فلورندا مزرعة جديدة
لتربية الأبقار .

- وأديلا إلفيرا لا تكاد تبصر . هل لاحظتم ما يحدث لعينيها؟

قالت جدتى:

- سيدتى فلورندا ، أتوسل إليك بأغلى شئ عندك وبقدرة الله العظمى وبمريم العذراء الرحيمة أن تمهلينى أسبوعا آخر .

- ألا تعرفين معنى أن تصبح المرأة فى الشارع ومعها ثلاثة أولاد دون رجل يحميهم؟ وألا تعرفين أن البنات قد صرن الآن أنسات جميلات؟ . الولد فعلا دميم.

- آه . لا .

قالت جدتى:

- بعد أسبوع سنرحل على أية حال يا سيدتى فلورندا . تذكرى خدمتى الطويلة لك . تذكرى كم كانت أمك تحبنى وكم لعبنا سويا عندما كنا صغارا .

- يا بنت ما الذى حدث بين استيلا وزوجها؟ أنا لم أتعرف عليه . أو أنها لم تتزوج أبدا؟

- تذكرى كيف كانت أمك تعاملنى يا سيدتى فلورندا وكيف أننى كنت طيبة . أريد أسبوعا مهلة حتى أجد بلدا ووظيفة لاستيلا . سنذهب إلى المدينة .

- لا أعرف جيدا . أعتقد أنه تركها أو أنه قتل . كان رجلا مهيبا . كان يمر من هنا ومعه قطع وفجأة عاشا سويا دون زفاف أو خطوبة .

- لهذا لم تحبه أديلا إلفيرا وجعلت حياتهما مستحيلة . دائما كنت أسمع أن أديلا إلفيرا كانت هى السبب فى مشاجراتهما . بعد ذلك تزوجت من آخر، أليس كذلك؟

- وأنا أيضا سمعت أن الطبيب قال لأديلا إلفيرا إنها لا يمكن أن تنجب إلا مرة واحدة وأنها كانت تريد ولدا لكى تسعد فيليكس عليه رحمة الله ولهذا كانت تحقق على استيلا باستمرار .

- هذه إشاعات يرددها الناس . أديلا إلفيرا هى أطيبة إنسانة فى الدنيا . لقد أمضت عمرها تقدم الخير للناس فكيف تتمنى الشر لابنتها؟

- فى المدينة يسكن أناستاسيو . هل تتذكرين أخى؟ إنه سيبحث لى عن وظيفة لاستيلا .

- نعم، بعد ذلك خطبت استيلا لرجل طيب جدا كان على وشك الزواج منها لكنه كان مشغولا بالسياسة والإضرابات واعترضت أديلا إلفيرا . حسنا فعلت لأن المرأة التى تظل بلا زوج -أيا كان السبب- ومعها ثلاثة أولاد أفضل ما تفعله هو أن تتحمل هذه التبعة بقية عمرها دون تفكير فى زواج آخر .

- يقولون أيضا إنه كان هناك رجل عجوز يريدون أن يزوجوا له . استيلا لأنه كان عنده محل .

- هذه أقاويل يرددها الناس .

- بدأت جدتى فى البكاء وقالت السيدة فلورندا :
- أرجوك لا تبك ، فأنت تعرفين أن البكاء لا يجعلنى أغير . لو أنك بذلت هذه المساعى منذ أن حذرتك لكان لك شأن آخر .
- إذا كان هناك إنسان لا يستحق ما يحدث له فهو أديلا إلفيرا . لقد قدمت الكثير طوال حياتها ولم تحصل على شئ .
- يا لفصاحتها وهى تقرأ الإنجيل !
- ويا لمهارتها فى علاج التخمة والجفاف !
- قالت السيدة فلورندا :
- ودعك من البكاء الآن فالأمر لا يستحق ، فلم يمت أحد . هيا ندخل .
- لكن.....
- بدأت تعالج لأنها حسب ما يقولون كانت تعاني من صداع شديد وظهر لها قديس .
- أعوذ بالله . هذا الأمر قد يحدث لنا نحن أيضا فى أى يوم .
- حسنا . أسبوع آخر فعلا . اسمعنى ، أقسم لك بالصليب وبزفاف ابنتى أنكم إذا لم تغادروا البيت بعد أسبوع فإننى سأطردكم كالكلاب فقد زاد الأمر عن حده . وسأقوم بذلك بنفسى .
- شكرا يا سيدتى فلورندا شكرا . إن الله سيجازيك فى الآخرة وسترين .

عندئذ قالت أمى :

- انظرى يا سيدتى فلورندا ها قد أحضرت لك الدجاجة التى أعجبتك أمس . إنها هدية .

- حسنا . شكرا جزيلا . ضعيها فى تلك الحظيرة .

- ألم تقل لك ما إذا كانت ستدفع لى ثمن التطريز يا أمى ؟

- هس !

حان وقت تمثيلية ليوناردو مونكادا . توافد الجيران على صالة الجلوس . قالت السيدة فلورندا للذين لم يدخلوا بعد :

- أيها السادة ، ستبدأ الآن تمثيلية مونكادا ، والقهوة قد أعدت .

جلست أمى بجوار النافذة وجلست وأخواتى بجانبها ، نختفى تحت ذراعيها . جدتى ابتعدت وأخذت تنظر إلى الخارج دون أن تذوق القهوة التى كانت فى يدها .

التزم الناس الصمت ومدت السيدة فلورندا -بجوانبها ذات الشيات الكثيرة- يدها إلى المذيع وأدارت المؤشر .

عم صوت المذيع جميع أرجاء البيت . قال الراديو :

- هنا صوت الثورة .

قالت السيدة فلورندا :

- يا للعجب ! تداخلت مرة أخرى هذه المحطة .

وجهت إلى المذيع ضربة قوية جعلت بدرو وليوناردو مونكادا يتكلمان بعصبية شديدة .

عند هذا الحد توقفنا ولم يكن قد مضى على وصولنا خمسة عشر يوماً عندما جاء خبر أن خط السكة الحديد سيمر بالقرية . كنت أنا التى جلبت الحظ وقد اختارونى كملكة الاحتفالات لأننى أيضا كنت حينئذ جميلة ، أكثر جمالا من أمكم الآن . تغيرت الحياة فى القرية . انقطع مطر الساعة الرابعة . بدءوا يبنون فندقاً وفتحوا ثلاث حانات . كان الناس ينامون فى وقت متأخر ، نقشوا جدران بيوتهم والكنيسة ومقر العمدة وكراسى الحديقة . كتب العمدة رسائل إلى السياسيين فى قرى أخرى لكى يعلنوا أنه لم يمت بعد وأن يهتفوا بحياة الحزب المحافظ . أزالوا شجرة العليق الأمريكى وأصلحوا شجرة الورد وتمثال الزعيم الوطنى ، وأصلحوا حافة البئر . خططوا شارعين جديدين وافتتح الفندق . عندما انتهى تركيب السكة الحديد انقسمت القرية إلى جزأين : الجزء الشمالى والجزء الجنوبى ، وقامت أول معركة و أسفرت عن قتلين لكل فريق . حتى أعلنوا عن مرور أول قطار وهو يحمل رئيس هيئة السكك الحديدية . استمرت الاستعدادات أسبوعين . بعدها كان قد تم اختيار اللجنة التى ستحدث مع رئيس الهيئة لإقناعه بإنشاء محطة فى القرية أو على الأقل إنشاء ممر للمشاة . وكان قد تم إعداد البدلة التى سأرتديها لكى أسلم رئيس الهيئة و أنا مبتسمة الورقة التى بها الطلب و كذلك كان قد تم إعداد البنات اللاتى سيحملن سلال الزهور والدخان و المانجو و صور القرية . كانت الفرقة الموسيقية التى أنشئت خصيصاً لهذا الغرض قد أجرت بروفات الفقرات الضرورية . فى اللحظة الأخيرة ضاعت عصا المايسترو ، وفجأة رأينا الناس تعدو و تقف على جانبي السكة الحديد و معهم الزهور

والأعلام لأن دخان القطار كان قد لاح من بعيد . عدونا وبالكاد رأينا كرة اللهب تلك التى ينبعث منها الدخان من كل مكان . أطلقت ثلاث صفارات و مرت محدثة ذلك الضجيج و التزاحم .

و ما أن مر القطار واختفى من الأفق حتى وقف الناس - و كانوا جلوساً - غير مبالين بجمال السماء التى تغطيها البالونات الملونة والحمام ونسوا اهتمامهم بالقطار وتجمعوا حانقين حول مقر العمدة يتساءلون ما فائدة القطارات سوى الضوضاء والدخان ؟ . كنت أنا أيضاً بين المحتجين ، لا للاحتجاج و لكن لكى يرانى الناس بذلك الفستان الجميل الذى كنت أرتديه . تتابع مرور القطارات ليلاً ونهاراً وانتهى بنا الأمر إلى التعود . كان من الصعب أن تقنع النساء بألا ينشروا غسيلهن بالقرب من خط السكة الحديد . قال العمدة : إنه من المستقبح أن تمر بقرية و ترى الغسيل منشوراً . لم نهتم بكلامه : من لا يريد الرؤية عليه أن يغمض عينيه . لم يقنعنا العمدة ، حتى مع الغرامات ، لدرجة أنه ذات يوم أمر بمرور قطارى فحم بدخانهما المعروف ، فجرينا كل منا تجمع الثياب البيضاء ، ورغم ذلك هناك من استمرت فى نشر الغسيل . حينئذ كانت الأمور تسير على ما يرام . كانت إحدانا تعمل وفجأة يمر القطار ويلقى إليها الناس بكلمات الغزل ثم ينصرفون . أما عندما أنشأوا المحطة فكان أناس كثيرون من قرى أخرى ينزلون و يتجولون فى قريرتنا ويبقون أياماً وبعد ذلك يواصلون سفرهم . عند الفجر لم تكن تظل على الحبال ولا نصف الملابس التى نشرت بالليل وهذا ما أقنع كل الناس بعدم نشر الغسيل .

أما أنا فقد سرقوا منى فستاناً أخضر واسعاً كان يعجبني جداً . وهكذا
فمنذ البداية كانت القطارات مصدر إزعاج أولاً وأخيراً . لكنى كنت
مسرورة جداً وأقنعت والدى بأن نتقل بالقرب من خط السكة الحديد
وأن نبني بيتاً هناك وأن نطلى الشرفة بالألوان . نفذنا ذلك ، وذات يوم
أعلنوا عن مجيء فرقة سيرك كبيرة تشغل عشر عربات فى القطار .
ظهرت إعلانات على أعمدة الكهرباء و على جدران المحلات الكبيرة
كانت إعلانات جميلة رسمت باليد ، فيها صور مهرجين وغير ذلك .
جاءت عربة بمكبر صوت وأعلنت عن العجائب التى أتت بها الفرقة .
ظهرت الفرقة بجلبة عظيمة : بهلوانات ونيران صناعية ورجل بأرجل
خشبية يتجول حولها ويوزع باللونات وأوراقا عليها اسم الفرقة وكان
يخرج فقاقيع من إبريق كان يحمله . كانت الفقاقيع كثيرة لدرجة أن
القرية امتلأت ببالونات لم تنفجر ، حتى لو شكها شخص بدبوس .
كان الأولاد يسرون وراء العربة . شعرت أنا برغبة فى السير وراء كل
هذا الجمع ، لكن على الناحية الأخرى من الشارع كان هناك رجال
طوال القامة يرمقوننى . واصلت النظر من هنا وأنا متجهمة . كنت
سعيدة لدرجة أننى عملت فستاناً جديداً أزرق وبه شرائط صفراء من
كل ناحية هكذا . كان فستاناً جميلاً جداً . و كنت أنا جميلة حين
أرتديه وبتسريحة الشعر الخاصة التى تمتلئ رأسى فيها بالزهور هنا
وهناك بعد أن أغسل شعرى بالزيت . كم كان شعرى ناعماً ! .
وكنت ألون شفتى بلون وردى . كل ذلك انتظارا للسيرك رغم أننا لم
نكن نعرف موعد قدومه . زينا المحطة بالزهور والأعلام وكانت فرقة
الموسيقى المحلية تعزف للفنانين . لكن مرت الأيام تلو الأيام ولم

يظهر السيرك حتى أن العمدة جدد الموعد فى مساء أحد الأيام ، وجاء الموعد لكن جاء مطر دخيل ثقيل الدم فمنع السير فى الشوارع ، أو هكذا ظن المطر، أما أنا فكنت أروح و أغدو لكى أعد لاستقبال الفرقة دون أن يهمنى شئ . كان أسوأ من كل ذلك البرودة والضباب حول المحطة والذي كنا نظن أنه ينقشع بمجرد شروق الشمس . أما الضباب فلم يكن يفكر بنفس الطريقة ، بل تراكم بعضه فوق بعض ، وفى الظهر تعين علينا إشعال المصابيح الكهربائية لكى نعرف أين المحطة . بذلنا مجهوداً كبيراً لنصل إلى المحطة لأن الضباب كان قد وصل إلى الشوارع القريبة منها . أمروا بذبج المواشى لإطعام الجمهور المتجمع هناك حتى لا تكون هناك حاجة لمغادرة المحطة قبل قدوم القطار الذى يحمل فرقة السيرك . والقطار لا يصل وأنا أياس . كنا نتحدث ونحن نتعجب من العاطفة التى كنا نحسها . على أية حال فأنا كنت قد مللت ، و راق لى أن أسير إلى الأمام على خط السكة الحديد وأن أتوه وسط الضباب . كنت أنحنى فى المستنقعات و كنت أضع الزهور فى الماء حتى لا تذبل من طول الانتظار فيرانى الفنانون دميمة . كنت أفعل ذلك عندما تخيلت أننى أسمع شيئاً لم أسمعه من قبل . نظرت ناحية خط السكة الحديد الذى يلفه الضباب فلم أر شيئاً . قلت إن هذه تخيلات ، لكن لا . ظللت أشعر بأننى أسمع شيئاً جميلاً ، ثم شعرت أننى أرى هذا الشئ دون أن أراه على خط السكة الحديد . تقدمت أكثر ورأيت - نصف رؤية- شبحاً يتقدم وهو يسير على الفلنكات . لم أستطع تحديد الشكل لأن الضباب تكاثف فى تلك

اللحظة . كنت قد نسيت الزهور و ظللت متنبهة جداً بالقرب من خط السكة الحديد . أحسست بأن قطاراً يمضى رغم أنه لم يحدث ضجيجاً . فى الحقيقة لم أشعر بأنه يسير على قضبان و إنما يتزحلق بنعومة . اقتربت أكثر واضطرت للابتعاد فقد كان شئ حقيقى يمضى : جسم صلب . لم أدر ما إذا كان قطارا ، لأن الضباب حينذاك لم يدعنى أرى حتى رموشى ، لكننى أتعقب الألوان كما يتعقب القط الفئران ، وعلمت أن شيئاً أخضر اللون يأتى وهو يتزحلق . بعد ذلك توقف الشئ عند المحطة . انتبه الجميع إلى وجوده وأحاطوا به ، يلفهم الضباب . بعض الناس لمسوا ما وصلت أيديهم إليه وضربوه بأيديهم وصاحوا لكى يعرفوا ما إذا كان هناك أحد بالداخل .

لكن أحدا لم يرد ، وازداد الضباب لدرجة جعلت السير مستحيلاً . . أحضروا مشاعل لكى نرى ، لكن ذلك لم يجد شيئاً لأن المشاعل نفسها لم يعرف أحد أين هى . حيثئذ جمعوا المصابيح العادية والكهربائية ، لكن حتى هذا لم يضىء المكان . تعين علينا أن نغادر المكان ، كل حسب استطاعته . بعد ذلك أرخى الليل سدوله ولم يظهر القطار الذى يحمل السيرك . قلنا لعامل التلغراف أن يخطرنا عندما تأتى الفرقة لكننا لم نتلق إخطارات ولم يصل أى قطار : لا قطار السيرك ولا أى قطار آخر . تحولت المحطة إلى بيت عديم الفائدة، بناية أخرى كالكنيسة يلفها ضباب دائم . طلب العمال وموظفو التلغراف من البلدية عملاً فى مكان آخر . رحل الذين لم

يكونوا من أبناء القرية وباع التجار مجالهم وعين العملة رجلين لمراقبة الضباب اتقاء لخطره. بعد ذلك بعدة أيام كان هناك أناس لم يخرجوا بعد من المحطة ، وحتى اليوم هناك شخص ما يخرج من المحطة في كل لحظة. الحياة هكذا دائما على وجه التقريب : عندما يسير أمر ما سيرا حسنا فجأة يحدث شئ غير متوقع وتتحول الأمور عما كانت عليه.

وضعت أُمى الصرة الأخيرة على العربة وأخرجت جدتى من البيت . كانت جدتى أصغر حجما من أى وقت مضى . كانت ضفائرها مرسلة وكانت تحمل تحت إبطها دجاجتها الملونة . جلست أخواتى - وقد لبسن أحدث أحذيتهن- على العربة محملات بالسلال . أخرجن عباد الشمس من تحت السرير - دون علم أُمى- ووضعوه فى كيس ملفوفا فى قماش مبلى . تجولت جدتى فى الفناء ، حيث كان النمل يأكل الأوراق الأخيرة ، تتحسس كل شئ بيديها ، تتوقف تحت شجرة وتظل صامتة وقتا طويلا . بعد ذلك تقترب من العربة وتتأكد أننا لم نضع فيها البغلة بعد . تقول بصوتها المرهق جدا :
- نادوا على الولد . بعد ذلك عند الليل سنكون فى المدينة .
أحضروا مارجريتا .

عندما حضرت البغلة العجوز الحزينة تحسستها جدتى وقالت لها :
- آه يا مارجريتا ، أيتها العجوز ، سنتقل مرة أخرى إلى المدينة . أعدى نفسك لتحمل الجوع . الآن لدينا أشياء أقل تحملينها ، فلا تنزعجى إذن . لقد وضعت شحما للعجلات .

نظرت البغلة إلى جدتى بعينين باكيتين مدة طويلة . نظرت إلى كمية الأشياء التى ستحملها وأدارت ظهرها ثم ببطء شديد دخلت البيت وسقطت فى وسط الصالة . طلبت جدتى عصا وذهبت لتعرف ماذا حدث لها . قالت البغلة لجدتى عندما وقفت أمامها :

- أديلا إلفيرا إننى أحبك كما لو كنت أمى أو أختى الكبرى
لأننى عشت معك منذ أن كنت آنسة صغيرة وكنتُ ملكا لإنسانة
أخرى. لقد مررت بنفس تجربتك وأديت أعمالا أكثر لأننى بغلة. إننى
أكلمك بصراحة كابية. لقد ساعدت أباك عندما أردت أنت الذهاب
إلى المدينة ثم خدمت زوجك وتحملت سكره وقيئه دون أن أصصره
أبدا ، ثم أحضرتكم إلى هنا ، ثم ذهبت للعمل مع فيليكس يوميا
عندما أصبح بائعا ثم واصلت العمل بعد ذلك. ذات مرة قمت
بتأجيرى وكانت تلك أسوأ أيام حياتى. جريت وذهبت إلى المدينة
واستدعيت الطبيب جريا. إننى لا أشكو ، فأنا بغلة وهذا هو قدرى ،
ولكن هل تظنين أننى - وقد أصبحت عجوزا مرهقة- أصلح لك ،
تعلقى فى هذه العربة وتجعلينى أذهب إلى المدينة حيث لا حشائش
هناك وحيث يمكن أن تصدمنى عربة ، هذا بالإضافة إلى الأمتعة التى
سيحملونها لى والحجارة التى سألقيها والأمور الأخرى التى سأقوم
بها؟ إن هذا تجاوز من ناحيتك. لا تؤاخذينى. أنا أعلم أنك تمرين
بضائقة ، لكن دعينى أموت هنا فى هدوء فى هذا الركن وتأكدى أنك
إذا كنت قد عانيت فأنا لم أذق طعم السعادة يوما ، إذ أننى حتى لم
أنجب أولادا لأننى لا أستطيع الإنجاب.

عانقتها جدتى وظلت الاثنتان تبكيان طويلا . بعد ذلك عملت
جدتى صليباً وغرسته أمامها حين موت البغلة. قالت لنا:

- البغلة لن تصل إلى المدينة. ستترك السرير هنا والمائدة
والكراسى ، وسنرى ماذا نفعل لكى يأتى أناستاسيو غدا لإحضارهم.
بعد ذلك استدعتنا وقالت:

- أنا قد وصلت إلى هنا . لقد انتهيت . لا أدري متى سأموت
لأن الإنسان لا يعرف ذلك أبدا لكن موتى سيكون قريبا . الآن جاء
دور استيلا ودوركم . عليك أن تكون رجلا وعليكن أن تكن نساء قبل
الأوان . المدينة ليست كالريف . فى المدينة كل الناس شريرة . يراقبونك
لكى يعرفوا أى ضرر يمكن أن يلحقونه بالإنسان وماذا يمكن أن
يسرقوه منه . فى المدينة أى إنسان يمكن أن يضيع . هناك زنوج
يختطفون الأطفال لكى يمتصوا دماءهم وهناك كلاب مسعورة وقانا
الله شرّها . لا تتبعوها عنى لحظة . إذا سألكم أحد عن شئ فروا
مسرعين وتعالوا إلىّ . عليكم أن تخافوا ، فلا أحد يعرف ماذا يمكن
أن يحدث لنا . أستيلا ستعمل وسيساعدنا أناستاسيو بعض الشئ ،
أما أنتم فعليكم أنت تكبروا بسرعة وأن تكونوا كباراً . وعليه فكونوا
طيبين ولا تشاجروا ولا ترهقوننى . عليكم أن تكونوا طيبين وأن
تذكروا جدكم .

قالت كل ذلك و دجاجتها تحت إبطها .

كان علينا - إذا أردنا أن نذهب إلى الصيدلية - أن نمر بمقهى يعجّ بالناس الذين يشربون و يستمعون إلى الموسيقى . لم يكن من اللياقة أن تمر الأنسات من هناك . لكن لو أن الإنسانية تعيّن عليها أن تشتري دواءً فلم تكن لتسير مسافة ثلاث أو أربع أميال ، أليس كذلك؟ ذات مرة لا أدري كيف سيطرت على فكرة النظر بطرف عيني إلى المقهى - فلم أكن أنظر إليه لأى سبب- ورأيت جدكم الذى كان حينذاك شابا يافعا متلون الوجه صحةً ، وحسن الهيئة دائما يتتعل حذاءً أسود يلفت نظر أية امرأة . ورأنى هو أيضا . نظرنا إلى بعضنا البعض بسرعة البرق وعندئذ لم أعد فى هدوء . كانت صورته أمامى لا تدعنى أسير . كم كانت رغبتى فى أن أدير رأسى إلى الورااء وكم كان حياىى يمنعنى ! لم أعد أتحمّل . عندما وصلت إلى المقهى كنت أختنق ، تعترينى رغبة قاهرة فى أن أنظر . كان لدى إحساس أنه يتابعنى ، وكان ذلك حقيقة . عندما خرجت إلى الشارع كان هو على الرصيف المقابل . يُخيل إلى أننى أراه بسترته الحريرية . كنت على وشك أن يسقط منى الدواء ، لكننى تحاملت وخرجت أسير متماسكةً ومررت بجانبه دون أن أنظر إليه مضافية على نفسى قدرا من الأهمية . قال لى : " يا آنسة . . . " كم كان صوت فيليكس جميلا وياجمال الغمازتين فى جبهته ! . " تكلم . هل يحدث أمر ما للسيد؟ " " هل يمكننى أن أرافقك لمسافة قصيرة؟ " . فى الحال فاحت رائحة الخمر " لقد أخطأت الظن بى يا سيدى . أنا لا أسير مع غرباء ولا أتحدث معهم فى الشارع . مع السلامة . شكرا جزيلا " . لا أدري لماذا قلت نه " شكرا جزيلا " . عندما وصلت إلى البيت لم أستطع تناول الطعام

واضطجعت ، تعاودنى آلام الصداق التى لا تحتمل . شعرت بدوخة .
كان فى مخيلتى فيليكس وحذاؤه وغمازاته ، تماما كما هو وتذكرت
عينيه وتذكرته و هو ينادينى " يا آنسة " . حتى الآن أتذكر كل ذلك كما
لو أنه حدث بالأمس . عندما كان المساء يسدل أستاره سمعت - وأنا
فى حجرتى- أبى يتحدث مع شخص ما ونظرت : كان فيليكس .
الذى حدث هو أنه تحرى عن شخص صديق لأبى وهو الآن يقول له
أن الصديق يرسل تحياته إلى أبى وإلى ثم يصف له شيئا وشيئا آخر
فيطابق الحقيقة ويقول له كم كان ذلك الصديق صديقا له هو أيضا .
دعاه أبى إلى الدخول ليتناول القهوة واستدعانى . يا إلهى ! لم أكن
متزينة ولا مغتسلة ولم يكن شعرى منسقا . كنت رديئة الهيئة . هيات
نفسى فى خمس دقائق وخرجت وفى شعرى زهرة وأرتدى فستانا
أزرق مطرزا يجعل هيئتى على أحسن ما يرام . قال أبى : " انظرى يا
أديلا إلفيرا ، أعرفك بهذا الشاب " . قلت " يسرنى ذلك ، اسمى أديلا
إلفيرا توليدو " . مدّ لى يده بالطف وأصبح طريقة ونظر إلى بمكر ، لأن
كل ذلك كان حيلة منه لكى يتعرف على . أنا أيضا ابتسمت . حيثئذ
كان يأتى كل يوم وأحيانا كان يحمل معه قيثارته ليغنى . كان أبى
عجوزا متمسكا بالنمط القديم وكان يعامل فيليكس كابن . كان يلعب
معه الدومينو ، وذات يوم قبل منه الدعوة على شراب ، وذات مرة دعاه
للاحتفال بعيد ميلادى . منذ الفجر كان الجو كله موسيقى واحتفالات
وكننت أنا مسرورة جدا . كان فيليكس مرحا وطيبا . كان يرقص بحذاء
كوبى وكننت أخاطبه بكلمة " حضرتك " . حيثئذ كان يرقص الحذاء
كثيرا وهناك فرق بين من يرقص ومن يرقص الحذاء . عندما كان

فيليكس يرقص كان الناس يلتفون حوله ، فقد كانت رؤيته متعة . لم يكن يتعب من الرقص . أتذكر أننا ذهبنا ذات مرة إلى حلقة رقص على مسافة خمسة فراسخ من بلدتنا وعدنا في الفجر مشيا . كنا قد اشتغلنا في ذلك اليوم وفي المساء ذهبنا في حشد لكى نقوم باضرابات فى ثولوتيا . كان يرتدى فى كل يوم بدلة مختلفة . كان هناك تناوب بين الرقص والتأمل . حينذاك لم يكن فيليكس يشرب الخمر تقريبا . ذات مرة جاء ومعه دجاجة مبتلة فى جيب سترته . كان قد وجدها فى الطريق . أهداها إلىّ وحافظت أنا عليها وهى دجاجتى الملونة . وبعد ستة أشهر من الخطوبة انتحى به أبى جانبا وقال له إنه كبر فى السن ويريد أن يرانى متزوجة قبل أن يموت وأنا يجب أن نرتب أمورنا وأنه سيساعدنا على قدر إمكانياته . وهذا ما حدث فتزوجنا وبقينا لنعيش مع أبى . كان حفل زفافنا رائعا بالتأكيد وحضر الجميع وأحضروا لنا هدايا . لقد تزوجت أنا زواجا منظما لا كزواج أمكم . بعد ذلك مباشرة تولى فيليكس أمر المحل الذى كان يملكه أبى . ولما كان فيليكس لطيفا - كان لديه تعليق جاهز وكلمة مناسبة لكل شخص - فقد كان الناس يشترون منه . كبر المحل وأضاف إليه فيليكس مقهى . حينئذ لم أر ذلك أمرا سيئا . لكن فيليكس كان يضع النقود وينفق كثيرا من جيبه فلم يكن يهتمه شئ . لهذا فإننى - دون علمه - كنت أستبقى قدرا ضئيلا من النقود وأخفيه فى صندوق ليس له إلا مفتاح معى . بعد ذلك وجدنا أبى مخنوقا فى صباح أحد الأيام فى الحمام وأصابنى غم كبير لأننا لم نستطع حتى مجرد إخبار أختى إيوسيبيا التى كانت تعيش فى كاماجواى . وأهملت أمورى قليلا ، وذلك ما

استغله فيليكس لكي يقضى على النقود وعلى المحل واستغل ذلك أصدقاؤه لكي يشربوا دون أن يدفعوا شيئاً. كان المحل مكاناً للشرب المستمر، فضيحة، مكان لعب. امتنع الناس المؤدبون عن الشراء من المحل. ذهبت إلى هناك ووجدت موائد قمار وداعرات. كانوا كل ليلة يحضرون فيليكس وهو مخمور. كنت أجرده من ملابسه وأغسله، فلم يكن من الممكن أن يعتمد على نفسه فى شئ. كنت أضع له ليمونا وهو شراب مفيد لمن أصابته نوبة السكر. وكنت أعد له فنجانا من القهوة مركّزا. حيثُذ كنت أذهب إلى المحل وأطرد الناس جميعاً وأغلق بالمفتاح. كنت أمضى الليلة أبكى وأعالج فيليكس. عندما كان يفيق كان يطلب منى أن أسامحه وكان يعدنى بأنه سيتغير وكنا نبكى سوياً. لكنه كان ينسى كل شئ بمجرد ذهابه إلى المحل. كان المشهد يتكرر كل يوم. الأسوأ من ذلك هو أن فيليكس كان قد أحب القمار أيضاً. كنت قد تعبت وعانيت ما لا يتخيله أحد. كنت أقول له "لا تخدعنى يا فيليكس أكثر من ذلك. ألا ترى أنك تقتل نفسك وتقتلنى؟". مرات عديدة كنت أضع فوطة على كتفى وأذهب لإحضاره ليلاً. كنت أجده فى ركن من المحل يتقيأ. هناك لم يكن أحد يدرى من الذى يخدم ومن هو صاحب المحل، ولم يكن أحد يدرى كنه ذلك النشاط. الناس شريرة وتستغل الإنسان الطيب. أحياناً كنت أجد فيليكس فى الشارع أو على الرصيف أو فى مدخل بيت أو وسط القمامة يتبول وهو متسخ. كنت أحمله وحدى الى البيت بمجهود كبير، فقد كان ضخماً. وكنت أشعر بالحجل فقد كنت أعلم أن الجارات ينظرن إلى من وراء النوافذ. كنت أغتاظ لأن الناس تشفق

علىّ وتحدث عنا . حيثُ حملتُ فى إستيلا . كنت فى يوم أدعو
قدرة الله العظمى أن يكون حملى ولدا كى أسعد فيليكس . كنت
متاكدة أننى لو أنجبت ولدا فإنه سيهدأ . كان قلبى يقول لى ذلك . كان
يريد أن يسميه إيفارستو مثل أبيه . فى الليلة التى ولدت فيها استيلا
كان يبحث عن جدى مذبوح وكان علىّ أن أرسل إليه . لم يستطع
المجئ لأنه كان مخمورا . فى اليوم التالى لم يستطع المجئ أيضا : وهو
فى الطريق عاد إلى السكر ووصل إلى البيت فى اليوم الرابع . هل
تتخيلون أنه جاء حزينا؟ كلا ، بل جاء مسرورا جدا يحمل إلى الهدايا
ويسأل عن ابنه . عندما رأى أنها بنت لم يقل شيئا لكى لا يحزننى ،
لكنه تجهم كثيرا وبكيت أنا . فى هذه الليلة سكر ، قال أنه شرب
الخمر للاحتفال بالمناسبة . بعد ذلك لم يبق فى البيت أبدا . لم يكن
يريد المجئ لأن استيلا كانت تصيح كثيرا وكان هو يضيق بذلك . لم
يذكرنى أبدا أنه تمنى أن ألد له ولدا . كنت أعانى وأنا صامته لا أدرى
كيف أطلب من العذراء أن تساعدنى ، ولم أكن أدرى ما النذر الذى
أقدمه . أسوأ شئ فى الحياة هو الخمر والقمار . إنه أمر سئ فعلا :
جاء واستقر . لو أنك حتى تذوقت الخمر عندما تكبر فإننى سألقى
بنفسى فى النهر و أغرق دون تفكير . هكذا مر الوقت . ذات يوم جاء
رجل وقال أن علىّ أن أحمل متعلقاتى ومتعلقات الطفلة وأذهب معه :
كان فيليكس قد راهن علىّ فى القمار وخسر . قلت له " انتظر
لحظة " . ذهبت إلى المطبخ وأحضرت زجاجة كحول وفرغتها على
جسدى وجسد استيلا ، وكانت معى علبة كبريت فى يدى وقلت
للرجل أنه إذا دخل من الباب فإننى سأشعل النار فى نفسى . بعد

ذلك اضطررنا لإعطاء الرجل السلسلة الذهبية ذات الميدالية التي تركتها لى أمى والبغلة مارجريتا ، لكن مارجريتا عادت فى اليوم التالى ولا أدرى ماذا حدث لأن الرجل لم يسأل عنها. فى يوم آخر جاء رجل آخر وطلب منى ألا أدع فيليكس يذهب إلى المحل لأنه لم يعد ملكنا وأنه إذا ذهب سيطردونه أو سيدخلونه السجن لأنه أصبح عديم اللياقة. هذه هى الحياة: نفس الرجل الذى ساهم فى ضياع المحل من فيليكس لا يدعه الآن يدخل. لكننى سررت فى أعماقى. قلت لفيليكس إننا سنرحل من المدينة وإننى أريد أن أعيش مرة أخرى فى الريف حتى لو متّ جوعاً. لكنه عارض. حيثُذ جمعت متعلقاتى وألبست استيلا ملابسها وهددت بتركه. وعدنى أنه سيتغير، لكننى لم أراجع. إن المدينة أسوأ من القرية، فبالإضافة إلى الشقاء والفقر فالناس شريرة لا ضمير لها. فى النهاية وافق فيليكس على أن نرحل. لم أقل له شئ عن المبلغ الصغير الذى ادخرته والذى لم يبق منه الكثير لأننى كنت أنفق منه على الطعام والملبس، لكن المبلغ كان يكفى لشراء بيت صغير. كنت أعرف السيدة فلورندا. كنا جيران ونحن صغار وكانت أمها هى قابلة أبى وكانت تحبنا جدا. اشترينا عربة قديمة ووضعت فوقها متعلقاتنا وجئنا إلى هنا. مررت بصعوبات كبيرة. كان البيت مبنيا بجذوع النخل وبه حجرة واحدة كنا نضع فيها كل شئ. عند المطر كنا نضع متعلقاتنا فوق السرير ولم نكن نستطيع إشعال الموقد إلا إذا توقف المطر ولا لكى نغلى اللبن لاستيلا. كم قضيت الليالى هناك وحيدة ! . هذا البيت بنيت أنا وحدى لأن فيليكس لم

يكن يهتم بذلك . كنت أغرس الحبال والدعامات الخشبية دفعا وكنت أضع الألواح الخشبية شيئا فشيئا وأنا أطبخ أو أغسل وأكوى لنا وللغير ، وكنت أربي استيلا حتى كبرت وكانت تساعدني بمجرد أن وقفت على قدميها . كان موقدي عبارة عن أربعة أحجار على الأرض وعليها قطعة حديد . قبل أن أنظم المطبخ - وكنا نشعل الحطب لا الفحم - كنت أضع صفائح من الزنك حول الموقد حتى لا تعطلني الريح عن العمل وكنت أطبخ نوعا ثم أطبخ النوع الآخر بعده . كان فيليكس يذهب إلى المدينة ممتطيا مارجريتا . لم يكن يجد عملا . كان أخى أناستاسيو هو الذى وضع لى سقفا من البوص وعمل لى هذا الموقد الذى لدينا الآن والمائدة والكراسى ، أما السرير والدولاب فقد أحضرناهما من المدينة ، والشباك اشتريته بمبلغ ادخرته شيئا فشيئا من بيع الدجاج . كان أناستاسيو قد صار صيادا وفى ذلك الوقت كان يسير فى هذا الاتجاه . صنع لى المغسلة والمطبخية وها أنتم ترون كم هى جميلة لأنه كانت تعجبه النجارة منذ صغره ، أما فيليكس فلم يكن يصنع شيئا فى الدنيا . لو أن الإنسان أعد كشف حساب يبدو أن فيليكس كان سيئا لكن لا . لقد كان طيبا . كان أطيّب إنسان فى الدنيا وأكثر الناس مرحا . لم يرفع صوته على مطلقا ، وأعلم بالتأكيد أنه لم يخذعنى مع امرأة أخرى .

(٢)

أخيراً ظهرت المدينة ، ظهرت فجأة عندما عبرنا منحني وطار
ثلاث حمامات رمادية . رأينا برج الكنيسة ، وهو أعلى من النخلة ،
ورأينا مبنى البلدية وأعمدة المدرج العام وأسقف المنازل وعربات اليد
والكتلة البيضاء التي يشكلها الضباب ، والبيوت الكثيرة ، بل الكثيرة
جدا التي لا يمكن حصرها بين بيضاء وصفراء وبكل منها نافذتان أو
ثلاثة . والبيوت متلاصقة فيما بينها وتلتصق جميعها بحافة الأرصفة
حتى يمكنها أن ترانا عندما نعود -ومعنا صرات- تحت أشجار الخروع
الكثيفة . في ذلك الوقت أوقدت الأنوار الأولى والمصابيح ولوحات
الإعلانات والنوافذ الزجاجية . كان ذلك في الليل ، وكان الليل
كالنهار ، حافلا بكل الألوان . كنت وأخواتي نمسك بأيدي بعضنا
البعض وكانت أمي تنظر ، تنظر أكثر مما كنا ننظر نحن ، وهي تشب
على قدميها ، لأنها هي الأخرى لم تكن قد رأت مدينة من قبل . لم
تكن المدينة كما وصفتها جدتي ، بل كانت جميلة ومختلفة .

قالت أمي : هيا نمشط شعرنا . لدى إحساس بأنني سيكون لي
حظ سعيد في هذه المدينة . من المحتمل أن أجلب أنا الحظ للمدينة
فيأتي قطار السيرك في النهاية . سألتها جدتي -وهي تمشي وراءنا
وتتحدث مع دجاجتها- المدينة ؟

أجابت أمي : المدينة ، المدينة بعينها

- فلتوقفوا أنتم الأربعة !

- هل مشطتم شعركم؟ انفضوا ثيابكم ونظفوا أحذيتكم
وابحثوا لى عن زهور فى الخندق المجاور.

كانت جدتى تقف فى مواجهتنا وقد أشارت بعلامة الصليب أربع
مرات : مرة لكل اتجاه.

- تذكروا كل ما قلته لكم.

- أى الزهور تناسبنى أكثر؟ هل هى الصفراء أم الحمراء؟

- الحمراء

- هل تسمعوننى؟

- نعم يا أمى.

- الصفراء.

- سبرى ما إذا كنتم ستعصوننى.

- هل الفستان لائق بى؟ هل وجهى نظيف؟

واصلنا السير ، وعندما ظهرنا فى الشارع بحقائبنا وصراتنا ،
تقدمنا جدتى بصندوقها وهى تحمل دجاجتها الملونة تحت إبطها، ثم
أنا وأخوتي ومعنا السلالات ، ثم أمى وهى ترتدى جونلة حمراء واسعة
وحذاءً أخضر وتضع زهورا كبيرة فى شعرها وقد صبغت شفيتها للثو
وهى تتأمل كل ما حولها ، عندما ظهرنا فى الشارع بهذا الوصف
أطل أهل المدينة من النوافذ ونادى بعضهم على بعض لكى يرونا
ونحن نمشى ، لكى يروا تلك المرأة التى تلمع عيناها وتتوقف أمام
لوحات الإعلانات وهى تقفز من الرصيف إلى الرصيف الآخر مبتسمة

وهى تحمل ورقة الخروج وتستخدمها كمظلة فوق رأسها. وعندما رأت أمى كثيرا من الأشخاص يشيرون إليها سُرَّت وبدأت تقول لهم بيديها "إلى اللقاء" وتحنى لهم رأسها وتبتسم وتكثر من التحيات. كانت تبتسم لأولئك الأطفال الذين كانوا يقتربون منها عندما كانت تتوقف أمام واجهات المحلات ، وعندما كانت تتحرك كانوا ينصرفون مسرعين. كنا قد وصلنا إلى باب البيت الكبير الذى نريد أن نعيش فيه ، وكنا قد تركنا حقائبنا وصراتنا على الأرض لكى نستريح قليلا بالجلوس عليها. عندما رأت أمى حمامات رمادية فوق أسقف المنازل -ولأنها كانت قد وضعت زهورا كثيرة فى شعرها- ألقت مظلة ورق الخروج على الأرض وقفزت بحذائها الأخضر عليها وألقت شعرها الأسود الفاحم إلى الخلف وطلبت منى أن أعطيها الرق. قلت "الآن نعم" وأعطيته الرق ، وهو عبارة عن طبق من الألمنيوم به شرائط ملونة ملصقة بالحافة. ثبتت الزهور فى الثقوب ورفعت رأسها وأغمضت عينيها. كان من الممتع أن يرى الإنسان أمى وسط الحقائق بجونلتها الحمراء وشعرها الفاحم وهى تستعد للرقص وتنظر إلى الحمامات الرمادية فوق أسقف المنازل. وكان من الممتع أن ترى الناس وهم يحيطون بأمى وينظرون إليها. بدأت أمى فى دق الأرض بقدمها ببطء ثم صفقت. عند أول لفة تحولت جونلة أمى إلى بقعة. توقفت أنفاس الناس ، ووقفت أمى على أطراف أصابعها. رفعت يديها فوق رأسها وصفقت مرتين وثلاثة وأربعة وهى تسارع فى دق الأرض برجلها. التف الناس حولها فى حلقة. حيثئذ ألقى إليها أول زهرة من الزهور الحمراء الفاقعة ، فالتقطتها وهى فى الهواء ووضعتها فى فمها. اضطرت إلى الجلوس على إحدى الحقائق. طعم الزهرة أثار

حماسها فأصبحت تدق الأرض بقدمها بقوة وهي ترفع ذراعيها وتخفضهما وتصفق وتصفق دون أن تستطيع التوقف. اندفعت وسط الناس بحماس وقد جنت جونلتها ، وبدأت هي تلف حول نفسها وفمها نصف مفتوح وعيناها مغمضتان ثم مفتوحتان وهي تصفق دائما وتدق الأرض بقدمها وتضرب على الرق. وعندما انطلقت أول صيحة استحسان قفزت على إحدى الحقائق ودقت برجلها عليها وهي تضرب الرق بين المرفق والساق فثار الجمهور وأطلق الصيحات وفك الرجال أزرار قمصانهم وقذفوا أمى بالزهور وأخرجوا مناديلهم ، ولما لم تكن هناك مناديل كثيرة فقد ألقوا حول أمى بالحشائش والحصى وعلب السجائر وأوراق الشجر والورق والطين. كانت جونلة أمى كالشعلة ، وكان شعرها كالسحاب ، وكانت الزهور تنطلق منها ومعها خصلات الشعر فتصطدم بالناس فيعيدونها إليها وهم يرقصون فتأخذ هي الزهور وتضعها في شعرها أو تأكلها. كل ذلك دون أن تتوقف عن دق الأرض برجلها وعن التصفيق والدوران إلى اليمين وإلى الشمال وهز الوسط والأرداف ، كما لو أن ثعبانا في معدتها. صاح الناس حينئذ أكثر وصفقوا بقوة حتى ورمت أيديهم ودقوا الأرض بأقدامهم حتى تقطعت أحذيتهم دون أن يدروا ، وأخذوا قبضات من الطين ووضعوها فوق رؤوسهم وأخذوا الزهور من أمى وأكلوها بنهم كما فعلت هي أيضا ، ودفع بعضهم بعضا - وهم يصفقون - للحصول على الزهور. ارتفعت سحابة من التراب من عند أقدامنا ولفتنا جميعا ثم علت فوق رؤوسنا ووصلت إلى أسقف المنازل ومعها الأوراق وبعض القمامة والريش والحصوات الصغيرة وعلب السجائر وغطت

الحمامات الرمادية التى طارت إلى أعلى من شدة الخوف ومرت فوق رؤوسنا. سمعت أمى صوت الحمام وهو يطير فتوقفت فجأة لترى كيف يستعد. كانت كل أنوار المدينة موقدة حتى اللمبات المحروقة. شعر أمى -الملئ بالزهور وبعض القمامة- اصطدم بكتفها. تعلق جونتها الحمراء بأحد جنبها وظلت يداها إلى أعلى تصفقان لكن ببطء. ظل الناس فى صمت دون حركة. حول الجميع كانت الزهور تتساقط ومعها أوراق الشجر الجافة. مرت آخر الحمامات وأنزلت أمى يديها ونظرت إلى أولادها -وكنا نحن الثلاثة متشابكى الأيدي- ونظرت إلى الناس الذين كانوا يتأملونها وهى شاحبة والمناديل فى يدها، وابتسمت للجميع. بدأنا نأخذ أمتعتنا ولم يقل الناس شيئاً. بينما كنا نمر كان الناس يتعدون عن الزهور التى كانت لا تزال تتساقط، وقبل أن ندخل البيت الكبير تساقطت حولنا بعض العملات المعدنية، وقالت النساء لأطفالهن ألا يعودوا إلى هذا المكان حتى يُعلم جيداً من تكون هذه الفنانة التى انتقلت للإقامة فى الحى. دخلنا البيت الكبير، وكان الغبار لا يزال يرتفع إلى عنان السماء.

كان فى البيت الكبير حجرتان وقد جلست جدتى على صندوقها فى أحد الأركان. قالت: "أشعر بوخز فى عيني". بدأت أمى تنظم كل شئ وتبحث عن مراتب لكى تنام على الأرض وتبحث عن ورق لكى تغطى به الفتحات التى فى الجدار حتى لا يطل منها زنجى وقح فيراها وهى عارية. قالت:

- هنا ستكون الحجرة وهنا الصالة والمطبخ ومكان الأكل.

كانت مسرورة جدا ، وكانت تنتقل كثيرا بين الحجرات . كانت كلها أمومة . سمعناها تقول وتقول أمام تمثال المسيح وأمام المراة :

- حياتى يجب أن تتغير الآن .

قالت لنا : تعالوا ساعدونى

قالت الجدة : اذهبوا

لكننا لم نذهب . لم نخرج من بين الحقائق . أما اللاتي ذهبن فهن الجارات .

- مساء الخير . هل تسمحون لنا بالدخول؟

- نعم طبعا

- جئت لأقدم نفسى : أسكن فى البيت المجاور ويقولون إنه مما يجلب الحظ السعيد أن تكون الإنسانة أول من تتعرف على الجيران الجدد . اسمى مرثيديس . لدى ولدان كبيران أصغرهما أعزب ويعيش معى . أنا مطلقة لأن زوجى كان عديم الحياء ولم أتحمله . كل ما يوجد بمنزلى يمكنكم اعتباره ملككم .

- شكرا جزيلا . ونحن أيضا نقول نفس الشئ . اسمى استيلا . لن أقدم لك قهوة لأننا لم نحضر حتى موقد . لدينا موقد جيد لكننا اضطررنا إلى تركه . تعالى أقدمك لأمى .

قالت جارة أخرى :

- اسمى مارييل وأسكن فى العشش المقابلة . أعمل فى انتقاء أنواع التبغ وفى مقهى أخى . أواظب على العلاج مع رجل عجوز لأننى متزوجة منذ عشر سنوات ولم أحمل بعد . إذا سمعت عن أى شئ يفيد فى هذا الأمر أخبرينى . هل أنت متزوجة؟

- نعم لكن زوجى يعمل فى كاماجواى . يرسل لى نقودا لكنه لا يستطيع المجئ الآن .

قالت الجارة بصوت منخفض :

- نعم لأن صاحب الحانة ظل فاغر الفم وأنت تمرين ، وفرصة كهذه ليس الحصول عليها سهلا . هل تريدين بعض الفاصوليا التى تبقت لدى من الغداء؟

- حسنا ، لكن تعالى لتعرفى على أمى . بعد ذلك تسألينها عن مشكلتك ، فهى تعلم كثيرا عن هذه الأمور .

- مساء الخير يا سيدتى . كيف تشعرين بعد الانتقال؟

- متعبة قليلا يا ابنتى

- يا أولاد ، اخرجوا لكى تراكم الجارة

- دعيهم ، فالأطفال هكذا دائما . بعد ذلك سيألفوننى . الآن أحضر لك الفاصوليا .

- إنها رقيقة يا أمى

- وأنت ، لماذا تضطرين إلى ترديد الأكاذيب؟

قالت جارة أخرى:

- مساء الخير. اسمى فيلاميدا لكنهم يسموننى فيلا. بما أنكما حديثا عهد بهذا المكان فسأقدم لكما نصيحة: لا تخالطوا مارييل كثيرا ، فهي تبدأ بطلب إصبع وتنتهى بالاستيلاء على اليد. وإلى جانب ذلك فهي مشهورة بأمر سيئ ، فمهما فعلت لا تحمل..... أنا خياطة.

- يا لحسن الحظ ! كنا نتحسر لأننا كانت لدينا ملابس كثيرة فى الريف ولكن لما كنا على وشك الانتقال فقد غسلت كل الملابس وقد سرقت جميعها من على الجبل.

- أى خياطة....أتقاضى أجره زهيدة ، ولا آخذ ما يفيض ، حتى لو كان خيطا.

قالت جارة أخرى:

- اسمى كارمن تيريسا ، لكنهم يسموننى الصينية لأن أمى كانت من الصين ، من الصين الحقيقية ، أى من اليابان. اعتبرينى صديقة. هذا الحى هادئ. كل ما فى الأمر هو ألا تعبرى اهتماما للسيدة فيلا العجوز ، فهي مخادعة ونمّامة إلى أقصى حد.

- قالت لى أن مارييل سيئة.

- حسنا...ومن أى ريف أتيتم؟ هل أتيت هاربة من الحرب؟ يقولون أن الأمور مشتعلة فى الشرق.

- هناك سمعت طلقات نيران
- لا تتحدثى فى أمور السياسة إلا إذا علمت مع من تتحدثين .
- هنا أيضا يوجد وشاة ، لكن الجميع تقريبا يسمعون راديو الثوار مساء .
- قالت مارييل :
- ها قد أحضرت لك الفاصوليا . كيف حالك يا صينية ؟
- هل جئت لتتعرفى على الجارة الجديدة؟
- كانت فيلا هنا تتحدث عنك
- تخيلى . لا أدرى ماذا فعلت للناس لمجرد أننى ممتلئة بعض الشئ وأسنانى كاملة . حسنا ، سأصرف . بيبو على وشك الوصول .
- وأنا أيضا
- تعاليا غدا ، فالآن سنى كيف سنرتب أمر نومنا . لدينا أسرة جيدة لكننا لم نستطع إحضارها أيضا .
- سأعيرك سريرا .
- لا يجب أن يعرف الناس أن الإنسان يكاد يموت جوعا
- لن يعرفوا ذلك بكل تأكيد . . . فليساعدك الأولاد على ترتيب ذلك ، ودعيه هكذا حتى الغد . أعدى شيئا من الطعام وهيا ننام أخيرا . إننى ميتة .
- ألن تنتظرى خالى أناستاسيو؟

- حقا. إذا كان قد حصل لك على عمل أخيرا فأول ما أريد أن تشتريه هو تمثال من الجبس للقديسة لوثيا لكى أضعه تحت السرير.

- يا أولاد ساعدونى ، فعندما ننتهى من ذلك وتأكلون ساعدكم ترون الشارع.

- فى المدن لا تخرج النساء المحتشمات إلى الشارع ليلا.

بدأتُ - وأخوتى- فى مساعدة أمى حتى جاء جدى أناستاسيو. عندئذ دخلنا من جديد بين الحقائق ولم نرد الخروج مطلقا. غضب جدى لذلك كثيرا وقال إنه إذا لم نخرج فسيذهب ومعه الحلوى. ألا نريد أن نتعلم كيف يوقد ويطفأ النور الكهربائى؟ لكن ذلك لم يقنعنا، وبدأ يقول إن أدبلا إلفيرا لو ذهبت مع رجل آخر فسيطاردها برا وبحرا ، وقال أخيرا إنه حصل على عمل لأمى وأضاف أنها وظيفة هامة وأن على أمى أن تقيم كخادمة فى بيت السيدة إنريكيستا وهى سيدة ذات حسب ووقار وأنها تضع شروطا فيمن يخدمها. كان حظنا سعيدا. سيدفعون لأمى خمسة عشر بيسو فى الشهر على أن تقوم بالغسيل والكى والتنظيف وأن تذهب بالأطفال إلى المدرسة ثم تعيدهم إلى البيت. ارتدت أمى زيا أنيقا -أفضل ثوب لديها- ومشطت شعرها -دون أن تضع زهورا- لكى تذهب وتتعرف على هذه السيدة ولترى ما إذا كان يعجب قدرة الله العظمى أن تكون الإجابة بنعم ، لأنها ستوقد لها دسته من الشموع الكبيرة.

عندما انصرفوا طلبت منا جدتى ألا نقول لأى أحد إنها كانت قابلة ، لأن ذلك ليس صحيحا وأنها ستقص علينا الحكاية يوما ما ،

وإذا سألونا فعلينا أن نجيب " لا يا سيدى ، جدتى ليست قابلة " ،
لكن علينا أن ندخل الشخص الذى يسأل وأن نُجلسه بكل أدب . قلنا
نعم لكل ذلك وذهبنا إلى الحلة لنرى ما إذا كان لا يزال بها شئ . كنا
نرغب فى أن تصل أمى ، وكنا ننظر من الأبواب والنوافذ . عادت بعد
لحظة . كانت الفرحة لا تسعها ، وظهر ذلك على وجهها . لقد
ارتاحت لها السيدة جدا ، وهى طيبة طيبة . كان ذلك يرى من على
بعد . لو أننا رأينا بيتها ! إن المرء ليتخيل أن الشئ سينكسر من مجرد
النظر إليه ، يا للجمال ! يا للجمال ! كم توجد به مرايا وتحف !
إنها ستعمل أسبوعين دون أجر كتجربة ، هكذا طلبت السيدة ، لكى
تتدرب على الغسيل والتنظيف والكى . وكانت السيدة ترتدى ثوبا
وخواتم كل ذلك يبدو حلما . مع ذلك كان شعرها يبدو
مستعارا . كان زوجها هناك أيضا . هو ضابط يميل إلى البدانة ويجنح
إلى الشيخوخة . لم يعجبها الزوج كثيرا ، لكن الملاحظ أنه لا يتدخل
فى شئ . ذهب جدى أناستاسيو إلى بيته وسيأتى غدا قالت
جدتى :

- أنت حمقاء . هذه السيدة طيبة وستدفع لك خمسة عشر بيسو
لأنك ستعملين كما لو كنت بغلة .

- إن كل الناس أشرار بالنسبة لك يا أمى .

- لأننى أعرف طبيعة أهل المدن . كيف سنقضى هذا الشهر؟
فى هذا المكان علينا أن ندفع حتى تكلفة الإضاءة . إذا لم تدفعى يأتون
ويقطعون التيار . ليتعلم الولد مسح الأحذية .

- لا . إننى أستطيع أن أغسل وأن أكوى للناس وأن أطرز وأن أقترض إذا لزم الأمر . بذلك وبما تتقاضينه أنت يكفى .
- أنا لا أتقاضى شيئاً . أنت تعلمين أننى لا أتقاضى شيئاً .
- لكن الناس يرسلون إليك الهدايا . أريد أن اشترى من المرتب الأول بعض الثياب للأولاد وحناء مريحا لك . سأشترى للطفل قميصاً أصفر . طالما تمنيت بجنون أن ألبسه قميصاً أصفر .
- اسمعوا كيف ستشترى هى أشياء بخمسة عشر بيسوا ! ما أريد أن تشتريه لى ليس حذاء بل تمثالاً للقديسة لوثيا .
- عندما تبدأ الدراسة فى العام القادم سيذهب الأولاد إلى المدرسة . عليهم أن يتعلموا شيئاً .
- الإيجار قدره ست عملات .
- على الأقل ليذهب الولد إلى المدرسة . الجيران هنا طيبون .
- أنت لا تعرفين أهل المدن كما قلت لك . هيا ننام .
- سأذهب بالأطفال إلى ناصية الشارع لكى يروا المدينة والأنوار ، ولكى أتفرج أنا أيضاً .
- هذا لن يكون .
- نعم .

- قلت لا . هيا ننام .

- تصبحين على خير يا أمى .

كان الفراش لا يكاد يتسع لنا نحن الثلاثة . كانت هناك فجوات فى الجدران ، أما السقف فلم تكن به فتحات ولم تكن ترى أية نجمة فى السماء أو جزء من القمر ، ولم يكن هناك شعاع من ضوء . لم تظهر كذلك أيًا من فراشات الليل . حتى الآن لم نعرف ما قالت الفراشات عندما علمت بموضوع الزهور . ربما ليس هناك فراشات فى المدن . إن ما يوجد فى المدن هى الضوضاء فى الشارع وحول البيت : سكارى يغنون ، ساعات تدق فى كل حين ، أناس ينظرون من ثقب الجدران وفجأة ينطلقون هارين ، قطط فوق أسطح المنازل وأشياء غريبة مثل يد تدفع النافذة ، يد سوداء وبها شعر كثيف ويبدأ شحاذ فى الدخول . نعم ، هناك شحاذ فى الحجرة دخل للتو من النافذة . إنه يرتدى زيا أبيض ، وهو ملتصق بالجدار ينظر هنا وهناك بعينه الكبيرتين . ها هو قد وضع السكين فى يده ويحاول أن يعرف أين الفراش . لهذا فأنا لا أتحرك ، والحمد لله أن أخواتى لا يتحركن كذلك . معه أكياس سيضعنا فيها بعد أن يذبحنا . إنه يقترب . يقترب . إنه يعلم الآن أين نحن . إنه يأتى زحفا على الأرض لأنه لا يريد أن تستيقظ أمى وجدتى . ما علىّ أن أفعله هو أن أخفى بطنى إلى الداخل حتى يرى كل عظام ضلوعى ويعرف أننى ضعيف وأننى ليس بى شحم . ربما يأخذ إحدى أخواتى أو ربما لا يأخذ أى أحد

ويذهب إلى بيت آخر لأننا ليس عندنا دمء تقريبا . إن دمءنا بها ماء . لكننى أفكر أيضا فى عباد الشمس . لا يزال محفوظا فى الحقيبة ، وربما كان غائبا عن الوعى . لو أن أخواتى يصحبتنى لاستيقظت ولزرعته فى الفناء ، حتى بالقرب من البيت ، وفى الصباح أنقله إلى مكان آخر . لو نرفع نحن الثلاثة رؤوسنا فى وقت واحد لما استطاع الشحاذ أن يخرج من مكمنه ، فهو يعلم أنه لو جرّ واحدا فأخوته سيصرخون وستأتى أمى وجدتى والعصا فى أيديهما . هكذا نستطيع أن نذهب وأن نعود . سأقول ذلك لأخوتى بصوت منخفض دون أن يسمعنى الشحاذ .

- أخواتى ، هل نستيقظ ونزرع عباد الشمس ؟
- اسكت فهناك شحاذ فى الحجرة . إننا نمثل أننا ميتون .
- وإذا مات عباد الشمس ؟
- لقد وضعنا له كثيرا من الماء . إنه يتنفس هنا حتى الصباح .
- لولا هذا الظلام الشديد ! ألا تخافون أنتم ؟
- نعم . نعم . ابتعد قليلا .
- هيا نتعاق نحن الثلاثة حتى ننام
- تعال ، لكن اسكت .

- كيف منظر المدينة الآن فى الخارج ؟

مهما فتحت عيني مبكرا ومهما سألت بسرعة عن أمي فإنها تكون قد ذهبت إلى العمل . إنها تذهب قبل شروق الشمس . حينئذ أنتظرها بالليل لكي أراها قبل أن أنام ، لكنني أنام على المائدة ، وتقول أخواتي إن أمي نفسها هي التي نقلتني إلى السرير ، لكنني لا أشعر بذلك ، وكل ما أفعله هو أنني أحلم أنني أراها وأنا ننتزه . فى أحلامى ترتدى أمي الزى الأبيض دائما وشعرها الأسود يصل إلى خصرها . بقية اليوم أقضيه فى الفناء مستيقظا أو نائما . مستيقظا أفكر أنني نائم ، أو نائما أفكر أنني مستيقظ . الأمران سواء عندي ، لأن ما أفعله فى كل الأحوال هو تذكر ما فات . إن فناء هذا البيت لا يعجبني . ربما يعجبني أن فى نهايته صفا من شجر الصمغ الأزرق العالى وفيه أيضا يتكسر ضوء الشمس إلى قطع . يبدو لى أن هذه الشمس هي نفس الشمس السابقة . إنها تضيئ بنفس القدر ، أما خلاف ذلك فالفناء ملئ بالحصى ، والأرض تبدو كالفخار . والفناء ليس به أشجار ولا أزهار ولا فراشات ولا حتى فرس النبی . هناك الحصى وبعض نباتات عاجزة وشاحبة لا تشفى من الصداع . بجوارها زرعت عباد الشمس . لن نكون أنا وعباد الشمس بنفس الطول لأنه لا ينمو ، بل قد انحنى ، هذا رغم أنني أضع له ماء باستمرار . هناك جدار عال من الطوب اللبن يحيط بالفناء بشكل يجعلنى أرى نفس الأشياء دائما : أشجار الصمغ ، بئر الطلمبة والعشش المقابلة . ما عدا ذلك توجد السماء ، لكن ليس هناك سحب جميل يمر من هنا

ولا جياذ . ومهما صَمَتَ الإنسان هنا فإنه لا يسمع زقزقة العصافير أبدا . وفي نهاية الفناء أقبع أنا عندما أسمع صوت أمي في البيت أحيانا . لكنني عندما أدخل من الباب كالمجنون وذراعاي مفتوحتان لا أجد أنها أمي بل صوت أخواتي وهن يتحدثن . وإذا كان الصوت الذي سمعته صوت أمي فإنها تكون قد غادرت البيت لأنها جاءت للحظة واحدة لتطمئن على جدتي أو لكي تنزل الحلة من على النار لأخواتي أو لكي تضع الملح في الطعام إلى أن يتعلمن المقادير . قالت لي أمي ألا أخرج إلى الشارع وأن أحترس من اللعب مع الأولاد الآخرين . لا يجب أن أفعل ذلك مطلقا ، وعلى أن أكون مهذبا في البيت وأن أحضر لأخواتي الماء الذي يطلبنه وأن أرمي القمامة بعيدا . تريد أمي أن تقول كل الجارات إنني مثالي وإن الإنسانية يمكن أن يكون لها ولد مثلي وأنها يمكن أن تعمل بهدوء ودون قلق في بيت السيدة إنريكييتا لأنها تعلم أنني لا أمثل أي خطر . أسأل أخواتي أين كانت أمي عندما قالت ذلك وكيف تكون قد قالت ذلك وكم عدد الزهور التي كانت في شعرها وأطلب منهن أن ينادينني عندما تدخل أمي . تقول لي أخواتي " نعم " ، لكن أمي جاءت وغادرت البيت مسرعة لدرجة أنهن لم يكن لديهن وقت لفتح فمهن . لم يسألنها ما إذا كانت الثقيلة تضاف إلى الفاصوليا قبل أو بعد إضافة الملح . أظن برهة أشم الرائحة التي خلفتها أمي ثم أذهب مرة أخرى إلى الفناء ، وبما أن هناك عظام -بالإضافة إلى الحصى- فإنني أحيانا أجد عظمة فأشير بعلامة الصليب على عيون السمكة التي في ركبتى وأرمي العظمة إلى الخلف دون أن أنظر إليها . هكذا تسقط عيون السمكة ، لكن عيون السمكة التي في ركبتى لا تسقط لأنني دائما أبحث عن العظم .

فى الصبأح أهب الفناء قلىلا ، إذ يغطىبه الضباب . فى هذه
المدينة هناك ضباب أكثر مما فى أى مكان آخر ، إنه يصل إلى فروع
أشجار الصمغ ، وأرى رؤوس الجارات وهن يذهبن من هنا إلى هناك
بلا أجساد ولا أذرع . فى هذه الساعة أخرج وأتبول . جدتى أمرتنى
ألا أفعل ذلك فى الفناء حتى لو أن أحدا لا يرانى بسبب الضباب .
على أن أتبول فى المرحاض . لا يعجبنى المرحاض لأن به صراصر
كثيرة . ذات يوم صعد صرصار على ساقى ثم سقط على رأسه
فى قاع المرحاض . تقول جدتى أيضا أننى يجب أن أكون مختلفا عن
الأولاد الآخرين ، فلا يصح أن ألقى حجارة أو أن أسير فى الشارع .
هذا ما تقوله عندما تتحدث ، لأن جدتى لم تعد تتحدث أو أصبحت
تتحدث وتتحدث دون أن يستمع إليها أحد . وأنا مختلف ، منذ
وقت طويل وأنا مختلف ، فأنا أتصرف بأدب وأتذكر الفناء السابق ،
فناء الحديقة . لا أكاد أتحذ مع عباد الشمس ، وليس ذلك بسببى
وإنما بسببه هو ، فهو أكثر حزنا منى وهو يبكى . دائما نحن
متجاوران ، صامتان ، هو ينظر إلى الشمس وأنا أنظر إليه . تقول أمى
إنها راضية عنى وإنها لا تشكو من أخواتى وإن عليها أن تعمل أكثر .
يا للسعادة ! ، فقد أنجبت أولادا طيبين . رغم كل هذه النعم يقول
الناس إن الله غير موجود . حتى الآن لم تشتري القميص الأصفر
الذى تريده ، لكن فى العام القادم دون إبطاء سأذهب إلى المدرسة
لأنها نذرت نذرا للعدراء . أما أخواتى فلا ، لا يهن ، عليهن أن

يعتنين بالمنزل وبجدتى . بعد ذلك سأعلمهن أنا شيئاً . أمى تدّخر لكى تشتري لى الزى المدرسى والكراسات . مكافأتنا على حسن الأدب - كما تقول- ستكون عودتها من العمل مبكراً ذات يوم . سنرتدى ملابسنا وسنذهب لنرى المدينة . حتى الآن لا نعرفها . سنشتري قوارب من الجيلاتى والشيكولاتة وجوز الهند والزبد . الآن هناك جياذ وستذهب بنا أمى . لكن علينا ألا نطلب ركوب الجياذ ولا أن نطلب شراء غزل البنات لأنه لا يغذى . يمكننا شراء كوب عصير قصب وأن نشترى كوباً آخر لجدتى . لكن أمى تعود من العمل متأخرة ومرهقة جداً وقدمها متورمتان . نحن لا نعلم كمية جرادل الماء التى تحملها كل يوم وعدد مرات صعود السلم حتى الدور الثانى . ستأخذ قرصاً من الدواء إن وجد أو من عند فيلاميدا وتنام . لماذا تضع الأعشاب على رجلها إذا كانت الأعشاب لا تشفى شيئاً ؟ أخواتى يدلكن لها رجلها بالكحول ، وأمى تبتسم من الارتياح وتربت على رؤوسهن . بعد ذلك تستطيع أن تطرّز قليلاً وأن تعلم ذلك لأخواتى . أذكرها أنا بالجياذ الصغيرة والجيلاتى والنزهة ، لكن إذا كان عليها فى اليوم التالى أن تستيقظ فى الخامسة أو قبل ذلك ، لأن عليها أن تنجز أعمال التطريز التى وعدت بها ، فكيف تأخذ الأولاد للنزهة ؟ هل أنا أحمق ؟ فلألعب بزجاجاتى .

ذات صباح ظهر فى فناء البيت طفل آخر . فجأة رأيت ساقه تتدليان من على الجدار . بعد ذلك ظهر جسمه كاملاً ونزل فى الفناء . قبل أن يكلمنى هو جرّيت إلى البيت وراقبته عبر فجوات الحائط .

تجول قليلا ثم غادر الفناء فى الحال . فى اليوم التالى ظهر طفلان بدلا من طفل واحد . دخلا من باب البيت ، من الباب الرئيسى الذى دخلنا منه نحن ذات يوم والذى لم أخرج منه بعد ذلك . أخذنا بعض العظم وشربا ماء من البئر ثم انصرفا . رأيتهما من النافذة ورأيتنى . فى الليل حضر طفل آخر ، مختلف ، ومعه فراشة فى زجاجة . قلت لنفسى " إذن توجد فراشات فى هذه المدينة " ، وفهمت أن الأطفال كثيرون وأنهم مختلفون ، كل طفل طوله مختلف ولونه مختلف عن الأطفال الآخرين . منذ ذلك الحين رأيت الأطفال فى كل لحظة . بمرور الوقت كنت أرى أطفالا أكثر . كان أحدهم يبيع عجائن بالمولز ، وكان الآخر يمشى على عصا ويطلب من الناس أن تضع له عملات فى علبة . كانوا دائما ينظرون إلىّ كما لو كانوا يتساءلون من أكون ، وكنت أنا أنظر إليهم . كنت أسمع من بيتى الجلبة التى يحدثونها وكنت أتساءل ماذا يحدث بالخارج . كانت لدىّ رغبة شديدة فى الخروج ورؤية ما يحدث . كان هذا بالضبط ما يحدث : كانوا يقذفون شيئا ما من الرصيف إلى الرصيف الآخر ويقفزون على الجدران ويصعدون على أسطح المنازل ولا ينزلون رغم صياح الناس ، وكانوا يلعبون الكرة والبلى وكانوا يرقصون . كانوا يلعبون لعبة "الهنود ورعاة البقر" أو لعبة "العسكر والصوص" . كانوا يتشاجرون فيما بينهم وكانوا يردون على الكبار . كانوا يسيرون مشى مشى أو فى جماعات من خمسة أو ستة أفراد وهم يتشاجرون ويقذفون الطوب . عندما كان يظهر امبروسيو العجوز كان الأطفال

يتركون كل شئ ويسرون وراءه يقذفونه بعلب الصفيح الصغيرة ويصيحون به "أيها العجوز المجنون". لم أكن قد رأيت امبروسيو من قبل حتى ذات يوم. فى بعض الأحيان سمعت الجلبة التى يحدثها الأولاد حوله ، وذات مرة قالت أُمى "مسكين ذلك العجوز امبروسيو. سأحمل إليه قطع البطاطا باللحم التى بقيت". لكننى لم أكن قد رأيته أبدا.

الحكاية هى أننى لا أفعل الآن شيئا آخر سوى مراقبة الأولاد لكى أعرف ماذا يفعلون ولكى أتخيل أننى بينهم أفعل ما يفعلون. أطل من باب الشارع ومن خلاله أرى الأولاد يلعبون. البعض منهم يأتى ويدعونى إلى اللعب لكننى لا أذهب ، أو يتركون لى شيئا أحرسه بينما يتشاجرون. كنت على وشك الذهاب وراءهم لكننى أتردد كثيرا. كثيرا ما أقول لنفسى "نعم سأذهب" ولكننى لا أذهب. دائما أدع الفرصة لكى تأتى إحدى أخواتى وتسالننى ماذا أفعل وأنا أنظر إلى الشارع وتقول لى أن أذهب إلى جدتى فهى تطلب منى شيئا. ما تطلبه جدتى هو أن أبقي هادئا فى البيت ولا أخرج أو هل أريد أن أتوه ؟ ذات مرة نادى علىّ عباد الشمس. قالت جدتى لأُمى:

- هذا ، هذا على وشك الخروج إلى الشارع.

- الشارع ؟ إياه أن أراه ! ما يجب عليه عمله هو مساعدة أخواته فى البيت. فليملأ الماء أو لينفخ فى الموقد... أى شئ إلا الشارع.

"عاشت كوبا حرة". تسمع تلك العبارة فجأة وسط سكون الحى فيتحرك كل الأولاد أينما كانوا. يتركون ما بأيديهم ويجرون. تحاول الأمهات أن تغلق عليهم الأبواب وأن تحبسهم ، لكنهم يدفعونهم ويخرجون من الأبواب والنوافذ ويتخطون الحواجز ويلقون بأنفسهم من الأسطح. يحملون العصي والأحجار وعلب الصفيح القديمة ويعدون فى الشوارع. تتردد صيحة "عاشت كوبا حرة" مرة أخرى، وفى آخر الشارع يظهر امبروسيو العجوز وسط الغبار الذى يثيره حصانه الخيالى وقد غطى رأسه بقبعة واسعة. عندما يرى امبروسيو الجمع الذى يقترب منه يظل ساكنا كأنه تمثال. يحرك الريح بنظونه ورايته الممزقة. تتوقف عربات اليد والدراجات وتصفّر له. بعد ذلك يحيط به الأطفال ويصيحون به "عجوز مجنون ، عجوز مجنون يأكل الشوربة". وهو لا يتحرك عندما تسقط بجواره أول الأحجار وعلب الصفيح. إنه ينتظر حتى يحاول الأطفال الأكثر جرأة نزع ميداليته التى يعلقها فى رقبته. حيثئذ يمتطى فرسه ويثور الأطفال ويصيحون بأعلى صوت "إلى الهجوم" ، وتسقط أمطار من الحجارة والعصى عليه. يصيح الأطفال "عاشت إسبانيا" ويجرون بكل قوتهم. يذهبون به إلى بيت كبير غير مسكون. هناك يهجم العجوز امبروسيو على الشجيرات الصغيرة وصناديق الكرتون. إنه يقطع رؤوس كل الأشياء بضربة سيف واحدة ، ثم يدور ملتويا يطعن بالسيف الذى هو غصن من شجرة موز ، كل ذلك وسط قفزات وصيحات الأطفال الذين يشجعونه. وعندما تخور قواه يظل ملقيا على الأرض كالميت. يستغل الأطفال ذلك ليسرقوا منه قبعته

وليتوجوه بجرذل قديم وليقيدوا يديه وليحملوه أسيرا بين صيحات
الهنود الحمر المتوحشين وبين الإسبان الذين يقررون حرقه حيا لأنه باع
نفسه ولأنه خائن ولأنه يأكل "الشوربة". يحاول امبروسيو العجوز
أن يتحدى الأطفال لكن بلا جدوى. يقف شامخا ويمشى متهاديا
يحتضن رايته ، فهو أسير للمرة الأولى في حياته ولا يهمله أن يرقص
الإسبان والهنود حوله أو أن يعلقوا له السحالي الصغيرة في أذنيه.
يستمر ذلك إلى أن تصل النساء ومع كل واحدة منهن مقشة فينهرن
الأطفال يفككن قيد امبروسيو ويحملونه إلى بيوتهن لكي يعطينه قليلا
من الحساء أو قطعة من خبز. يتركنهن يذهبن به إلى بيوتهن وهو لا
يزال يهمهم بعبارات ضد الإسبان.

في اليوم الذي لم تتوقعه أمي ، عندما حضرت لكي تضع الثقليّة
للفاصوليا التي كانت أخواتي يطبخنها ، وجدت مفاجأة. يا لفرعها
عندما رأت مجموعة الأولاد تأتي وهي تعذب امبروسيو العجوز
وعندما رأت أنني -أنا نفسي- أكثر الذين يقفزون ويصيحون ، فأنا
زعيم الهنود الذين يرمون بالسهام. جرت ورائي ويدها فوق رأسها
وهي غاضبة ، لدرجة أن امبروسيو العجوز توقف ليتأملها وصاح
"وايلر ، وايلر" وأمرنا بالهجوم عليها. لكن وايلر -أمام كل قبيلة
الهنود الحمر- أمسكتني من أذني حتى وصلت إلى البيت باكية ،
وهي الآن ستجن بالفعل إذ أنني لا أعيرها اهتماما ولأنني سأضيع بين
كل أولاد الحى. إن ما أحتاج إليه فعلا هو رجل يفرض على
احترامه... ما هذا العقاب يا رب! ألا تعمل هي وتقاسى بما
يكفى؟ ستشترى حزاما غليظا. حيثذ كشفت أخواتي عن نفسهن

وقلن إنهن لن يتواطئن معى بعد ذلك وأن ما فعلته الآن لم يكن للمرة الأولى وليس شيئاً إذا ما قورن بما فعلته من قبل وأنهن بالأمس اضطررن لإخراج جدتى إلى الشارع لكى تنادى علىّ حتى أتناول الغداء وأنى كنت قد أخذت السكين من البيت . لم يعد أحد يعرفنى الآن . لقد تغيرت كثيراً فأصبحت أخرج حتى النهر دون إذن وأذهب إلى فناء الجيران وأتسلق أشجار المانجو والجوافة ، بل أصبحت أتشاجر وأرد على الكبار . لم يتبق من مرحلتى المبكرة إلا عباد الشمس . ألكى تشتري أمنا قميصاً أصفر وزوجاً من الأحذية للمدرسة لهذا الكسول عليها أن تعمل من طلوع الشمس إلى مغيبها وأن ترهق عينيها ليلاً ؟ لا يا بنى ، لا . ابحث عن ملابسك هناك ونم .

فى يوم آخر جئت من الشارع . قلت :

- ضعى لى طعام الغداء يا جدتى . أنا جائع

- قالت أمك أن تذهب بمجرد وصولك إلى بيت السيدة إنريكيثا . لا تحاول أن تعترض . عليك أن تذهب الآن .

كنت أعرف لماذا تريدنى هناك . ابتسمت أُمى بمجرد أن رأتنى ، وأشارت إلىّ أن أجلس على أحد المقاعد بأدب شديد . قالت :

- سيدتى ، ها قد وصل ابنى .

أطلّت السيدة إنريكيثا برأسها المستدير وابتسمت أيضاً . قالت :

- فى الساعة المحددة

- صباح الخير يا سيدتى إنريكيثا

بينما كانت أمى تضع الطعام على المائدة -عدد لا نهائى من الأطباق الملونة والأكواب والملاعق مختلفة الأحجام- ألقىت نظرة على الصلاة لأحاول أن أشاهد تليفزيوننا. اتخذت الحيلة كمن يجلس فى مكان لأول مرة ، لكن الأعمدة دائما كانت تحجب عنى الرؤية. هذا التليفزيون قد رأيته فى مرتين. ذات ليلة جئت إلى هنا مع أمى وقادتنى السيدة إنريكيثا إلى الصلاة لأجلس فيها بينما هما يتحدثان. ومرة أخرى رأيته من عند الباب الخارجى عبر النافذة التى تطل على الشارع. فى المرة الأولى كان التليفزيون يعرض فقرة عن السيرك ، وفى المرة الثانية كانت هناك امرأة شقراء تغنى وهى ترتدى ريشا وتطير فى الهواء. تمنيت لو أننى ظللت أشاهدها طوال الليل ، لكن السيدة إنريكيثا قالت "بعد إذنكم" وأغلقت النافذة. قالت لى أمى إن التليفزيون يظل فى النهار مغلقا وعندئذ لا تكون له أهمية ، لكنها تعتقد أنها تعرف أين زرار التشغيل والآن ، وهى تعد المائدة والسيدة إنريكيثا موجودة ، لا تستطيع لكن فى يوم آخر تكون بمفردها سترسل فى طلبى وسنفتح التليفزيون لحظة. تقول أمى إن هذا التليفزيون ليس الجهاز الوحيد فى هذا البيت بل فيه ثلاثة تجمد وبها يصنع الجيلاتين والحلوى الباردة ، هذا خلاف المسجل. إنه جهاز يضع فيه الإنسان شريطا - ليس أى إنسان بل يجب أن يكون على دراية ، أن يكون شخصا ذا حسب ونسب - فيسمع كيف يغنون ويعزفون الموسيقى كما لو كانوا مختبئين فى الحجرة ، لكن كل ذلك كذب ، إنه الشريط

الذى يغنى ، الموسيقى بداخله . والتليفون . . . لماذا نتحدث عن ترف
الناس المنعمة ؟ حتى الأكل . . . انظر كم عدد الأطباق والملاعق
والأكواب التى يحتاجونها والمفارش وفوط السفرة . إن السيدة إنريكيثا
نفسها تقول إن أى بيت ليس به أشياء أفضل مما فى بيتها . وهذه
حقيقة . ذات يوم لم يتسع البيت لأشياء أخرى ولهذا اشترت مرايا
كثيرة وكان عندها دورق فوضعت خلفه مرآة ، فكان لديها دورق فى
الحقيقة ودورق فى المرآة ، ومنضدة فى الوسط فى الحقيقة ومنضدة فى
الوسط فى المرآة ، وتليفزيون حقيقى وتليفزيون فى المرآة ، وكراسى
حقيقية وكراسى فى المرآة . فى ذلك اليوم كانت هناك نسخ كثيرة
منى ، وكل هذه النسخ كانت ترفع أيديها فى وقت واحد ، وكان كل
منا يقرص نفسه حتى نعرف من منا الشخص الحقيقى . ولم أدر من
هو أنا الحقيقى حتى وصلت إلى بيتنا ، بل إننى أحيانا أظن أن
شخصى الحقيقى قد ظل داخل إحدى المرايا وأن الشخص الذى ذهب
إلى بيتنا ليس هو "أنا" الحقيقى . ذات يوم ذهبت لأرى أمى - ولم
أكن قد عرفت بعد بوجود التليفزيون - وأضعنا فرصة . كانت أمى
بمفردها واستغلت الفرصة لكى ترينى بعض أجزاء من البيت . على
الفور توجهنا إلى الحمام ووجدت تلك الحجرة الزرقاء ذات المرايا
الكثيرة والمفاتيح التى تجلب الماء البارد والساخن حسب طلب الإنسان .
كان يمكن ملء البانيو فيصبح كالبركة التى بها ماء عذب . كان الدش
يشبه الاستحمام تحت المطر الشديد . لكن الشئ الذى أثار اهتمامى
بصفة خاصة كان قاعدة الحمام . كان بها ما يشير إلى الهدف منها .
نظرت إلى أمى متعجبا لأن شخصا فعل تلك الفعلة فى مكان جميل

ونظيف كهذا . من هذا القدر ؟ هل هي ؟ لكن أمي ابتسمت وقالت " " إنها من أجل ذلك " ، وضغطت على يد حديدية صغيرة . لا أدري من أين جاءت كل هذه الرغاوى والموسيقى . تدفقت مياه صافية ، أصبحت كالدوامة فى عمق القاعدة واختفت حاملة معها ما كان فى القاعدة ، وامتلاً المكان بماء نظيف ، لدرجة أن الإنسان كان بمقدوره أن يدخل يده ويشرب دون خوف . ابتسمت لأمي إزاء هذه الأعجوبة ، وطلبت منها أن تسمح لى أن أقضى حاجتى هناك بسرعة لكى أرى ما يحدث . لا ولو بأى ثمن . كانت القاعدة من الصينى وكانت - حسب معلوماتها - يمكن أن تنكسر من أقل شئ ويمكن أن تذهب بى إلى الطبيب وشظية فى مؤخرتى ، وهى لم تكن مستعدة لتلك التجربة المفزعة .

الآن أصبح كل شئ جاهزا على المائدة ، وقد نادى السيدة انريكيثا على ابنها الصغير . قالت له إن الطعام اليوم لذيذ ، ونظرت إلى وقالت " يوجد هنا كلب بقميص مربعات يريد أن يأكل الطعام " ، وكنت أنا أنبح . أصبح الطفل الآن أمام الأطباق يجلس على كرسيه الصغير الأزرق والمنقوش على ظهره أرنب يأكل جزرة . إنه يبكى لأنه لا يريد اليوم أيضا أن يذوق الطعام . لكن عليه أن ينظر جيدا من هنا - هكذا تقول أمه - إنه ابن استيلا الذى جاء ليأكل طعام الطفل إذا لم يأكله هو . فليأكل ولا يدع لى شيئا . ينظر الطفل إلى شزرا ويقول إنه لن يترك لى أى شئ . تتحمس السيدة انريكيثا وتذهب إلى المطبخ وتعود معها بوريزه الفاصوليا الملون اللذيذ الذى لا أعرف له اسما .

عندما أراه أنا أقفز فى مقعدى وأقول إنه لى . يبدأ الطفل فى الصياح ويقول " لا " ، لأن الطعام طعامه . تؤيده الأم على الفور وتقول : ماذا يظن هو؟ ومن الذى قال إن الطعام له هذا الشقى؟ إن الطعام للطفل ، وهذا ليس كل شئ ، بل هناك مربى باللبن ولن تعطىها لى كذلك . لكننى أواصل التهديد حول المائدة وأقول إننى سأأكل طعام الطفل . واحد . اثنين . . ثلاثة ، سأأكل الطعام . الطفل يبكى ، ينظر إلىّ ثم يضحك ، وفى النهاية تقتنع السيدة انريكيثا بأنه لن يأكل اليوم أيضا رغم الوقت الذى أضاعته استيلا فى إعداد الطعام . تعيد الطعام مرة أخرى إلى المطبخ . فى المطبخ تبدأ فى السؤال عما إذا كان أحد قد سمع كلبا ينبح . الطفل يكون قد سمع ، لأن الكلب - أنا - بجواره ويمشى على أربع تحت المائدة بالقرب من كرسيه ويقول - بين نباح ونباح و"امش" و"امش" - : أنا جوعان وأريد أن أأكل طعام الطفل كل طعام الطفل . أين هو الطعام لكى آكله ؟ تأتى السيدة انريكيثا حاملة دجاجة ذهبية اللون يفوح منها البخار وتحيط بها قطع الطماطم والخس والجزر . لون الدجاجة هذه المرة أكثر ذهبية من المرات السابقة . فى البداية تمرر السيدة انريكيثا الطبق عبر حجرة الطعام وتركل الكلب بقدمها ، والكلب - أنا - أقفز وأقفز وأحاول بشتى السبل أن أخطف منها الدجاجة . ياللعجب! هذا الكلب جائع جدا . السيدة انريكيثا تخلع حذاءها وتضربه به . على الكلب أن يعلم أنه لا مزاح فى أمر طعام الطفل . لكن الكلب ينبح ويرقص على رجل واحدة . يضحك الطفل ، ويزداد ضحكه عندما تأتى أمى بحبل

وتجعلنى أصعد على كرسى كما يحدث للأسود فى سيرك فالنسيا .
تستغل السيدة انريكيثا الفرصة وتضع أمام الطفل الدجاجة المشوية وهى
تلمظ . تفسخ وركا يقطع وتشم رائحته . تكاد تذوب من الرائحة
الشهية ، وتقدم الورك للطفل لكى يقضمه . الطفل لا يريد ، وحيث
تضع الورك بالقرب من أنف الكلب ، والكلب يفتح فمه على آخره
لكى يبتلعه ، وتلمع عيناه بيريق ، لكن السيدة انريكيثا تمشى فى
الوقت المناسب ، وتذهب مسرعة بالورك إلى الطفل وتقول له أن
يأكله قبل أن يأتى هذا الكلب الشرير . الكلب -أنا- يتهمز الفرصة
ويهرب ويكاد يصعد إلى مستوى المائدة لكى يخطف الطبق . وقد
كنت على وشك أن أفعل ذلك حقيقة لولا أن السيدة انريكيثا دفعتنى
ولولا أن ابنها ضربنى بيده ، بل وسكب علىّ دورقا من الماء البارد
وهو يضحك . "أرأيت ، أرأيت كيف يريد هذا الكلب أن يأكل
الطعام كله؟" تقول السيدة انريكيثا ذلك وهى تأخذ قطعة من صدر
الدجاجة ثم تضيف : "سنرى يا كانيلو ، لو أن الطفل لا يريد هذه
القطعة فسأعطيها لك" كانيلو يقفز من الفرحة ويسنّ أسنانه ، لكن
الطفل لن يسمح بذلك بالتأكيد . يهبط ويأخذ الحبل الذى يربط
الكلب ، لأن ما يعجبه فعلا هو أن يسمعنى وأنا أنبح بشكل فكاهى .
"ياللعجب!" تصيح السيدة انريكيثا وهى على وشك أن ينفد
صبرها . على الأقل فليشرب اللبن بالمربى إذا كان لا يريد الدجاجة .
يقول كانيلو فى الحال إنه يحب اللبن بالمربى وإنه سيشربه . أمى تحمل
الدجاجة بعيدا وتحضر اللبن فى كوب مرسوم عليه البطة دونالد من

الخارج ، وتقلب المربي الحمراء كثيفة القوام ببطء . يواصل الكلب كانيلو - أنا - القفز والنباح ، إما على أربعة أرجل أو على رجلين أو ثلاثة . يضحك الطفل ، لكنه لا يريد أن يشرب اللبن . بعد ذلك يأتي دور الجيلاتين الأصفر الدافئ . يأتي الجيلاتين لأن الكلب سيأكله ، لكن الطفل لا يريد . إن ما يريده هو أن ينزل من على الكرسي وأن يضرب كانيلو أو أن يركب على ظهره ويوخزه بالمهماز لكي يجرى بطول الصالة . يفعل الكلب ذلك وتتوقف أنفاس أمي عندما تسمع صوت القميص المربعات وهو يتفسخ . تغضب السيدة انريكيثا " ألا تريد أن تأكل؟ إذن فلن تلعب ولن تشاهد التلفزيون ولا أى شئ آخر . ستنام الآن ، فى هذه اللحظة " تنزله من على ظهرى بعنف وتحمله وهو يركل بقدميه . كانيلو يتنفس الآن بعمق . أظل على أربعة أرجل وأنا أرى أمي تحمل آخر الأطباق من على المائدة ، وأراقب ما إذا كانت السيدة انريكيثا ستتأخر لحظة لكي آخذ شيئاً بسرعة وأضعه فى فمى وأبتلعه دون مضغ ، لكن السيدة انريكيثا تأتى فى الحال ، وهى تكاد تبكى لأن الطفل يعاندها ولأنه سيموت إذا استمر هكذا بدون أكل . عليها أن تذهب به إلى الطبيب لكي يكتب له شيئاً من الدواء . عندما ترانى تقول: " ها قد رأيت يا بنى بنفسك أنه حتى بحكاية الكلب لا يريد أن يأكل ، مع أن هذه الحكاية كانت تجدى قبل ذلك . يمكنك أن تنصرف إذا شئت . شكراً " . ترافقنى أمي حتى الباب . هناك تنظر إلى القطع الذى حدث فى القميص لكي تقدّر حجمه وما إذا كان له علاج ، وتقول لى إنها

بعد غسيل الأواني -إذا كان لديها وقت- ستأتى إلى البيت ومعها بعض القهوة لجدتى ، وعلىّ أنا أن أكون مؤدبا وألا أتشاجر وألا أذهب بعيدا مع الأطفال الآخرين وألا أتشاجر معهم ، وعلىّ أن أقدر كم أصبحت جدتى عجوزا وألا أرهقها دون ضرورة. تنظر مرة أخرى إلى القطع الذى فى القميص وتقبلنى.

أحيانا لا يكون المطر المتساقط كمية قليلة. إن السماء تمطر وترعد كما لو أن الدنيا لا تفعل شيئا آخر سوى ذلك ، ثم تهب الرياح. والبيت لا يدرى إلى أى جهة يميل. ويحدث كما لو أن هناك نسوة كثيرات ترتدين الأحذية والملابس البيضاء يرقصن فوق السقف. لو أن الإنسان سدّ أذنيه ثم فتحهما لسمع صوت الماء وهو يقول "واو... واو". عندما تبدأ الشمس فى المغيب ويمتلئ الهواء برائحة الأرض تتنبأ جدتى بما إذا كانت العاصفة ستكون قوية. حينئذ تخرج إلى الفناء وهى تشير بعلامة الصليب بيديها وتقول "أقطعك بالسكين لا بخنجر ، أقطعك بالمذبح المقدس". كم من العواصف أوقفتها جدتى بهذه الطريقة!

إذا لم تفعل الجدة ذلك فإننى وأخواتى نجلس على الكراسى وأقدامنا مرفوعة فى الهواء ، لا نحمل فى أيدينا أى مقص ولا نتحدث ، وكلما يضىء البرق تقول جدتى بسرعة: " باسم القديسة باربارا ليحمنا الله". فى بعض الأحيان تكون ومضات البرق متلاحقة بسرعة لا تمكن الإنسان من أن يدعو القديسة باربارا ، غير أننى أقول

ذلك حتى لا تسقط الصواعق على رؤوسنا. أما عدا هذا الجانب فإن البرق يعجبني لأنه يجعلني أرى جدتي وهي تصلى ثم لا أرى شيئاً ، أرى أخواتي وهن جالسات على نفس الكرسي ثم لا أرى شيئاً. إن ذلك كما لو أنني أفتح عينيّ ثم أغمضهما.

تقول جدتي : "إذا طقطق السقف فاذهبوا أنتم الثلاثة بسرعة إلى بيت فيلاميدا فهو أكثر أمناً" ، ثم يمتلئ فناء البيت بماء المطر.

ذهبت جدتي إلى مكان الزير وشربت ماءً ثم جلست على الكرسي. عدت وأخواتي إلى الجلوس فوق المنضدة ، وكان البرق والرعد يريدان أن يحطما السقف. قالت جدتي :

- أنا لا أعرف ما هي هافانا يا إيليا ولا يهمني أن أعرف. إنني لم أخرج قط من هذه المحافظة ولم أذهب حتى إلى سانتا كلارا ، لكن استيلا ساذجة ويمكن لأي شخص أن يخدعها. إنها لا تعرف كيف تدافع عن نفسها. كيف لي أن أهدأ وأنا أعلم أنها بعيدة ووحيدة؟

- أنا هناك يا عمتي وأعرف هافانا من أولها لآخرها ، أعرف ما هو حسن وما هو سيئ. بالإضافة إلى ذلك فإن السيدة التي أريد أن تعمل استيلا عندها هي أطيب وأنبل سيدة في العالم. إنها امرأة وحيدة. ليس هناك رجال.

- إن بإمكان أي شخص أن يخدع استيلا ، وهي قد فشلت في حياتها الزوجية. لم تكن لها تجارب أخرى لأنني كنت دائماً أساندها.

- إن هذه المرأة طيبة لدرجة أنها عندما كلمتها فى أن تعمل استيلا عندها وافقت دون أن تعرف من هى ، وقد ظلت شهرا دون أن يعمل عندها أحد انتظارا لاستيلا . ماذا أقول لها عندما أقابلها؟ يجب أن أرد عليها . بالإضافة إلى ذلك -أكرر- فإننى هناك يا عمتى وسأحافظ على استيلا كأخت . أليست ابنة عمتى؟

- لا تندفعى يا إليا . لقد تربيت أنت بطريقة مختلفة . لك طريقتك الخاصة فى التفكير ، ودائما كنت بعيدة عن أسرتك . منذ كم سنة وأنت تعيشين فى هافانا وحيدة ؟ استيلا شئ آخر . استيلا ساذجة .

- دعى هذه البنت تتقدم يا عمتى . إنهم هنا يقتلوننا . إنها شابة ، والمرتب خمسة وأربعون بيسو صافية ، دون مشقة تقريبا . هذا العرض لا يرفضه أحد حتى لو كان مجنوننا ، فما بالكم أنتم والوضع الذى أنتم عليه؟

- لا ، فأنا أيضا أكاد أكون عمياء . ثم كيف ستركنى ؟ وإذا وصلت الحرب إلى هذه المدينة ، ماذا سأفعل للأولاد ؟

فى تلك اللحظة جاءت كارمن تريسا وهى تبكى بدموع حارة . جلست على كرسي وهى لا تقوى على الحديث .

- ماذا حدث يا امرأة؟

- لقد شاهدوا زوجى مع امرأة شقراء . آه ، أريد أن أموت

- أهلا ، هل هذا بيت القابلة؟

ردت أخواتى

- لا يا سيدتى . جدتى ليست قابلة . ادخلى واجلسى فستأتى
هى حالا .

قالت جدتى :

- بعد لحظة سيبدأ المطر

ثم ذهبت لتجلس . ذهبت وأخوتى إلى الحجرة الأخرى .

- آه نعم . لهذا فأنا خجولة . لقد أتيت لأن صديقة لى قالت
إنك ماهرة وأنا أشكو من الحصوة . منذ أربع سنوات وأنا لا أشعر
بطعم الحياة .

- العلاج هو سمك المرجان المسلوق ، ولا تأكلي بيضا ولا لحم
خنزير ولا حمص ولا شيكولاتة ولا أى أكلة دسمة . إذا كانت هناك
حصوة فى الكلية -رغم أننى لا أعتقد ذلك- فتناولى شطة واشربى
كل يوم قبل الإفطار كوب ماء ساخن .

- هل أتناول ذلك مع السمك المسلوق وأشرب كوب ماء ساخن؟
مع أننى اشتهى الحمص ، لكن إذا كان ذلك فى مصلحتى فلا بأس .
هل يجب أن أنذر شيئا أو أوقد شموعا للقديسين ؟ إن قديسى هو
خوان بوسكو .

- هذا يساعد دائما ، بل فى بعض الأحيان يكون أهم من العلاج.

- شكرا يا سيدتى . أين وضعت الشمسية ؟ أنا أعلم أنك لا تتقاضين أجرا ، هكذا قالت صديقتى ، لكننى أحضرت -لا تعترضى- شيئا كهدية أرجو أن تقبلها .

- حسنا يا ابنتى ما دامت هدية . أشكرك .

- والآن اسمحى لى بالانصراف قبل أن يشتد المطر . علىّ أن أذهب إلى بيت أختى ، فزوجها مريض . جزاك الله خيرا يا سيدتى . البتان مؤدبتان ، وتشبه كل منهما الأخرى .

وصلت أمى فجأة . فتحت الباب على مصراعيه ووقفت أمامه بلا حراك . كانت عيناها تلمعان لدرجة أن البيت امتلأ بالنور . إنها تنظر إلىّ هكذا وفى يديها لفافة . قالت :

- انظر ماذا أحضرت لك !

كنا جميعا لا ننظر إلى اللفافة ، بل إلى أمى وهى جميلة عندما تبسم .

كانت جميلة وهى تمد يديها باللفافة نحوى ، فجريت ومعى أخواتى والدجاجة الملونة ناحية أمى . ابتعدت ، انطلقت تعدو بعيدا وهى ترفع اللفافة وتضحك وتقول :

- لا ، لا . إنها للطفل وأريد أن يفتحها هو . لا تتخيل ماذا أحضرت لك . ماذا سيحدث عندما ترى ما بداخلها؟!!

أصبحت اللفافة الآن فى يدى . أخواتى يستعجلننى . تذهب
أمى عند الشباك وتضع ذراعها على الإطار . من هناك تراقبنى وهى
تبسم . لم يحدث أن استمرت ابتسامتها كل هذا الوقت ، ولم أر أمى
قبل ذلك بلا حركة عند النافذة . فى النهاية رأيت الحذاء المكسيكى .

سألتنى أمى وهى ترفعنى بين ذراعيها وتكاد ترقص :

- هل يعجبك؟ هل يعجبك؟ ألا يعجبك كثيرا؟ ياله من حذاء
جميل ويالحظك السعيد !

وضعتنى على الأرض ثم قالت :

- جرب الحذاء . جربه .

لبست الحذاء . كان مرصعا بالنجوم وبالرسوم البيضاء ، وكان
صوت الكعب يدق . كنت أبدو كرجل وأنا أمشى فى البيت أو عندما
أقف أمام المرأة . كانت أخواتى ينظرن إلىّ من خلفى . قالت أمى :

- كنت أعرف أنه مقاسك . قلبى حدس ذلك . والآن عندما
أشترى لك القميص الأصفر ستكون رجلا تماما .

قالت أخواتى :

- أعرنا الحذاء .

ردت أمى :

- لا يا سيدتى ، إياك أن تطلبى هذا الطلب . إنه حذاؤه ، ثم
إنكما بأقدامكما العريضة ستوسعانه . اخلع الحذاء الآن لكى أريه

لجدتك . هذا الحذاء ترتديه فى المساء وفى أيام الأحد . لا يجب أن تجرى وأنت تلبس هذا الحذاء الجميل .

قالت جدتى وهى تقلب الحذاء بين يديها :

- إن الحذاء يكاد يكون جديدا .

صاحت الدجاجة الملونة من فرط الإعجاب .

قالت أمى :

- هل رأيت يا أمى كم هى طيبة هذه السيدة؟

- صمتا

- لا تذهب إلى بيت السيدة انريكيثا وأنت تلبس هذا الحذاء .

دخلت السيدة كارمن تريسا وهى تطلق آهات الحسرة . سألتها أمى :

- ماذا بك يا امرأة ؟

- وجدت فى جيب سترة زوجى خطابا من حبيبته . أريد أن أموت .

- لا تكونى حمقاء . اهدئى وتناولى الينسون معنا . اهدئى

وضعت الحذاء فى لفافة وحفظته فى أسفل الصندوق . قالت أمى لجدتى :

- كنت أفكر فى أمر الذهاب إلى هافانا الذى حدثك عنه إليا . أريد أن أرد عليها قبل أن تسافر . المرتب خمسة وأربعون بيسو ، وهناك سيكون لدى وقت للتطريز وللقيام بأعمال أخرى .

- أول للبحث عن زوج
- أمى ! خذى الينسون يا كارمن ولا تبك . أنا لا أدري ما هى فكرتك عنى .
- لماذا يفعل ليوبولدو بى ذلك ، مع أننى أحسن معاملته ومعاملة أسرته ؟ ماذا أفعل ؟ هل أتركه ؟
- عليك أن تكونى ابنة بارة ولا تفكرى فى الرحيل عنى
- لن يحدث لك شئ . حتى الآن لم يحدث لك شئ . أنا لا أريد المال لكى أشتري كماليات . منذ أن بدأت العمل لم أشتري لنفسى مجرد دبوس .
- صحتى لا تتحمل رعاية الأولاد .
- أنت تعرفين أن الأولاد هادئون .
- ما رأيك فى أن أذهب وأفصح حبيبة زوجى ؟ هل ستركنى ليوبولدو أم ستركها هى ؟ ما رأيك ؟
- عجيبة هذه الحياة ! رغم كل ما فعلت تريد ابنتى الآن أن تتركنى مع صبية يتبولون على أنفسهم . لقد كنت أنا وفيليكس نضحى . كم كافحنا ! ، والآن لا أحد يتذكر .
- قالت كارمن تريسا :
- لا تبك يا أديلا إلفيرا . فكرى فى أن استيلا محقة فيما تفعل وفيما تقول لأنها تحبك . من الذى ينكر فضلك ؟!

- ديوننا فى المحل لا نعرف حجمها ، حتى أننى أخجل من مجرد المرور أمام المحل ، خاصة وأن الرجل وقح جدا. أما الإيجار فعلىنا قيمة شهرين وعلى أقساط ، ثم إن أعياد الميلاد على الأبواب. منذ متى وأنا أعد الأولاد بأن هذا العام سنشتري لهم لعبا ؟ هل تظنين أن خمسة عشر بيسو تكفى ؟

- سأذهب إلى بيت أمى. عندما يأتى ليوبولدو فليأت إلى هناك وليشرح كل شئ أمام أبى. هذا ما سأفعله يا استيلا. شكرا على نصيحتك

- أنت لا تفهمين يا أمى ، ودائما تسيئين الظن بى. هذا ما كان يجب أن أفعله أولا ، أن أبحث عن زوج صالح يقوم برعايتى ورعاية أولادى.

- دعيها تسافر يا أديلا إلفيرا ، فربما استطاعت أن تحصل على مسكن تعيشون فيه كلكم.

- رجل صالح ! لم يكن هناك سوى رجل صالح واحد فى الدنيا. والآن قولى إنك لست جاحدة وأنت تتركينى. لا ، على أن أصبح مية أولا قبل أن تسيرى دون قيود. هذا بدلا من حب والدتك واحترامها.

- أمى ، لندع الحديث عن ذلك. أنت دائما أحبيت دجاجتك الملونة أكثر مما أحبيتنى أنا والأولاد.

قالت امرأة :

- هل هذا بيت القابلة ؟

ردت أمى :

- نعم هنا . ادخلى واجلسى . انظرى ها هى تقف هناك .

بمجرد أن اشترت لى أمى قميصا أصفر لم أعد مجرد عضو فى فرقة الحى ، بل تحولت إلى أهم شخص ، لا فى الحى فقط بل فى الدولة كلها . ظل الأولاد الآخرون بنفس قلة الأدب يقذفون الطوب فى الشارع . كانوا يلعبون لعبة "الهنود والطيبون" أو "ردريجو والأشرار" أو كانوا يذهبون إلى آخر الشارع لمعرفة ماركة السيارات التى كانت تسير بعيدا . كنا نذهب إلى النهر بدون إذن لنستحم ، وكنا ندخل الحظائر للحصول على المانجو والجوافة .

لكن عندما اشترت لى أمى القميص الأصفر لم أعد كذلك . جاءت أمى من العمل متعبة وألقت بنفسها بكل قوتها على مقعد . كانت ستظل نائمة فى نفس المكان لولا أن أخواتى أيقظنها بفنجان قهوة ساخن وضعنه فى يدها . رأتنى أمى وأدخلت يدها فى حقيبتها وأعطتنى لفافة . قالت " هذا قميص لك " ، كما لو كان الأمر يتعلق بقميص عادى ، لكننى أدركت لحظتها أنه كان القميص الأصفر ، لأن ورق الهدايا الذى لف به القميص كان مرسوما عليه نجوم ملونة . ذهبت إلى الحجرة الأخرى ووضعت القميص أمامى وأنا أمسكه من الأكتاف . نظرت ونظرت وأحبيته . نهضت أمى من على الأريكة

وأسرعت إلى الحجرة وخلعت عنى ملابسى وألبستنى القميص الأصفر. مشطت لى شعرى فى لحظة. ارتدت جونلتها الحمراء الواسعة والحذاء ذى الكعب العالى ووضعت زهورا فى شعرها وأمسكت بيدي وذهبنا سويا إلى المحل لنسأل عن شئ غير موجود. شعرت أننى أختنق ، فبمجرد أن ظهرت فى الشارع أدار الناس وجوههم إلى. التصقت بزهرة حمراء اللون لكى يبرز لون قميصى الأصفر بجوار حمرتها ، وسرت وصدري منتفخ وحذائى المكسيكى يدق الأرض ويدي ممسكة بيد أمى. سألت إحدى الجارات: "استيلا ، هل سترقصين كالمرّة السابقة؟". قالت أخرى "ابنك جميل فى هذا القميص الجديد". وقال صاحب الخانة "استيلا ، متى سأتمكن من الحديث معك لحظة ؟ لدى شئ هام أقوله لك". ظل الناس ينظرون إلى ، وكانوا إذا انحنيت لأخذ زهرة يقولون "هذا لكى يضعها فى شعر أمه". كانوا يعطوننى أوراقا ملونة لكى ألقياها لأمى إذا رقصت. كانوا يقولون أيضا "له أختان جميلتان". توافد الناس على المحل وكانوا ينظرون إلينا. كان الجميع يترقب لحظة أن تبدأ أمى فى الرقص أو يتوقع أن نفعل شيئا مختلفا.

كل ذلك حدث بسبب قميصى الأصفر ، ولم يفتن أحد إلى ذلك حيثئذ ، ويبدو أن قميصى الأصفر كان سببا أيضا فى بدء حفلات السيرك. فى أحد أيام الأحد كانت جدتى صامئة على غير عادتها. كانت تتحس دجاجتها الملونة ، وكانت أمى جالسة بجوار النافذة تنظر الى الخارج ، ولم تستطع حينذاك أن تكمل غرزة واحدة

فى التطررز . كانت جءتى وأمى لا تتكلمان ، وكنء أءءل وأءرء من الءجرة ءءى جلسء فى النءاءة فى أءء الأركان ولفنى الصمء كما لفنهن . ءئنءء ءءكرء النءلاء فى بئى الرىفى وفكرء " ماذا ففعلن الآن ؟ وماذا ففعل الآن المءق الصغفر الذى كان فؤءى إلى ءىء البئر ؟ ماذا ءءء للأعشاب ولشءجىراء الءروع ؟ كم أصبح ءولها الآن ؟ " . وىءأ ففصل إلى مسامعى ذلك الصوء الذى كانت ءءءه الرىاء عئءما كانت ءصءءم بأوراقها ، والضوء الذى كان فى الءءىقة . وعئءما أفقت فى الءجرة - وكنء أفكر فى السءابة الءمراء وفى صءب الفراءشاءءى ءىء كانت ءطارءنى عئءما كنء أعءو والزهور فى فءى- ارءءىء قمىصى الأصفر ءون أن أنءبه وعءء، إلى الصالة . فى ءلك اللءظة صاءء أمى وءءتى فى صوء واءء وءالءا :

- لءء مرّ عام الآن . من ففصءق ؟!

ءهبا لشرء الماء واصءءم الكوبان عئءما أراءء كل منهما وضع كوبها فى الزفر . بعء ذلك جلسءا وظلءا ءفكران أكثر من ذى قبل ءءى سألء أمى وهى ءءءق النظر :

- أمى ، كىف كانت الءءعة ءىء كان هو ففعملها لكى ففءرء أوراق الكوءشئنة من أذن شءص ؟ ألم فقل لك ؟

ابءسمء جءتى .

- وماذا عن الءءعة الأءرى ءىء كان ففءمن بها اللون الذى ففكر ففه شءص ما أو ورقة الكوءشئنة ءىء فعئفها ؟ هل ءءكرفن

البيض الذى كان يوقفه على طرفه؟ أو ذلك الكيس الأسود الذى كان يخرج منه مناديل ومناديل إلى ما لا نهاية؟ أين ذلك الكيس والكوتشينة؟ لا بد أنهم هنا. أتخيل كما لو أنني أراه يعمل عقدة فى الحبل ثم يفك العقدة بنفخة. هل تتذكرين ذلك ، والكرات التى كانت تختفى من أمام ناظريك؟

- إننى أحتفظ بكل ذلك.

- صحيح؟

قالت لى أمى:

- لماذا لا تبحث عن هذه الأشياء. لا بد أن نجربها ذات ليلة. هذه الأشياء كانت تسلى حقيقة، ونحن ، متى سعدنا؟ يمكن أن نبيع عصير ليمون وموز. ألا تفعل ذلك يا بنى؟

وهكذا بدأنا حفلات السيرك وتحولت أنا من شخص مهم فى الحى إلى شخص مهم جدا. بدأ الناس يلقّبوننى بـ "الفنان" أو "ابن المرأة التى ترقص" أو "مروض الأسود". عندما كانت النساء ترانى أسير كن ينادين أولادهن ويشرنّ إلى:

- انظروا انظروا ، هذا هو مهرج المساء ، الساحر الذى هجم على الأسد. هل هناك حفلة هذه الليلة. يجب أن تكون هناك حفلة.

طبعاً ، فقد كنت أرتدى القميص الأصفر . بدون القميص الأصفر لا أحد يحفل بى . لا يقولون إننى الفنان ، ولم أكن أجيد لعب السيرك بدون القميص الأصفر . أما وأنا أرتديه فكان صدرى يمتلئ رغماً عني ، وكان الجميع يعرف أن أنا هو أنا . لقد استهلكت أمى بكرة خيط كاملة لكى تضع عرواى جديدة للقميص .

كانت النسوة يطبخن مبكراً لكى يفزن بالمقاعد الأولى ، ولم يكن الرجال يمشون فى المقهى طويلاً ، وكان الأطفال يسارعون بالاستحمام إذا ما دعوا من أول مرة . فى الساعة السابعة يبقى الجميع على أهبة الاستعداد مرتدين أفضل الثياب وشعره ممشط ، بحيث أننا عندما كنا نفتح باب الفناء كان الناس يدخلون بمنتهى السرعة ، وبعد لحظة لا يكون هناك مكان شاغر فى السيرك إلا كرسى الجدة المحجوز لها . لهذا ، بعد أسبوعين من بدء السيرك ، قالت أمى إنها تعود من العمل مرهقة وإنها ليست طفلاً لكى تلعب وتمثل كل ليلة . انتظرت النساء ثلاثة أيام ، وبعدها جمعن عجائز الحى وأجبرنهن على الذهاب إلى أمى وهن يحملن الهدايا لكى يتحدثن معها . قالت النسوة العجائز لأمى إن السيرك لا بد أن يستمر ، فالأطفال الصغار الآن لا يريدون النوم ، والرجال قد فقدوا شهيتهم للطعام ، والمرضى ساءت صحتهم ، والسيدة فيلاميدا المسكينة لم تعد تفكر إلا فى ابنها الثائر ، وهن أنفسهن ، وقد أرهقت أعصابهن أنباء الحرب ، لا يجدن شيئاً يتسلين به فعدن إلى التفكير فى مشكلة كل شهر . تفضلى هذه الهدايا وحلة الأرز هذه . لم تجب أمى ، لكنها بحثت عن قميصى الأصفر

أمامهن ووضعتة فى طبق الغسيل . فى ذلك اليوم جففته بالمكواة ،
وفى الليل استأنفنا حفلات السيرك .

كانت حفلة السيرك هكذا :

يفتح الستار وأظهر أنا بقميصى الأصفر وشارب أسود وأنا
أبتسم . أخواتى يطبلن على علب صفيح فارغة ، والناس يصفقون
ويطلقون نيرانا صناعية ويصيحون ويلقون بالأزهار فى منتصف
الحلقة . كان الجو يضاء وأظل أنا طوال الوقت أبتسم وأنتظر أن يهدأ
الجمهور ويجلس .

أنا (بالشارب ، فى نفس الوقت الذى تنطفئ فيه النيران
الصناعية) : والآن ، سيداتى بلا سادتى ، أعظم سيرك على مرّ
العصووور يبدأ حفلاته الليلة . لا تدعوا الفرصة تفووووت ، فهذه
آخر حفلة فى هذا الحى ولن تكون لديكم فرصة لكى تروا حفلة
مشابهة . إذا لم تستطع الحضور اليوووم تعال غدا . ادخلوا يا
سادتى ، وشاهدوا المرأة التى ترقص ، الأسد الذى يزأر ، لاعبى
أكروبات فى الحلبة ، بهلوانات ، راقصات ، حيوانات ، آلاف
المغريات . ادخلوووا ، هيااااا .

إنها سخافات من عندى ، لأن كل الحى قد دخل بالفعل . تطفأ
الأنوار وتضاء . يسدل الستار ثم يرفع ، وأظهر أنا مرة أخرى كما لو
كنت شخصا آخر وأقوم بتقديم الفقرة الأولى .

أنا: (كما لو كنت شخصا آخر) والآن أقدم لحضراتكم أعظم راقصة فى العالم... أمى

تُطفأ الأنوار ويتهاشم الجمهور. فجأة تطبل أخواتى على علب الصفيح وتضاء الحلبة وتصل الراقصة شامخة وشاحبة. تسلط الأضواء على أمى بحذائها الأخضر وقبعتها الواسعة وردائها القرمزى. تدوى القاعة بالتصفيق عندما يراها الجمهور. تتقدم هى حتى مركز الدائرة. تتساقط الزهور من شعرها. ترفع جبهتها. يرى جسمها وهى تمر. يقف الجمهور ويصفق ويصيح بأعلى صوته.

الجمهور: إيسيسه إيسيسه

يجب أن أخرج أنا بقميصى الأصفر وأن أخاطب الجميع بكلمة "جمهورنا المحترم". يجب أن أقول لهم إننا ننتظر منهم تصرفا لائقا حتى تتمكن الراقصة -التي ستسافر هذه الليلة إلى إسبانيا - من تقديم فنها المتميز.

الجمهور: كفى كلاما. فلترقص الراقصة ، لترقص أو أعيدوا لنا نصف قيمة التذكرة.

تبدأ أمى فى الرقص. تدق الأرض بقدميها وتلف الرداء على كتفها بمهارة. الجمهور لا يقاوم. ألقى أنا بأوراق شجر الخروع فى أرجاء الحلبة. تقفز أمى فوق بعض الأوراق فتمزقها. تتناول الدف وتترك الرداء يسقط من على كتفها. الجمهور لا يقاوم ، ويصاحب خطوات أمى بالتصفيق. حينئذ ترقص بكل حماس فتساقط أوراق الكوتشينة من أكمامها ، وتخرج من صدرها حمامة تطير.

فى النهاىة تنسحب شىئا فشىئا وسط تصفيق الجمهور وهى ترسل القبلات وتقول وداعا. التصفيق يستمر فيتعين عليها أن تخرج مرة أخرى وترقص قليلا وتلقى بزهور شعرها إلى الجمهور وتدق الأرض بقدمها وتخاطب الجمهور قائلة "جمهورى العزيز".

بينما تعد كارولا - مصففة الشعر - أمى للفقرة التالية أخرج أنا إلى الجمهور ، وأخواتى يعزفن الموسيقى ويضئن الأنوار ويطفئنها. أقوم أنا ببعض الحركات البهلوانية حتى تظهر أمى وقد غيرت ملابسها وتسريحتها. نحى الجمهور فى جميع الاتجاهات ونبدأ فقرة الأكروبات. من قفزة واحدة أقع على كتف أمى (تصفيق). أقف على كتفها (تصفيق) وأبدأ الرقص. هى تجرى (صياحات وتصفيق). سرعتها تتزايد. تتوقف فجأة وتعود إلى الجرى وأنا فوق رأسها مرتكزا على قدم واحدة. أحيى الجمهور الذى يظل صامتا يدعو الله لى فى سره. فجأة أرتفع وأدور دورة فى الهواء بقميصى الأصفر وأسقط -سليما معافى- فى وسط الحلبة (تصفيق وضحكات ، ويلقى إلى بالأوراق وأوراق الشجر وعلب السجائر الفارغة. أضواء وموسيقى)

بعد هذا الفاصل تأتى لحظة الغناء. المطربة هى أمى. تلتف بملاءة ملونة ، وتسريحة شعرها وقورة. تقف خلف نوافذ جميلة تنتظر الرجل الذى تحبه وهى تدخن. الرجل الذى تحبه لم يتأخر كثيرا. ظهر بشارب وقبعة وسلسلة فى يده. كنت ألف السلسلة

وَألفها كما لو كنت زوج ماريا تريسا . أمى وأنا مخطوبان ، لكننى
غيور وأثير الغيرة . أنظر إلى النساء التى تمرّ . أمى تعانى ولا تدرى
ماذا تفعل لاستعادتنى . إنها لا تستطيع الحياة بدونى وتغنى ملتاعة .
يتأثر الجمهور فى الحال ، وعندما تطلب منهم أن يشاركوها فى الغناء
- لعلّى ألين - يستجيبون لها .

الجمهور: (إلى بنظرات مستجدية وهو يغنى) أحبها كثيرا يا حبها
الجميل . كن لها محبا وهى ستحبك .

لكن أبدا . أنا لا ألين ، وأمى على وشك البكاء بينما تطلب من
الناس بيديها أن يغنّوا بصوت مرتفع ، بإحساس .

الجمهور: (إلى بصوت مرتفع وبإحساس) عندما يحب الإنسان
حقيقة - كما تحبك هى - من المستحيل أن يعيش بعيدا عن حبيبته .

عندما يرى الناس التعالى الذى أعامل به أمى ، الناس الذين
يعرفون تفاصيل حياتها داخل وخارج السيرك - غدا سيقطعون عنّا
التيار الكهربائى إذا لم نكمل المبلغ من حفلة اليوم - فإنهم لا يفهمون
كيف تستطيع هى تحمّل كل هذه الآلام . تقول لهم أمى " لأن
الأحزان كثيرة ، فعندما يريد حزن ما أن يخنقنى فإنه يصطدم بحزن
آخر وتتصارع الأحزان وأنجو أنا " .

تنتهى الأغنيات عندما نكون جميعا قد بحث أصواتنا ، وبينما
تتولى كارولا تجهيزى ترقص أمى وتبيع عصير الليمون . تعود ، وقد

تصببت عرقا ، لكى تستعد مرة أخرى . تقول لها الخياطة " آه يا استيلا ، أريد أن أحبك بنفس المهارة التى ترقصين بها . لا أدري كيف تستطيعين الرقص هكذا " . ترد أمى وهى تريها بعض الحركات " ذلك لأن الرقص يعجبني جدا يا كارولا . لست متزوجة ، ولذلك أرقص وحدى مع الطفل برقة ، برقة " .

نخرج مرة أخرى (تصفيق وتصفيق) . أضع منضدة فوق منضدة ، وعيناي معصوبتان (الجمهور: آه ، يمكن أن يقع الطفل ، يمكن أن يقع . فلينزله من هناك) . أبدأ فى الرقص وأنا فوق ، أكاد ألتصق بالسقف . (الجمهور: يا أبانا الذى فى السماء تقدست) . فجأة تطفأ الأنوار وتنهار المناضد وتحدث ضوضاء . (الناس: أضيئوا المكان بالله عليكم ، ألا تسمعون ما يحدث؟) تضاء الأنوار ونظهر أنا وأمى على كرسى والدم يسيل منا . يحدث صمت مطبق . الناس وقوف لا يتنفسون ، بعضهم يختنق . وفجأة:

أنا وأمى : آه ، آه يا طفلى الجميل ، غنّ ولا تبك .

أقول " هيا ، هيا " ونبدأ فى الغناء والرقص ونحن نصفق .

بعد ذلك يأتى المهرجون: أمى تمثل دور ترمبولكو ، وأمثل أنا دور ثاباتيكو . أو تمثل أمى دور كاتشوتشا وأمثل أنا دور رامون . الناس يعجبها البهلوانات والساحر الذى يأتى بعد ذلك ويخرج الحمام من التمثال ويخرج البيض من جيبه ومن جيبى ، ويتنبأ بالألوان التى

تفكر فيها جدتى وأخواتى ، هذا غير الأعاجيب التى يفعلها باستخدام أوراق الكوتشينة . لعبة واحدة فقط هى التى لا يجيدها وهى نفخ العقد فى الحبل ، وتسقط الزهور من قبعته . بعد أن تنتهى الفقرة تقوم أخواتى وكارولا بمساعدة أمى فى تغيير ملابسها . مقطوعة موسيقية تسلى الجمهور ، العزف جيد لدرجة أن أخواتى ينظرن ويعدن مبتهجات :

- أمى ، من هم هؤلاء المطربون؟ إننا نراهم مجاملين ونريد أن نتعرف عليهم .

- هل أنتن حمقاوات ؟ إنه أخوكما وهو متنكر ، ومعه أولاد الشارع .

يأتى الآن أكثر ما يعجب الجمهور . تطفأ الأنوار لفترة طويلة ، وعندما يضاء المكان يظهر الأسد . الأسد أشقر وقوى . رأسه فيها أزهار حمراء وصفراء . الأسد له ثلاثة أرجل قوية ، أما الرابعة فهى رجل أمى بحدائنها الأخضر . يبدو الأسد عابسا فوق صندوق ، وأنا على الأرض فاقد الوعي لأتنى مررت وأنا سكران غير متبه فترحلت على قشرة موز . الآن أنا نائم تماما فاقد الوعي فى وسط الحلبة .

الجمهور : استيقظ ، استيقظ . سيأكلك الأسد ، سيأكلك . ألا ترى أن الأسد سيأكلك؟

أنا لا أستيقظ ، بل أصدر شخيرا عاليا . إننى نائم تماما . لذلك
فإن السكر شئ سيئ جدا .

الجمهور: أيها الأسد اخرج ، اخرج من هنا ، اخرج .
ينظر الأسد إليهم بكراهية ويتقدم وهو يتحسس بأنفه . إنه منذ
ثلاثة أيام لم يتناول طعاما .

الأسد: أممممم . كم كنت أتمنى أن أعثر على طفل نائم!
عندما يرانى يقول "أممممم . . . ماذا أرى! يالهذا القميص
الأصفر الجميل ! إذا لم تستيقظ سأأكلك " .

أنا (أستيقظ بهدوء وأنا أتشاءب): تأكل من ؟ تأكلنى ؟
ياحماقتك ! أنا لا يأكلنى أحد أيها النمر .

الأسد : صحيح ؟ سترى الآن ! قف عندك .

هذا بالضبط ما لا أفعله : الوقوف ، بل آخذ كرسيا وسوطا
وأدخل على الأسد وأنا أضربه لكى ألقنه درسا . لا يتعلم ، بل يزأر
ويظل يهددنى بأن يأكلنى حيا . الجمهور يطلب منى أن أضربه بشدة
وأنا أستجيب والأسد يزأر . فى إحدى الضربات يأخذ منى السوط
ويرتمى فوقى بقميصى الأصفر ونتقلب فى الحلبة . الناس يصيحون
ويكاد يغمى عليهم من الفزع .

الأسد: طعمه لذيذ. ألا أجد ملحاً عند أحد منكم؟

موسيقى وأضواء تطفأ وتضاء ، ويبدأ الدم يسيل منى. عندما يرى الجمهور هذا المنظر يتوقف عن الصياح وينطلق إلى الحلبة. يسحبون الأسد من ذيله ومن شعر رأسه ويحاصرونه وهم متحفزون. لا يقتلونه لأننى أصرخ. جدتى وأخواتى وكارولا يقولون اتركوا الأسد ، اتركوه، إنها أمى متكرة ، والولد لم يحدث له شئ، لم يجرح. أمى تنزع عنها أدوات التنكر وهى مرعوبة شيئاً ما. يصبح شعرها أسوداً مرة أخرى. تقول " أنا ، أنا " يهدأ الناس ، ويستغل أخواتى الفرصة ليطلبن من الناس ألا يناموا قبل أن يشتروا منهم الحلوى وعصير الليمون. هناك من يشتري ثلاثة أكواب من العصير. على أية حال يظل الناس ينظرون شزراً الى أمى ، ويتعين عليها أن تقول لهم اسمها واسمى واسم القرية وما هو حاصل ضرب اثنين فى اثنين. هكذا فقط يعود الناس إلى أماكنهم ويشترون مزيداً من عصير الليمون.

بعد ذلك يحين موعد الفقرة الاستثنائية. ذات مرة كانت الفقرة الاستثنائية هى فقرة الدجاجة الملونة. أعددنا لها عشا فى وسط الحلبة على منصة وأطفأنا الأنوار ولم نترك سوى لمبة واحدة. جلسنا فى صمت. أطلت الدجاجة الملونة برأسها على استحياء. نظرت فى جميع الاتجاهات ، وعندما اعتقدت أنها بمفردها صعدت على المنصة. جلست على العش ووضعت بيضة كبيرة بصفارين استقرت على

طرفها. عندئذ أضيئت الأنوار وبدأ الناس يصفقون بحرارة ، بشكل لم يحدث من قبل. انزعجت الدجاجة الملونة وجرت لتختبئ خلف الستائر. لكن التصفيق كان حاراً ومستمراً للدرجة أنها شيئاً فشيئاً أطلت برأسها وهي تشك أن كل هذا التصفيق لها هي. لكن التصفيق كان لها هي بالفعل ، فاحمرّ وجهها ونظرت إلى جدتي وهي مرتبكة تصطدم إحدى رجليها بالأخرى. خرجت من مخبأها وسارت حتى منتصف الحلبة حيث حياها الجمهور وحيّاها وهي تنصرف. لم يكن الجمهور يرغب في أن تنصرف الدجاجة أبداً ، فتصاعدت حدة التصفيق ثم جاءت الهتافات بعد ذلك. كانت الدجاجة مرتبكة تماماً فتوقفت. لم تكن تعرف ماذا تفعل ، كانت تنظر في كل الاتجاهات. كان كل الناس واقفين يحدّقون فيها بأبصارهم وهم يصفقون لها. حتى جدتي ! فجأة - كما لو كان ممثلة قديرة - صعدت بثقة إلى العرش ووضعت بيضة استقرت فوق البيضة الأولى. التصفيق المدوي الذي حدث بعد ذلك لم تكن الدجاجة تتوقعه. لهذا كانت ترتجف ، وكان العرق يتساقط من جبهتها. صعدت فوق البيضة العليا ونظرت إلى الجمهور والدموع في عينيها. أفردت جناحيها ورفعت إحدى رجليها. أخواتي أحضرن محلولا طيبا يستعمله الناس بعد انتهائهم من التصفيق وبودرة تلك لنفس الغرض.

حينئذ أعلنّا عن انتهاء الفقرة. خرجنا - كل الفنانين - إلى الحلبة وقدمنا أغنية الوداع وأعلنّا عن حفل الغد الذي يتضمن فقرات مختلفة عن فقرات اليوم. انصرف الناس مسرورين وهم يتحادثون. بعضهم

بقى لكى يلتقط أوراقا ملونة أو منديل الساحر أو زهرة أو أى شئ آخر كتذكارة . عندما انصرف الجميع انصرفنا نحن أيضا ، وفى البيت -بينما كانت أخواتى يدلكن لأمى ذراعيها ورجليها- كانت جدتى تحصى النقود ، حصيلة بيع المشروبات ، وكانت تتساءل هل تكفى لدفع نذرها للقديسة لوثيا أم أنها ستفقد بصرها تماما . بعد ذلك نمنا بقية الليل .

أيقظنا الجيران مبكرا لكى يقدموا لنا التهانى . فى البداية لم تكن حفلات السيرك تقدم كل ليلة ، وكنا نقدم الحفلات فى بيتنا . بعد ذلك كنا نقدم الحفلات كل يوم وفى الشارع أو فى أحياء أخرى ، فقد كانت هناك شائعات عن اقتراب الحرب ، وكانت المتعة الوحيدة أمام الناس هى رؤيتنا ونحن نرقص ونغنى . ولهذا عندما أخرج إلى الشارع بقميصى الأصفر يصيح الناس من خلفى ويتشاجرون لكى يتمكن كل منهم من رؤيتى . إنه القميص الذى يعجبني أكثر .

- أديلا إلفيرا ، أديلا إلفيرا ، تعالى بسرعة . استيلا تبكى فى بيت الضابط ويريدون أن يودعوها السجن ، فقد سرق منهم مبلغ .

ردت جدتى ومارييل وكارمن تريسا وفيلا :

- ماذا تقولين يا امرأة ؟ هل جنت ؟

انخرطت أخواتى فى البكاء .

- نعم ، نعم . إن السيدة انريكيثا تتهمها .

أسرعنا إلى بيت الضابط لكى نرى ماذا يحدث لأمى . كانت جدتى تتقدمنا ولم تصطدم بشئ .

قالت السيدة انريكيثا لأمى التى كانت تبكى وهى جالسة على كرسى وتخفى رأسها بيديها :

- أنت سارقة . وضعت أمس بيسو فوق الدولاب وأنت أخذته . لم يختلف البيسو من تلقاء نفسه . أنت سارقة ، وكل الفقراء الجوعى متساوون فى ذلك .

وصلت جدتى وقالت :

- ما هذا "الهاب" الذى يحدث هنا لابنتى ؟

- اسمعى أيتها السيدة ، فى بيتى هذا وأمام أولادى لا تستطيعين التفوه بكلمات غير مهذبة . انصرفى ، اخرجى من هنا .

- هذا " هباب " .
- آه .
- انصرفى من هنا واذهبى إلى المنزل!
- لا تستطيع أن تنصرف من هنا .
- قلت لك اذهبى إلى المنزل .
- عندما يأتى زوجى
- قال أحد أبناء السيدة انريكيتا وهو يشير إلى:
- انظرى . إنه يلبس حذائى المكسيكى
- وقد سرقتِ الحذاء المكسيكى أيضا!
- قالت لى جدتى:
- اخلع الحذاء وألقه على رأسها
- استدارت جدتى وانصرفنا جميعا مع أمى وهى متحبة .
- عندما وصلنا إلى المنزل أعدت لنا فيلاميدا الينسون لكى تهدأ أعصابنا . قالت جدتى:
- لقد فعلتها
- قالت أمى وهى تبكى:
- أنا لم أسرق شيئا ، والحذاء كان فى علبة ستلقى فى القمامة .

- كيف دفعتِ نذر القديسة لوثيا؟

قالت ماريبييل:

- لو أنها سرقت فنعمت السرقة. إنهم يستغلونها.

قالت إليا:

- الآن بالفعل من الأفضل أن تسافر معي إلى هافانا.

- لماذا لا تنشقّ الأرض وتبتلعنا؟!

(٣)

متى ستدق الساعة؟ ماذا سيحدث لى الآن فى هافانا؟ يا رب!
لابد أن يحدث لى أمر طيب هذه المرة. هذه المرة لابد أن يحدث لى
أمر طيب لأول مرة فى حياتى. لا أدرى كم من الوقت مرّ علىّ وأنا
مستيقظة ، عصبية ، أنتظر أن تدق الساعة. الساعة ستدق فى
الخامسة ، وفى السادسة علىّ أن أكون فى المحطة لأستقل القطار إلى
هافانا. أسمع الآن صوت أسنان الطفل. لابد أن عنده تسوس. متى
سأصل إلى هافانا؟ وماذا تكون هافانا تلك؟ يا رب أجلس بجوار
الشباك حتى أرى المدن والقرى وأعرف الدنيا. يقولون إن المدة سبع
ساعات. إذن فالمسافة بعيدة. فى أعماق نفسى أرى ضوءاً صغيراً.
لدى إحساس خاص بأن شيئاً جميلاً ينتظرنى فى هافانا. لكن لا يجب
أن أفكر فى ذلك ، لأن الشخص إذا تخيل أن هذا الشيء الجميل
سيحدث فإنه لا يحدث أبداً. أنا مجربة ومتأكدة. لم يخطئ من يقول
إن خطط الفقراء مجرد أوهام. لن أفكر فى شئ. يا لهذا الحوار
الداخلي! لقد أذهب عنى النوم. إنه القلق بالتأكيد ، وأنا عصبية
جداً. لا يفارقنى الشعور بأن شيئاً ما سيحدث لى. ما هو؟ عموماً أنا
مسرورة لأننى سرقت البيسو من بيت السيدة إنريكيثا ولضرورة أن
أسافر إلى هافانا. ألم تتهمنى هى بسرقة علبة المربى؟ البيسو أخذته
فعلاً. يا رب أنت تعلم الخوف الذى شعرت به ، لأننى لست لصّة.
وماذا أفعل لو سُجنت؟ لكننى لم أفكر أبداً أنها ستتبه لذلك ، فهى
كثيرة المال وأنا محتاجة للمال لكى أدفع نذر القديسة لوثيا وإيصال

الكهرباء . كان اليبسو مهملا فوق الثلاجة لمدة أسبوع . إن الشراء بالتقسيط هو أسوأ شئ فى الدنيا . كان يجب أن أحكى لها عن قلة حياء الضابط لكى تعرف ممن تزوجت " هل تعرفين حضرتك لماذا يطلب منى كثيرا أن أحضر له القهوة فى المكتب؟ لكى يحاول أن يلمسنى ويستغلنى ، لأنه يعرف أننى لا أستطيع أن أعمل فضيحة وأخسر الوظيفة " . الناس الأغنياء على خطأ . إنهم يعتقدون أن الإنسان الفقير عليه أن يتحمل ويتحمل . أنا لا . فى كل مرة كنت أعد المائدة كان الضابط يلمس ركبتى أمام امرأته وأولاده ، لأننى لم أكن أستطيع الدفاع عن نفسى . لهذا انسكبت منى الشورية . خسارة أنها لم تحرقه . عموما ما حدث حدث ، والآن سأذهب إلى هافانا فى وظيفة جيدة . منذ أن حضرت إليا وقالت إن لديها وظيفة لى فى هافانا وأن الأمر هناك مختلف ظننت دائما أن هذه هى فرصة عمرى . بعد ذلك فقدت الأمل لأن أمى أصرت على عدم سفرى ، لكن ها أنت ترى : المكتوب مكتوب ، كما لو أن موضوع اليبسو حدث منى عن عمد . الآن يجب أن يحدث لى أمر طيب . إذا لم يحدث ذلك فسأموت دون أن أكون قد عشت . هناك أحيان أتمنى فيها أن يحدث إعصار أو فيضان أو شئ يقتلنا جميعا أنا والأولاد . أو أتمنى لو أنهم غير موجودين ، لا هم ولا أمى ، لو أننى وحيدة فى الدنيا بلا أقارب ، دون أحد أكون مشولة عنه . كنت سأتحرق وأفعل ما يروق لى دون أن يحاسبنى أحد . أنا لم يتركنى أحد أشعر بالسعادة . كنت سأحقق ذاتى . كنت سأسعد ، كنت سأشترى لى فستانا أو اثنتين . لم أكن سأقضى عمرى فى الكد وكسب لقمة العيش دون أن ألبس حتى قرطا صغيرا . أى ذنب ارتكبته أنا حتى يُكتب على أن أعيش هذه

الحياة وأن أعمل كخادمة دائماً؟ يا رب سامحني ، أنا مذنبه . اسمع ما أفكر فيه ، لكن تفهم لماذا أغضب أحياناً . مثلاً لماذا لا أجد زوجاً صالحاً كآية امرأة أخرى وأسعد معه؟ انظر مثلاً إلى ملابس إيليا نفسها ، هذا الفستان الذي أهدتني إياه ، كم هو جميل! لو أن الدنيا استدارت وفي يوم أصبحت أنا غنية وجاءت السيدة إنريكيثا تعمل خادمة في بيتي لأنها أفلست فلن أقصصَ منها ، لأن قلبي لا يطاوعني . أنا ساذجة بالفطرة ، لكن عندما تنظف البيت سأمرر قطعة القطن على أرضية البيت دون أن أقول شيئاً ، فقط لكي تتذكر . القميص الداخلى الجديد لم أنسه . وضعته في أحد أركان حقيبة الملابس . يجب أن أحافظ على هذه الحقيبة جيداً ، لأنها لو تمزقت لما استطعت دفع ثمنها . الخيط والإبرة والزراير لم أنسها . إذا لم يحدث لى شئ هام فى هافانا يغير حياتى فماذا أستطيع أن أنتظر لى وللأولاد فى المستقبل؟ لا شئ . سأمكث هناك سنة أعمل فيها لأن أمى عجوز فى الحقيقة ولا تستطيع أن تربي أولاداً مهما كانوا مؤدبين ، هذا أعرفه جيداً . تحدثت مع المدرس لكى يدخل ابنى المدرسة فى العام القادم . الإنسان لا يمكن أن يفعل أكثر من هذا . من المهم أن يتعلم ، فهو ولد ، أما البنات فسوف يتزوجن من رجال طيبين يحبونهن ، وأنا لن أتدخل فى شئونهن أبداً . سمعت حكايات عن أطباء وأطباء أسنان كانت أمهاتهم فقيرات لكنهن ضحين كثيراً وأولادهن اجتهدوا . وهم أطفال كبار كانوا يبيعون الصحف أو يعملون فى محلات فى الصباح ويذاكرون فى الليل ، وأصبحوا أطباء لديهم سيارات ومشهورين ، بل وعالجوا أمهاتهم من أمراض تستعصى على العلاج . الولد ذكى لكنه متبلد بعض الشيء ونحيف قليلاً . من يدرس يجب أن يأكل لأنه إذا

لم يأكل تلمع جدران مخه ويصبح مجنوناً. سأرسل له محلول اليود من هافانا ، ولا بد أن يتناول كل يوم صفار البيض حتى لو لم يعجبه طعمه. أمى لابد أن تتحسن صحتها. الساعة لا تدق ، لا تدق. ماذا إذا كانت الساعة تعطلت وفاتنى القطار؟ فيلاميدا تقول إن الساعة بحالة جيدة. معجون الأسنان وحافضة النقود وصورة العذراء ، كل هذا احتفظت به. بالكثرة الفئران هذه الليلة ! ، وأمى لا تحب الققط. آه لو تزوجنى رجل طيب يعولنى! آه أيتها الحمقاء ، لقد فكرت فى هذا الموضوع . إذن لن يحدث. كنت أعلم أنك ستقعين فى الفخ. لكن لن أفكر ثانية فى هذا الموضوع وربما يمنحنى الله هذه النعمة. يا رب يحدث ، يا رب. هكذا تنتهى مشاكلى. أحيانا أحب أن أعد طعاما لشخص ما ، أن أعتنى برجل ، أن أعد له ملابسه ، أتأبط ذراعه لكى يرانى الناس ومعى رجل فيحترمونى. كلما تقدم لى خاطب تتحول أمى إلى وحش كاسر. أتساءل لماذا لا تستطيع امرأة مثلى أن تتزوج؟ لماذا يتعين على أن أظل أقاسى طوال عمري؟ أى شخص يمكن أن يحدث له شئ عارض، إحباط. إننى أحب كثيرا. الحب هو أعظم شئ. لم أنس صورة أبى لتكبيرها. وماذا إذا تزوجت فى هافانا؟ أعود متأبطة ذراع زوجى وشعرى مسترسل لكى أغيط السيدة إنريكيeta. لكن دقى يا ساعة ، فمنذ ساعة وأنا أفكر وأفكر ، وقد مللت وأنت لست هنا. لو أننى أردت لكنت تزوجت مرة ثانية. كان يمكن أن أتزوج أنطونيو. كانت حياتى ستختلف. أنطونيو المسكين ذهب إلى الحرب. يمكن أن يحدث له أى شئ. هناك أهوال فى الحرب. الشئ الوحيد الذى يمكن أن يساعدى فى هذه الحياة هو

رجل ، لكى يصبح أولادى شيئا فى الدنيا ولكى أسعد أنا أيضا . لا أرى أى شئ آخر يمكن أن يحدث . أو معجزة من الله ، أن يرعانى الله ، أن يرعانا ويستجيب لدعائى ، لكن كيف؟ إن الذين يدعون كثيرون . لكن جائز . يمكن مثلا أن أجد يوما ما ديكا ذهبيا داخل إحدى الملعبات أو أن أفوز بجائزة اليانصيب أو أن أكون فى الشارع وأجد مطروفا به نقود كثيرة سقط من شخص كان قد سرقه . لا أود أن يكون المطروف قد ضاع من عامل مسكين . لو حدث ذلك سأشتري بيتا به حمام وماء ، سأشتري ملابس وصينى وسألحق الأولاد بالمدرسة وسأشتري لهم الزى المدرسى وأحذية ، سأتنفس . لا بد أن أفرغ الحقيبة لكى أعرف ماذا نسيت . الفستان الحمالات ، فستان الشغل ، الجونلة الحمراء والجونلة التى أهدتها إلى إيليا ، الحذاء والبلوزات ، كل هذا موجود ، ومقص الأظافر . يجب أن أقص أظافرى . من هنا إلى هافانا يجب أن أنام . وكيف عايذة هذه؟ إيليا تقول أنها طيبة جدا ، لكن يجب أن أراها . خوفى كله من المطبخ ، لكن إذا طلبت منى طبخ شئ لا أعرفه أقول لها " كيف تطبخينه حضرتك؟ أنا لا أريد إعداد الأكلة بطريقة مختلفة فلا تعجبك " " عندها ستشرح لى هى طريقة الطهى وأنا أتعلم دون أن أسأل بشكل مباشر . يجب أن أكون مفتوحة العينين فى هافانا . يا رب أقدر على عمل شئ يجعل أمى تمضى سنواتها الأخيرة فى سلام ، على الأقل فى هدوء . أشتري سريرا لها وحدها وأشتري لها جهاز راديو لأن المسلسلات مسلية جدا ، ويحزننى أن أراها تلصق أذنيها فى الحائط لكى تسمع راديو جارتنا فيلاميدا . يجب أن تأكل أمى من حين لآخر لحما مفروما ، لا أن

تقتطع من أكلها لكى يشبع الأولاد ، فهؤلاء لا يشبعون . ثم إننى مشغولة بالبنتين ، فقد أصبحتا الآن فتاتين . يجب أن أفتح أعينهما حتى لا يخدعهما أحد . إذا حدث شئ سيتصل خالى أناستاسيو بى وبإلياً . معه العنوان . لكن لن يحدث أى مكروه ، فالحرب فى الشرق وفى كاماجواى وإذا لم يتدخل الإنسان فى شئ فلا يهتم . نحن ، فى أى شئ ستتدخل ؟ معى ميدالية العذراء وستحمينى . قلقى كله على أنطونيو ، فعلى أى حال أنا لا أتمنى له السوء بأى شكل ، بل على العكس وربنا يعلم . أخيراً دقت الساعة ، أخيراً .

"لم تقولى لى إنه عيد ميلادك". بدلا من أن أركز وأكتب الرسالة لأمى والأولاد كانت جملة عايده هذه هى التى فى ذاكرتى وكل هذه القصة الجميلة تسعدنى وتجعل إحساسى مختلفا. لا تسعنى الحجرة من فرط السعادة. أرى عايده -والمظروف الأصفر فى يدها- وهى تقول لى ذلك. "وكيف عرفت حضرتك؟" "وصلت برقية من بلدكم تقول: خالص التهانى بمناسبة عيد ميلادك" "لابد أنها من الأولاد. أرينى" "يجب أن نحتفل بالمناسبة على أعلى مستوى". لم أكن طوال حياتى فى هذا القدر من السعادة التى شعرت بها فى هافانا فى يوم الأحد فى تلك الليلة. والآن لا أستطيع حتى أن أكتب. أخاف. كان يجب أن أنهض وأكتب الرسالة. يجب أن تفهم أمى هذه السعادة ومعناها بالنسبة لنا. يبدو أنها خيال. أريد أن أبكى، عندما لم يعد لدى أمل. إيفارستو سيعجب أمى. لابد أن يحدث ذلك. عندما ترى كم هو جاد وطيب ومسئول وعندما تعرف نيته تجاهى. يجب أن أشرح لها ذلك جيدا فى الرسالة. ستقتنع. "اذهبى لشراء ثلاث دجاجات ونبىذ، ففى يوم الأحد سأدعو إيفارستو وأجستين -وهو صديق لى تراهنت معه على شئ - لحضور عيد ميلادك". عايده هائلة. لو أننى أستطيع أن أنام ولا أفكر! لكن هذا شئ جميل حتى فى تذكره. لكن الأمر السئ هو أننى سأشعر بالنوم غدا. لو أننى استطعت كتابة الرسالة على الأقل! لكن هكذا، بهذا الشعور، لا أستطيع. أعتقد أن معدتى سترفض الطعام مرة أخرى. يجب أن أتعود على هذا الشعور. "الدجاج مطهى بطريقة رائعة. من الذى أعد الطعام؟" كان إيفارستو يضع بارفان فى تلك

الليلة ، وكان ينظر إلىّ باستمرار . لاحظت ذلك . لو أننى تعلمت شيئا من عايده ، فهذا الشئ هو الطهى . سأشكر لها ذلك ما حييت . " أنت عندك استعداد طبيعى للطهى ، وبما أن كل شئ موجود هنا فستعدين وجبات ممتازة . من الآن فصاعدا سنعد طعام الولايم بأنفسنا " . عايده امرأة مرحة فعلا ، تعرف كيف تستمتع بحياتها . هى رقيقة وطيبة . إننى لسعيدة الحظ لأننى تقابلت معها ، لا مع امرأة أخرى . صحيح أن لها تصرفات لا أرضى عنها ، لكن كل النساء يجب أن يكنّ هكذا . " يا فلاحه ، لك قوام كنت أتمنى لو أن لى مثله . افتحى عينيك . كم كنت سأفعل أنا بقوام وشعر كهذين ! " . كذب ! ، فما تملكه هى شخصيا هى الأناقة والجمال ، ثم إنها تعرف كيف تتزين . يداها تثيران الإعجاب ، فما تنفقه هى على أظافرها وشعرها يكفى لإطعام أى أسرة لمدة أسبوع . لكن الجميل فيها ليس المكياج ، فحتى لو كانت مستيقظة لتوها فهى جميلة أيضا . لا يعيبها إلا أن عجزها نازل قليلا . انظر فيم أفكر . سبحان الله ! ما هذه الأشياء التى أتذكرها بدلا من أن أنام ، فغدا يجب أن أقوم بتنظيف البيت كله . فى تلك الليلة كنت رائعة وأنا أرتدى ذلك الفستان الأبيض . العيب الوحيد هو أنه كان ضيقا عند الصدر لأن صدرى كبير . عايده تعيش حياتها ، لكنها لا تضرر شرا لأحد . إنها تستمتع بحياتها على طريققتها ولا تتدخل فى شئون الناس . لا أحد يستطيع أن ينتقدها . هذه الحفلات التى تقيمها أيام السبت للصديقات والرجال مجرد ابتذال . دائما هناك رجل يمضى معها الليلة . كل مرة رجل مختلف . فى بعض الأحيان يأتون بها فى آخر الليل ويبقون . هذا

ليس شيئاً طيباً ، لكننى لا يجب أن أتدخل فى شئ. شأنى هو أن أعمل وأدّخر نقوداً. رجال فى غاية الأناقة وسياراتهم فارهة وأصغر منها سناً. ذلك الرجل ذو القميص الأحمر والشعر الأسود كان رائعاً، لا بد أنه فنان. هى لا تتأثر لذلك. فى الفجر تقول لى "معى رجل فى الحجرة". فى البداية كان يؤسفنى أنها تعترف. تحضر لهم القهوة وتجلسهم فى حجرة الطعام لتناول الإفطار وتجبرهم على حلق ذقنهم قبل الإنصراف ، لأنها لا يعجبها الرجل الذى يهمل نفسه، ولا يعجبنى أنا أيضاً. لو أن أمى تعلم كيف تعيش عابدة لاستدعتنى منذ أول يوم. لكن هذه الأمور لا تؤثر فى الشخص إذا كان هو لا يريد ، وأنا لا أريد. لو أنها تعلم بأمر إيليا! خطيبتها من أصل زنجى. ربما كان لطيفاً ، وربما كان يحبها ، لكن أصله زنجى. خالى أناستاسيو لا يعرف ذلك. فى أول ليلة شعرت بضوضاء الحفلة -أتذكر ذلك- . نزلت لكى أرى ما الخبر. نعم ، لأننى لم أكن أعرف ما تلك الضوضاء. وقفت أنظر من خلف الفاترينة. كان الرجال يراقصون النساء على ضوء خافت وهم ملتصقون. حيثئذ لم أدر كيف أنصرف، كنت أرتعد. وانطبقت السماء على الأرض على عندما سمعت صوت عابدة وهى تقول "ماذا تفعلين وأنت مختبئة هكذا يا امرأة؟" "من هذه؟ تعالى شاركونا الشراب" "أنا لا أشرب يا سيدى. شكراً. بعد إذنك يا سيدتى ، سأصعد فى الحال. سامحيني. سمعت الضوضاء ، ولأننى لم أكن أعرف ، نزلت لأرى ما الخبر. إن الضوضاء أيقظتنى" "حسناً ، لا تنصرفى ، تعالى وارقصى. تذكرى أنك إنسانة أيضاً" هكذا قالت. "بهذه الأسما؟" نعم ، لأننى

كنت بملايس النوم . يالللضحكات ! وكانوا سكارى . " ما العلاقة بين
الأسمال والرقص ؟ " " فلترقص مع . . . إيفارستو " " إيفارستو ، تعال
هنا . ما رأيك فى هذه الفلاحة كرفيقة فى الرقص ؟ " " هل تعرف
كيف تدق الأرض بقدميك فى الرقص يا إيفارستو ؟ " " ربما كانت
تجيد الرقص . إن الفلاحات تتفوقن أحيانا " . لماذا يفتن أهل هافانا
على الفور إلى أن الإنسانة التى أمامهم فلاحه ؟ " هل توافقين على
الرقص معى يا آنسة ؟ " " آنسة ؟ وهل الفلاحة يقال لها آنسة ؟ " . فى
الحال أعجبني إيفارستو . بمجرد أن رأيته أحسست بشئ يؤلم معدتى .
لكن ماذا كنت أظن ؟ لقد تصرفت بعصبية . يقول هو إن أحدا لم
يشعر بعصبيتى . كانت تلك هى المرة الأولى التى أحادث فيها أحدا
طيب الملبس وعلى هذا النحو من الأناقة ، ببذلة كاملة . يقول إن
أحدا لم يشعر بأننى كنت مرتبكة . " أنا لا أرقص . شكرا " " هيا
وافقيهم فهم سكارى ولن يتركونا فى حالنا " قال إيفارستو ذلك كما
لو كان هو نفسه غير ثمل . " الأمر هو أننى لا أرقص " " قبل أى شئ
هيا نتناول كأسا . ماذا تشربين ؟ " " أنا ؟ لا شئ . أو مجرد مرطب . أنا
لا أشرب الخمر " " اشربى " " استيلا ، خذى كأس الشمبانيا هذا .
جربيه وارقصى على الموسيقى التى سأضعها خصيصا لك " " هل
اسمها استيلا ؟ " كم كان إيفارستو مهذبا معى ! " إنه اسم جميل " " ما هذا المشروب يا سيدتى ؟ " " إنه مشروب " . أمام الناس
أخاطب عايده بكلمة " سيدتى " ، وهذا الاحترام من جانبى أعجبها
كثيرا . الإنسان يجب أن ينزل الناس منازلهم ، أن يحترم الآخرين
عندما يكون الاحترام واجبا . " هيا ، هيا إلى الرقص " . لن أنسى

تلك الليلة مطلقا. إن مجرد تذكرها يملؤني سعادة ، ويجعلني أشعر
كما لو أنني أعيشها مرة أخرى. إن كل ما حدث منذ تلك الليلة كانت
بدايته هنا. كل شيء جميل وأنا مطمئنة إلى من حولي. يبدو لي أنني
سأبكي في النهاية ، لأنني لا أعرف مثل هذه الأمور. "إيفارستو ، لا
تتعد حدودك فهي خادمتي" "يا لرقصها أيها السادة ، يا لرقصها"
"هذا هو الرقص فعلا. لا أحد هنا يجيد الرقص" "انظروا إلى هذه
الفلاحة". شرائط الموسيقى أعجوبة. إنها تعمل بالكهرباء ، وهذه
أعجوبة أخرى. تأملوا اختراعات الإنسان. "لقد وجدت ضالتك يا
إيفارستو". كانت ليلة رائعة. كم استمتعنا! كنت أرقص ولا أجرؤ
على النظر إلى إيفارستو ، وكنت أشم رائحته. لقد سخروا مني طوال
الليل ، لكنني استمتعت ، ولم يسخروا مني لأنهم أشرار بطبعهم ،
بل لأنهم كانوا سكارى وكانوا من أهل هافانا. عندما تأخر الليل
انتحى كل زوجين في جانب وكانوا في الحقيقة يرتكبون أفعالا ،
ومنهم من انصرف. خرجت أنا وإيفارستو نتمشى. لم يفارقني طوال
الليل. آه يا إيفارستو لو كنت هنا الآن تتذكر معي ونضحك سويا
على كل ذلك! هل ستأتي غدا؟ منذ أربعة أيام وأنت لا تأتي. يخيل
إليّ أنه عام كامل. "لم أتجول أبدا تحت هذا الشجر" "إنه جميل".
كانت الساعة هي الرابعة صباحا وجلسنا على حافة الرصيف في البرد
لنتحدث. لاحظت أنه ينظر إليّ بطريقة مريبة ، لكنه احترمني جدا ،
ولم أكن أنظر إليه مباشرة. كان شيء ما يجذبني إليه. كنت أتحسر
وكنت أريد ألا يفطن هو إلى ذلك. كان رجلا مجهولا بالنسبة لي ثم
إنه كان من هافانا. من كان يدريني أنه رجل طيب؟ "هل تعرف إلينا

ابنة خالى ؟ إنها صديقة للسيدة عايذة . إنها هى التى رشحتنى للعمل وهى التى أحضرتنى إلى هنا لأننى من الريف ، من محافظة بعيدة ، لاس فياس . سبع ساعات بالقطار . وحضرتك ، ما اسمك ؟ " إيفارستو . لقد ظللت تنادينى بهذا الاسم طوال الليل " " آه ، نعم . هذا صحيح . كم أنا ساذجة ! إن سيدتى دائما تتحدث عن حضرتك " . هذا كذب من جهتى . " لكن يا إلهى ، كيف أتحدث . سامحنى . هذه الزغطة سببها أننى لم أحضر حفلة كهذه أبدا ، وغدا على أن أعمل ، على أن أقوم بتنظيف البيت . يا لحالة الصلاة ! الآن ستختفى الزغطة . إننى أحب سيدتى جدا . هى طيبة ومتسامحة . أنا ريفية . حضرتك صديقها منذ زمن طويل . هل قلت لى ذلك ؟ إليها ابنة خالى صديقتها أيضا ، وهى التى رشحتنى للعمل لأننى من لاس فياس ، هل تعلم ؟ لكن كيف أتحدث ! ويا للصداع . أعتقد أننى بى رغبة فى التقيؤ . إنها الشبان التى قدمتها لى سيدتى " اسمها شامبانيا " " هل تعتقد حضرتك أن الشبان هى السبب ؟ يا إلهى ! لم أشرب الخمر فى حياتى قط . ذات مرة شربت بيرة ولم تؤثر فى . والدى المسكين هو الذى كان يشرب . كم عانينا من جراء ذلك ! لقد أحضرت صورة لتكبيرها هنا . آه يا سيدى أحلف لك أننى غير ثملة . أحلف أننى لست ثملة بالفعل . أنا امرأة مهذبة ، سيدة بيتى ولدى ثلاثة أولاد أقوم برعايتهم . هل حضرتك تشرب كثيرا ؟ أين تسكن ؟ ما هى وظيفتك ؟ حضرتك لا تقول لى شيئا . كم أنت صامت ! ما اسمك ؟ " يا إلهى ! كنت أشعر بدوار . لعل إيفارستو يضحك منى الآن . يقول إننى كنت أتصرف كبقرة خائفة أو كبغاء

صغير. " لكن لا تبك يا استيلا ، لا تبك ولا تكونى ساذجة. إن الخمر هى التى سببت لك الأذى. بعد قليل ستشفين. ارفعى رأسك، عرّضى وجهك للهواء. هل تحسنت الآن ؟ هل تريدان أن أحملك إلى الداخل لتقيئى ؟ " " اعذرنى " " تعالى نشرب ماءً. هيا نرى هل بقى شئ من القهوة وستشفين. لا تبك. تقيئى. " " إن كل شئ يدور أمامى. احملنى إلى داخل البيت. أعتقد أننى ثملة. هل أنا ثملة؟ لا تستغل هذا الوضع من فضلك. أرجو منك ذلك واستحلفك بقدرة الله العظمى. لدى ثلاثة أولاد، وأمى عمياء تقريبا، ولا أستطيع أن أفقد هذه الوظيفة. حضرتك من هافانا، لكن لا تكن شريرا". تتابنى رغبة فى البكاء وأنا أتذكر كل ذلك وكيف تصرف إيفارستو بشكل طيب وكم يجب أن أحبه. شخص آخر كان سيستغل الظروف. . إنه يستحق أى شئ يطلبه وأنا أثق فيه. لا يجب أن أفكر أكثر. يجب أن أنام بعض الوقت. حالتى واحدة إذا ضحكت أو بكيت. لو أننى استيقظت من البداية لكنت انتهيت من كتابة الرسالة. كيف حال أمى وأولادى؟ كيف سيستقبلون هذا الخبر؟ كان يجب أن أكتب الرسالة يوم الإثنين، لكن ذهنى لم يفرغ أبدا. هل سيحب أولادى إيفارستو كأب، أم أنهم الآن كبار؟ عليهم أن يطيعوه. هل الحرب هناك شديدة؟ يقال أن الثوار بدأوا فى الاستيلاء على قرى لاس فياس. احمنا يا رب، أنعمت علىّ فأتم نعمتك. كانت الدنيا ظلام فى الشارع تحت الشجر وفى حديقة المنزل. الحديقة الجميلة بهذه النافورة التى على هيئة طفل يتبول. " اسمع، ما هذا؟ هل رأنا أحدا؟ لكننا لم نكن نفعل شيئا سيئا، أليس صحيحا؟ " كان صبيان زنجيان

يعدوان . ماذا كانا يفعلان فى تلك الساعة ؟ هل كانا يريدان السرقة ؟ مسكينان! هذا بدلا من أن تكون لهما أم ينامان بجوارها . أنا أخشى زنوج هافانا . " لا تخافى يا استيلا . كانا زنجيين وانصرفا مسرعين مثل كلب سكب وعاء " بعد ذلك ضحكنا على هذين الزنجيين اللذين انصرفا مسرعين مثل كلب سكب وعاء ، لأن الكلب الذى يسكب وعاء ينصرف مسرعا هكذا كالزنجيين . أفكر فى نفس الشئ . لا أستطيع التوقف . دعنى . فى ذلك اليوم استيقظت فى الثانية عشرة ، وكانت عايذة قد أعدت لى الغداء ، أى حدث العكس . يا للحسرة! " عايذة ، لا تفعلى بى ما حدث فى الليلة الماضية " وماذا فعلت بك يا امرأة؟ لا تقولى إن ذلك لم يعجبك . لقد رقصت واستوليت على إيفارستو وملكته وحدك . أنا راهنت " لا تقولى ذلك يا عايذة . أنا لست معتادة على ذلك . ما هو ذلك الرهان ؟ " أمر يخصنى . أنتم فى الريف لا تستمتعون بحياتكم . من المؤكد أنك تزوجت من أول رجل قابلك وولدت له طفلين " ليسو طفلين بل ثلاثة " هذا يؤكد ما أقول . السعادة فى الحياة هى المتعة التى تحملها الإنسانة معها إلى القبر . ليس هناك شئ آخر . أنا سأنتحر فى اليوم الذى أفقد فيه قدرتى على الاستمتاع " يا إلهى! لا تقولى ذلك ولو من باب المزاح " أعدى طعاما جيدا لغداء يوم الأحد القادم . سوف أدعو كلا من إيفارستو وأجستين بمناسبة عيد ميلادك رغم أنه قد فات . عليك أن تستغلى الفرصة . اشترى بيرة وجمبرى ومشروب النعناع " وماذا أرتدى لهذه المناسبة ؟ على أن أفصل فستانا ، لكنى لا أريد أن أسرف ، أم هل يكفينى فستانى ؟ " لا . تعالى هنا . هل يعجبك

هذا القماش؟ " إنه رائع " خياطتى ستفصل لك فستانا " لكن كيف سأدفع ثمنه يا عايدة ؟ ما ثمن القماش ؟ " من فضلك . من الذى تحدث عن النقود ؟ ما يجب أن تفعله هو أن تتصرفى كالمرءة السابقة " . ذهبنا فى ذلك اليوم إلى الخياطة . كانت عجوزا سمينة ، واستقبلت عايدة بحنان بالغ . تركت كل الزبائن وجاءت تهتم بها . أرى أن هذا نفاق . استقبلتها بكلمة يا حبيبى أنا لست آله ، أنت لا تراعين ظروفى ، مستحيل أن يكون الفستان جاهزا يوم الأحد يا حبيبى ، لكن سأحاول من أجلك ولا تتركينى يا حبيبى . خياطات هافانا ماكرات . يأخذن كل ما يمكن أخذه . لو أن الفستان فصلته فيلا أو كارولا لعملت من القماش الذى يفيض " روب " للبنات . المهم ، لم تتم الدعوة يوم الأحد ، واضطرت إلى إلقاء الجمبرى فى القمامة . كلما ألقيت طعاما فى القمامة يصيبنى المرض ، وعائدة لا تريد أن أعطى الطعام لأى فقير . تقول إنهم هكذا سيأتون كل يوم يطلبون . لم يأت إيفارستو إلى البيت ولم يتصل تليفونيا . فى كل مرة يدق جرس التليفون كنت أجرى لأعرف ما إذا كان هو الذى يتصل . لكنه لم يتصل . وكيف كان سيتصل إذا كان قد سافر إلى بينار ديل ريو ولم أكن أعرف ؟ كنت أقول لنفسى " يا لك من ساذجة ! هل تظنين أن هذا الرجل يمكن أن يفكر فىك ؟ فى اليوم التالى لم يتذكر ، مجرد التذكر . لو أنه أراد لجاء أو لاتصل تليفونيا . لا تتوهمى . أنت مجرد خادمة . فلاحه ميتة من الفقر ، وهو رجل من هافانا ذو مركز " . أخذت أفقد الأمل لأننى صدمت عدة مرات فى حياتى . يوم الجمعة كنت أظن أنه بقى يومان لكى أراه ، لكن عايدة جاءت

ومعها شخص يتحدث لغة إسبانية غريبة وشعره أصفر . جاءا فى
الفجر ثملين . استمرت عايده تحممه ساعات بضحكات أيقظتنى .
كانت الجلبة مسموعة فى نصف أنحاء هافانا . خرج الرجل وجسمه
ملئ بالصابون بينما كنت أعد الإفطار ، وتوقف فى المطبخ وشرب لبنا
باردا وهو عار تماما . لم يغير من تصرفه عندما رآنى . قال لى " صباح
الخير " ، لكن صوته كان مبحوحا . لا أدري فى أى دولة يتكلمون
هكذا ، هل فى ألمانيا أو فى بلد آخر . ثم ظهرت عايده وهى عارية
أيضا ومعها فوطه ألقتها عليه . هذا لا يعجبني إطلاقا . قلة الحياء هذه
أمام الناس دون داع . عندما جلس الرجل يتناول الإفطار كان عاريا
أيضا ، وشممت رائحته الكريهة رغم استحمامه . كان من ألمانيا أو من
بولندا ، وكان بحارا . مكث أسبوعا ، وعندما انصرف بكت عايده
وحزنت . كانت تلك أول مرة أراها تبكى على رجل . يبدو أنها
أحبته . يالآعاجيب الدنيا ! من بين كل هؤلاء الرجال الذين تعرفهم
عايده لا يعجبها إلا ذلك الدميم . لماذا لم تحب الرجل ذا القميص
الأحمر والشعر الأسود ؟ لم تفارق حجرتها لمدة يومين . فى اليوم
التالى ظهرت فى المطبخ وهى متزينة لتخفى تجاعيد وجهها وقالت لى
" تذكرى أن غدا موعد دعوة الغداء التى حدثتك عنها . سأتصل
بإيفارستو وأجستين وسأمرّ على الخياطة " . أنا كنت قد فقدت الأمل
ولم أعرف بعد ذلك شيئا عن إيفارستو . فرحت لأننى كنت قلقة على
عايده المرحه التى لم تعد تفارق حجرتها . آه يا إيفارستو ، هنا رأيتك
للمرة الثانية . هل تتذكر ؟ جئت بالقميص الأزرق ولم تتوقف عن
النظر إلى . أعجبني حينذاك شاربك ولم يكن الرجل ذو الشارب

يعجبني. عايدة تصرفت بطريقة رائعة ، وقدموا لى الهدايا الجميلة .
لم أفتح علبة الحلوى التى قدمها لى أجستين ، لكى أحملها معى إلى
الأولاد ، لأن الحلوى فى علبتها لا تفسد. أما البارفان الذى أهديته
لى أنت فلن ينفد أبدا. ما أحزننى هو أن أمى والأولاد لم يكونوا
معى ، لأن الطعام كان شهيا. كانت هناك أصناف غريبة. بكيت .
" لماذا تبكى؟ " " الفلاحات ساذجات " " ماذا تريد يا أجستين؟ أنا
متأثرة. لم أشعر بالسعادة فى حياتى إلى هذه الدرجة أبدا. لم أحتفل
أبدا بعيد ميلادى. الحقيقة يا إيفارستو ، الحقيقة يا أجستين ، إنكم
طيبون " . بكيت لأننى تذكرت بيتى ، لكننى لم أقل ذلك. كل هذا
الطعام الذى يفيض وربما فى ذلك اليوم نام أولادى دون عشاء. " من
الذى طهى الطعام؟ " " هى " " هذه المرأة من ذهب. لا يجب أن
تضيع منك الفرصة يا إيفارستو " " هذه الألعاب لا تعجبني " " لا
تهتم " . بعد ذلك خرجنا أنا وأنت يا إيفارستو إلى الشرفة وجلسنا
نشرب البيرة ونأكل الجمبرى ونتحدث. تحدثنا فى كل شئ ، وكنت
تنظر إلى طريقة أضواء فى شعلة الأمل. كنت أقول لنفسى " يا
ربى. لا يمكن. لا يمكن ، كل هذا الكم من السعادة غير معقول "
إيفارستو عمره أربعة وأربعون عاما. يكبرنى بخمسة عشر عاما ، لكن
هذا لا يهم. تقول عايدة إنه كان ملاكما ، ربما بسبب لحمه الكثيف
وذراعيه. سأسألها عن ذلك. انصرفت هى وأجستين ، ذهبا يلعبان
الكوتشينة فى بيت لا أدرى من ، وبقينا نحن حتى الواحدة صباحا
نتحدث ، وحيدين فى الشرفة. حيثُ بدأ يحدثنى بصوت منخفض
عن أشياء يبحث عنها فى الحياة وفجأة وجدها -كلها مجتمعة -فى.

فطنت إلى أنني بدأت أحبه وارتبكت ، لدرجة أنني كسرت زجاجة .
يحدث منى ذلك دائما . كنت مرتبكة لأننى كنت وحيدة فى البيت
-عايدة لا تفكر فى عواقب ما تفعله- . لو أن شخصا قليل الحياء هو
الذى كان معى ، ماذا كان يحدث ؟ لكن أبدا . كان هو ، وعندما
نظرت وجدته أمسك بيدي . لم يكن يؤلمنى شئ ، ولكنى كنت أفقد
أمى وأولادى ، وكنت أتصور أنني أسئ الأدب فى هافانا . نزع
يدى . الآن أضحك من كل ذلك . يا لكل هذا الفكر الذى داهمنى !
إننى أضحك وأنا بمفردى . كم هو جميل التفكير فى كل ذلك ! هذه
الأشياء تجمع بين السعادة والحزن . لقد أحببت حجرتى هذه وحكى
أشياء للجدران . ليت هذه الحجرة حجرتى فعلا . كنت أريد أن أقول
لإيفارستو إنه أخطأ فى تقديره لى وأنا لست واحدة من تلك النسوة
اللاتى عرفهن واللاتى لا يرفضن المداعبة . كنت أريد أن أقول له أن
ينصرف لأن صاحبة البيت ليست موجودة وأن يحترمنى وألا ينظر إلى
مادام لا يعرف كيف يتعامل مع امرأة محترمة . لكن كيف أقول له كل
ذلك إذا كان هو لم يتجاوز حدوده ؟ أخذ يدي بين يديه بالفعل ،
لكن لم يزد عن ذلك . لم يكن بمقدورى أن أقول له شيئا إلا بعد أن
جذبني وقبلني بالقوة ، لأننى لم أكن أريد . لقد ضربته ، ذلك
المسكين . "أنا امرأة محترمة ، هل تسمع ؟ لدى أولاد وأسرة
أرعاها . لقد أخطأت فى تقديرك لى وتريد أن تستغل وجودنا بمفردنا .
لكن عليك أن تحترمنى ، فلست امرأة ممن تغازلهن ثم تنصرف " .
لكننى ارتميت فى أحضانه واعتذرت له وأنا أبكى كالبلهاء . مسكين .
لقد أزعجته . بدأ يلمسنى وأنا أقول له لا . لم أشأ أن أقضى معه تلك

الليلة ، فقد كان علىّ أن أحسّاط للأمر . الرجال لا يريدون إلا هذا ، وأنا لن أكسب شيئاً لو وافقت ، فلن يحترمنى هو أبداً بعد ذلك ، وربما كانت عايدة لا يعجبها أن أدخل فى هذه العلاقة بدون إذننها . عندما يكون الإنسان فى بيت غير بيته يجب ألا ينسى ذلك . وماذا يحدث لو أن حظى كان سيئاً وحملت ؟ ماذا يحدث لو أن نيته معى لم تكن حسنة ولم يكن يريد إلا التسلى ؟ طبعاً يجب أن أفكر فى كل ذلك وأن أكون حازمة . لن يحدث أبداً . إذا كان هو مهتماً بى فعليه أن يواصل الإلحاح . على أى حال فقد افترقنا . ثم بعد ذلك ، ماذا فعلت يا إيفارستو ؟ بدأت تأتى بكثرة كل يوم تقريبا وتتصل بى تليفونيا . كنت أنتظرك بصبر وبأمل . لا أدري كيف تحملت هذه الأيام التى لم تأت فيها ولم تتصل . ربما لهذا لم تكن صحتى على ما يرام وانتابنى الفكر . بعد ذلك جاء فى تلك الليلة وذهبنا إلى مكان ما مع عايدة وصديقكم . لم أكن قد رأيت هافانا جيداً . كنت قد رأيت فقط الحى الذى يقع فيه البيت يوم أن وصلت . المكان الذى رأيت عبارة عن أضواء وأضواء وإعلانات وإعلانات وإعلانات . كانت الإعلانات تطفأ وتضاء . فى هافانا هناك أضواء وإعلانات مضاءة لا تدع الإنسان يفكر فى النظر إلى نجوم السماء . ويا للزحام ! لا أدري من أين يأتى كل هؤلاء الناس وكيف تتسع البيوت لهم . هذا المكان عبارة عن كافيتريا أو كباره وأريد أن أذهب إليه مرة أخرى مع إيفارستو . سأقول له ذلك . عليه أن يصطحبنى إلى هناك بمفردنا .

"سيرى جيداً . لو سرت بشكل طبيعى لما فطن أحد إلى أنك فلاحه " هكذا قالت عايدة فشددت قامتى . جلسنا ، وكان الندلاء

يعرفون عايده. كانوا أصدقاءها. قالت إنها تريد مشروباً لا أدرى ما هو ، وقالت لهم يحضروا لى نفس المشروب. قلت نعم وإن المشروب يعجبني جداً ، وضحكنا. أسفت على حال النادل لأنه بالتأكيد ظن أننا نسخر منه بسبب ربطة العنق التى كانت تخنقه. ذلك المسكين كان يجب عليه أن يعمل بينما يتسلى الآخرون وينادون عليه من كل ركن. الشخص الذى ورمت قدماه لا يجدى فى هذا العمل. لن أشرب أكثر لأننى فرطت فى الليلة السابقة بسبب الشرب. يقولون إن المرأة التى تدمن الخمر تكون أسوأ حالاً من الرجل. وأنا قد ورثت هذه الصفة. عندما كنت أنظر إلى إيفارستو كنت أرى رأسين وأربع عيون. كنت أضحك ، وكنت أتحسر. انخرطت فى البكاء. أنا أعالج أى أمر بالبكاء. أشياء كثيرة تمر الآن بذاكرتى. بعد ذلك رقصنا ورقصنا ، وكانت الموسيقى مؤثرة. كنا نرقص بسرعة ، منفصلين أحياناً وملتصقين أحياناً أخرى. كان إيفارستو يطلب منى أن أفعل ذلك لو كنت أحبه. بعد ذلك انتحى بى جانباً ووضع وجهى بين يديه وطلب منى ذلك. أراك يا إيفارستو وعيناي مغمضتان كأنى أرى الآن يدك وجسدك. قلت لى "أريد أن أتزوجك" كنت أظن أنك تكذب وأنت تقول لى هذه الكلمات ، ومكثت صامتة ، ففى تلك اللحظات كنت أتساءل عما إذا كان يليق بى أن أكون معك فى كافيتيريا أو كباريه ، وكنت أتذكر أولادى الذين ليس لهم فى الدنيا غيرى. سمعتك تقول "ما هو ردك يا استيلا ؟ إنه عرض بالزواج" "آه يا إيفارستو ، سأعتنى بك كثيراً ، سأغسل لك ملابسك ، سأعد لك الحمام ، سأطرز لك المناديل. سأعتنى بك كثيراً كثيراً. أنت إنسان طيب جداً ،

وأنا أرغب فى أن أعتنى بك". "يمكنك مساعدتى فى التجارة. عندى ورشة سيارات ، لكن تعجبني تجارة الجلود. ستتعلمين ، وستساعديننى فى البيع. سنحضر الأولاد وأمك" "الأولاد ثلاثة ، لكنهم ليسوا مشاغبين. بتان وولد" تحدثنا كثيرا وفكرنا فى المستقبل، لكن من حين لآخر كنت تطلب منى شيئا. عندما وصلنا إلى المنزل افترقنا ، ومثلت أنت دور من ينصرف. نامت عايده ، ورجعت أنت. أنا أعرف أننى لو كنت طلبت الإذن من عايده لوافقت ، لكننى لم أفعل ، لأن فترة تعارفنا لم يكن قد مر عليها أكثر من شهر ، وبيت الآخرين هو بيت الآخرين. عندما حدث بيننا كل شئ ، تخيلت أننى أنام فوق سحابة ، ولم تكن لدى قدرة على مجرد التفكير. تولدت لدى رغبة فى أن تكون فوق صدرى أزهار ندية كثيرة، وتذكرت أولادى وهم يعدون فى الحديقة يطاردون الفراشات ، وتذكرت نفسى أيضا وأنا أغنى فى بيتنا الريفى كما كنت أفعل من قبل. ذلك أننى كنت سعيدة. كنت أنت أيضا سعيد ، وكنت صامتا. لم تكن تتحرك ، وكنت أسمع صوت السيارة وهى تحترق. عانقتك من جديد. يا لجرأتى ! الآن أعرف مضمون الرسالة التى يجب أن أرسلها إلى أمى. أمى العزيزة: أنا سعيدة جدا لأن الحظ السعيد جاءنى ، وقد ساعدنى الله. وجدت رجلا عندما تعرفينه سترين أنه رجل طيب. يريد أن يتزوجنى. عمره أربعة وأربعون عاما ، ولديه بيت كبير وجميل يقع فى الحى الهادئ ، بعيدا عن المرور الكثيف. ليس عاليا. لن تضطرى إلى صعود درجات سلم كثيرة. هو يريد أن تأتوا جميعا. قولى لى ، هل استلمت النقود التى أرسلتها لك ؟

لا تقلقى علىّ. أنا بخير ، وكل يوم أصلى وأتوسل إلى العذراء ألا
تصل الحرب إلى المدينة وألا يحدث لكم مكروه. عايذة أهدت إليّ
فستانا جديدا ، ولدى هدايا للأولاد. إيفارستو -وهذا هو اسمه-
رجل جاد ومحترم ، ويرسل لكم تحياته. لك عندى قطعة قماش
سوداء وقصاقيص رمادية يمكن أن تعملى منها بلوزة. ها أنا قد فكرت
فى مضمون الرسالة. لماذا لا أقوم وأكتبها ؟ كم الساعة الآن ؟ لا .
يجب أن أنتظر إيفارستو ، فربما يريد أن يضيف شيئا. الآن لا يجب
أن أفعل شيئا دون أن يعرف. غدا -أقصد اليوم ، فالساعة قد تعدت
الثانية عشرة بالتأكيد- لابد أن يأتى إيفارستو. هذه الأيام الأربعة التى
مرت دون أن يأتى لا أستطيع تحملها. ربما اضطر إلى السفر إلى بينار
ديل ريو بسرعة كما حدث فى المرة السابقة ولهذا لم يخطرئى. لن
أكون امرأة غيورة. لن أسئ الظن ، لكن ليأت بسرعة. ما يجب أن
أفعله هو أن أدع القلق جانبا ، أن أهدأ ، فقد ودعنى سوء الحظ.
وهكذا إما أن أنهض وأكتب الرسالة وإما أن أنام. واحدة من اثنين
يا استيلا ، واحدة من اثنين ، فلا يجب أن تفقدى عقلك .

يخيل إليّ أن هذا الرجل ليس نائما ، بل يستغل الزحام فى السيارة لكى يلتصق بى . أنا لست بلهاء . الحمد لله أن عايذة استطاعت أن تحصل لى على تذكرة مع هذا السائق صديقها ؛ لأن السائقين لا يريدون التوجه نحو الريف بسبب الحرب ، وأنا لم يكن بوسعى أن أبقى دقيقة أخرى فى البيت . يا إلهى ! كان يجب علىّ أن أشك فى الأمر ، أن أفهم أنك كنت تلعب بى . أنت لا تعاملنى بطريقة حسنة أبدا . أنا عصبية ، عصبية . هذا أفضل ، هكذا أراقب هذا الرجل . فليعرف أننى مستيقظة ، مستيقظة فلا يخطئ . الحمد لله أن معنا هذا الرجل العجوز والمرأتان . هل أوشكنا على الوصول إلى محطة لاس فياس ؟ هل سيفتشوننا مرة أخرى ؟ هل صحيح أن أحدا لا يستطيع أن يتنقل بين بلاسيثاس ولاس فياس ؟ ماذا أفعل إذا لم أستطع الوصول إلى البيت ، وأنا لا أعرف أحدا فى بلاسيثاس ؟ لدىّ رغبة فى أن أعانق أمى وأولادى ، فى أن أكون مع أسرتى . أنا أعتقد أن السيارة أسرع من القطار . والحمد لله أن الجو ليس حارا ولا باردا .

- سيدى ، سيدى ، هل حضرتك نائم ؟ لا ، فأنت تتحامل علىّ . افسح قليلا من فضلك .

نائم ! كما لو كنت أنا ساذجة ! لقد تعلمت كثيرا فى هافانا . الآن نعم قد تعلمت كل شئ . إنه يتصنع . عندما ظننت أن باب السعادة قد انفتح لى يحدث لى كل ذلك . كيف كانت ستشعر أمى لو

أننى أرسلت الرسالة ؟ الأم أم دائما . ورأيها صائب دائما . إن الشيطان يعرف كثيرا لأنه عجوز ، لا لأنه شيطان . الأمر كله سببه حظى التعيس . والآن أتساءل مرة أخرى : هل يمكن أن يحدث شئ فى الدنيا ينقذنى وينقذ أولادى ؟ إن أملى الأخير قد ضاع . ضاع إلى الأبد . لا يمكن أن يحدث شئ . ليس عندى أمل فى شئ الآن . الآن على الأقل أستطيع أن أستمتع بالهدوء . أتخيل وأتخيل ، ولا أرى حلا لوضعنا . أنا قد انتهيت . تبقى البنتان . ربما يكون حظهما أفضل من حظى . وسأفعل أنا معهما ما فعلته أُمى معى : المراقبة المتواصلة ؛ لأن الإنسان لا يتعلم أبدا إلا إذا صُدم . لم يأمرنى أحد بالتسكع بهذا الشكل . الذنب ذنبى لأننى ساذجة ، فأنا أعرف تعاستى وحظى السيئ . قالت لى عايدة : " سأحفظ لك الوظيفة لمدة شهر " . اكتبى لى بمجرد وصولك وبخط واضح . لو احتجت إلى نقود قولى لى عايدة ليست شريرة . هى لا تعرف الحياة الحقيقية . أعرفها أنا التى لم أفارق الريف . هى تعتقد أنه يمكن اللعب بأى شئ للتسلية . أنا لست حانقة عليها . لا أعتقد أنها فعلت ما فعلت بدافع الشر . طوال الليلة الماضية وأنا أفكر فيه ، ككل ليلة ، وأنا أتساءل لماذا لم يعد وأقول إنه فى بِنار ديل ريو . بِنار ديل ريو ! عندما قمت لأشرب ماءً حتى أنام ، هل كنت أعتقد أننى سأسمع صوته الواضح وهو فى البيت ؟ محال . هل كنت أحلم ؟ كان صوته بالفعل فى حجرة عايدة ، وكان صوتها . ماذا كان يفعل فى تلك الساعة ؟ " إيفارستو ، كفى ، لقد كسبت الرهان ، وقد دفعت لك ما أردت ، لكن الآن لا تأت إلى هنا

مرة أخرى طالما هذه البنت موجودة . دعنى أتحايل للتخلص منها . أنت لا تدرك مدى الحسرة التى أشعر بها تجاهها ، فقد داعبت الأحلام والآمال . يبدو أنك لكى تكسب الرهان قد وعدتها بالقصور والضياح وأنها قد صدقتك . بالأمس قرأت على رسالة كتبها لأمها ، وأنا لا أتحمل هذه الأمور . أنا قد أحببتها كثيرا ، ولا أستطيع أن أفعل بها ذلك . لم أكن أتخيل أن الأمور ستصل إلى هذا الحد . لا تأت مرة أخرى " آه أيتها السيارة اللعينة ، إما أن تصلى ، وإما أن أنام ، وإما أن أموت . أنت لا تدركين شعورى .

(٤)

بمجرد أن سافرت أمى إلى هافانا تحولت أختاى إلى آنستين .
إنهما تطبخان وتغسلان وتؤنبنان وتخرجان جدتى إلى الفناء لتشم
الهواء . هما اللتان تستعيران الشئ الذى لا يوجد بالبيت ، وهما اللتان
تعرفان مقدار الملح أو الثوم الذى يجب أن نعطيه للجارة إذا جاءت
تطلبه . إنهما تقتصدان فى استعمال الكهرباء ، وتقمان الطعام لجدتى
أولا ثم لى . لا تشاجران الآن على غسل الأوانى ولا تتنافسان على
ارتداء الفستان الأجمل أو على أكل قشر الأرز . لا تجتمعان الآن مع
البنات الأخريات للرقص ؛ لأن الرقص يهلك الأحذية ، ولا تلعبان
مع الأولاد الذكور . تجلسان على باب البيت تراقبان كل ما يحدث
وتحكيانه لجدتى كى تسلى . تذهبان إلى الدكان ، كما لو أنهما لا
يحزنهما حجم الديون الكبير المتراكم ، وتقولان لصاحب الدكان : إن
أمى سترسل كل النقود خلال الأسبوع القادم . يقول بائع اللبن :
" دمهما خفيف " وأنه نعم سيصبر مرة أخرى إلى نهاية الأسبوع . أما
الذى يحصل فاتورة الكهرباء فهو لا يستمع إلى حكاية أن أمى فى
هافانا ، لكن أختاى تحتفظان له بالقهوة وعندما يصل تتصنعان الظرف
وتقولان إن جدتنا مريضة وأننى مريض وأنا الاثنان نستهلك كثيرا من
النقود فى الأدوية . على أى حال فإن جدتى تتفرض عندما تسمع
صوتهما وهما تخرجان الأكواب المرسوم عليها زهور من سحارتها -
وهى الأكواب التى أهداها إليها جدى فى يوم زفافهما - وتخرجان

الأطباق التى اشترتها فى عيد الزواج الأول والطبق الصينى الكبير ،
وجدتى تركهما تغسلان زجاجة المصباح ، والزجاجة أكبر عمرا منا
نحن الثلاثة مجتمعين ولا يصنع مثلها الآن لأنها من أيام زمان . فى
يوم الأحد أهدت جدتى إحدى أخواتى خاتمها وهى طفلة وأهدت
الأخرى قرطها ، وأوصتهما بألا تضعيهما فهذه الهدايا أبدا لأن
القرط كان هدية من جدتها هى ، أما الخاتم فيتمى إلى إحدى الجدات
القديمات ، ثم إن القرط والخاتم لا يزالان جديدين . أحيانا يذهبان
بعد الظهر - وهما متشابكتا الأيدي - إلى بيت جدى أناستاسيو لكى
يكتب لنا رسالة إلى أمى أو لكى يقرأ لنا رسالة أرسلتها أمى ، وذلك
لأن حكاية أن يتركنى المدرس ألتحق بالمدرسة لم تكن صحيحة .
لا يهم أن تأتى أختاى بعد المغرب أو أن يشاهدا فاترينات المحلات
لحظة ، فقد أعدتا الطعام وأعدتا ملابس الخروج لى وتركتاهما فوق
السحارة . أى شخص يسألهما عن جدتى تجيبانه " لا يا سيدى ،
جدتى ليست قابلة " ويدعوانه إلى الدخول . حتى الآن تنامان فى
نفس السرير ، واحدة رأسها هنا وواحدة رأسها هناك ، مثل البنت فى
الكوتشينة . وعندما يصل ابن مرثيدس تضحك إحداهما كثيرا ، وإذا
مرّ صبى الجزار على دراجته تتبادل أختاى الغمز فى أحد الأركان .
كبرت أختاى . ستكونان مثل أمى . بالأمس قال لهما صاحب الدكان
كلاما وقحا فجاءتا إلى المنزل تبكيان ، والآن علىّ أنا أن أقوم بشراء
طلباتنا . ذات مساء دخلت إلى حجرتهما فوجدتهما أمام المرأة وهما
تلبسان حذاء أمى وتضعان أحمر شفاه وانفجرتا فى الضحك . فى
ذلك اليوم تعلمتا إعداد أكلة جديدة : حلوى بالشيكولاتة . أختاى

تنظران إلىّ بشكل مختلف . لا تريدان أن نستحم نحن الثلاثة في طشت واحد كما كنا نفعل دائما . أختاي لم تعدا أختاي . علىّ أن أجد صحبة أخرى .

ذات يوم استيقظت أختاي مبكرا أكثر من عادتهما ، وشبكنا أيديهما وخرجتا على أطراف أصابعهما لشراء الخبز . أنا رأيتهما جيدا لأننى كنت مستيقظا أفكر فى أمى وفيما تفعله فى هافانا . عندما عادتا - على أطراف أصابعهما أيضا- فاجأتانى وعيناي مفتوحتان . "انهض للعمل وسنقول لك شيئا : لا يمكن إقامة السيرك بعد الآن" أنا تصرفت كما لو أن الكلام ليس موجها إلىّ . كانت نظراتهما كنظرات الكبار ، ولو أنهما وضعتا زهورا على شعرهما لسقطت الزهور . قالتا شيئا لجدتى بصوت خفيض فوضعت جدتى يديها على رأسها وأشارت بعلامة الصليب كثيرا وذهبت إلى تمثال القديسة لوثيا وأشعلت له شمعة . "الآن يجب أن نستدعى استيلا . فى الظهر تمسحان شعركما وتذهبان إلى بيت أناستاسيو لكى يكتب لها برقية . يا إلهى!" بعد ذلك جلست على كرسيها صامتة تفكر ، وأخذت أختاي فى العمل بجهد وهما صامتان ، وكانتا تتبادلان النظرات من حين لآخر . لو أنهما فى لحظة ما ليس لديهما ما تفعلانه كانتا تذهبان وتجلسان كل واحدة منهما إلى جانب من جدتى وكانتا تساعدانها على إتمام ثلاث أو أربع تسبيحات على مسبحتها . كانت جدتى ترتدى ملابس سوداء وكانتا ترتديان ملابس رمادية . تحول البيت، تدريجيا إلى نصف مظلم وامتلأ بهمساتهن . قررت أن أذهب وأشكوهن إلى السيدة فيلاميدا العجوز ، فهى أكثر الناس وعيا فى الحى . عندما

سمعت جدتى حركتى قالت لى " أنت قد عرفت أنه لا يمكن إقامة السيرك بعد اليوم. ابحث لك عن لعبة أخرى ، ولتبق دائما فى البيت وإما لا تلعب وتلتزم الهدوء " أوقدت العجور فيلاميدا هى الأخرى شمعة للقديسين وأمسكت هى الأخرى بمسبحتها فى يدها. الفرق بين مسبحتها ومسبحة جدتى هو أن مسبحة فيلاميدا بيضاء وكاملة العدد. أخذتنى إلى نهاية المطبخ ووضعت فى يدى قطعة خبز بالزيت ونظرت عبر النافذة والأبواب قبل أن تقول لى بصوت هامس أن أعطيها أذننى لكى أسمع ما تقول ، فليست أختائى سيئتين لكن ساعة الجدد قد حانت وعلينا أن نرسل فى طلب أمى. قالت " الحرب على وشك الوصول إلى المدينة. ستصل بين لحظة وأخرى. الحرب نفسها " ألم أكن أعلم؟ نعم كنت أعلم. هذا يجب أن نقوله حتى للأطفال ، لأننا جميعا يجب أن نكون مستعدين لأسوأ الاحتمالات ، لأى شئ. علينا أن نكون مؤدبين وأن نبقى داخل البيت. إذا كنت فى الشارع أو كنت ذاهبا إلى الدكان لأشتري شيئا ورأيت شرطيا أو حارسا فعلى أن أتجنبه وأن أعود مسرعا إلى البيت. إنهم عصبيون لدرجة أنهم لا يتحملون أن ينظر إليهم أحد. ثم أوقدت شمعة أخرى للقديسين وأعطتنى قطعة أخرى من الخبز بالزيت ، مع أن القطعة الأولى كانت لا تزال فى يدى لم أذقها. " اذهب مباشرة إلى بيتكم واسمع كلام أخواتك فقد كبرن الآن " لقد كبرت أختائى بالفعل. جدتى تأمرهما بالمشى حافيتين داخل البيت وهما يحملان لوحا من الخشب. تقول، إنها فعلت ذلك مع أمى وأن هذا هو السبب فى أن أمى ترقص جيدا وفى أن قوامها معتدل. تقول إنهم هكذا

فعلوا معها هي ومع أختها وأن أحسن شيء كان يعجب جدى فيها هو طريقة مشيها. هذا شيء رائع للنساء. عندما خرجت لكى أعود إلى البيت نظرت إلى الشارع فوجدته خاويا ، ورأيت كل أبواب البيوت مغلقة. لم أر حتى قططا أو كلابا أو حماما فوق الأسطح. ربما خرج شخص ما من بيته وطرق باب بيت آخر ففتحوا له فى الحال. كانت الحركات تتم بسرعة كما لو أن أحدا لم يخرج. أنا لست متأكدا من أننى رأيت أحدا. فى إحدى هذه المرات رأيت كما لو أن مارييل خرجت من بيتها وعبرت إلى الناحية الأخرى ودخلت إلى بيتنا. من المحتمل أن تكون هذه تخيلات من جانبى ، وقد تشكّلت هكذا ثلاث حلقات من الناس فى آخر الشارع. ذهبت إلى آخر الشارع لأطمئن على عباد الشمس. كنت أريد التوجه إلى بيتنا ، لكننى ذهبت إلى مكان عباد الشمس ، وعندما وصلت رأيت بين شجيرات الخروج والأعشاب التى نَمَتْ بجواره فأخفته. لقد غطته تقريبا. إنها ليست أشجارا ذات أوراق عريضة جدا وجذوع ضعيفة - لأن هذه الأرض ليست كأرض الريف- لكنها شجيرات خروج. هنا لا يوجد حتى خمس الأشجار التى كانت هناك. لكننى على أى حال عندما أرى الزهور لا أتركها. عندما أرتدى القميص الأصفر أفضل السير بجوار الزهور الحمراء ، لكننى لا أجرؤ ولا أفعل سوى السير بجوار زهور الكونديمور ، وهى حمراء أيضا لكنها لا تعرفنى. الحقيقة هى أننى سوف أرى عباد الشمس بالفعل. أعتقد أنه قد شاخ أو أنه مريض ولا ينظر الآن إلى الشمس. لا تقترب منه النحلة أبدا ولا الفراشة ، وأرى أنه لا ينفذ عن نفسه التراب ولا دخان المدفأة. كم أتمنى أن أنظفه ! ،

أن أنظفه قطعة قطعة بعناية شديدة ، وأن أجلس كل فترة بجواره أصفر وأمسك بقطعة قماش فى يدى ، قطعة قماش بيضاء تجعل عباد الشمس يتمنى أن أنظفه بها . لكنه لا يطلب ذلك منى ولا يسألنى عن أمى - التى لم تكن تأتى أبدا إلى آخر الفناء - ولا عن جدتى ولا عن أخواتى ولا عن أحد . ولا يسألنى عن السيرك . يالروعة المنظر وأنا أقول بصوت عال " ادخلوا ياسادتى . تفضلوا " وأقول بصوت عال إن هذه هى آخر حفلة فى الحى ، بصوت عال لعل عباد الشمس يسمعنى فيجربى إلى الحلبة . بعد ذلك ، فى أى فقرة أشترك فيها -حتى فى فقرة الأسد الخطيرة - أقرر نظرى على الجمهور لعل أرى عباد الشمس بينهم . لا أراه ، ومن الجائز أنه يخاصمنى . أحيانا أذهب إليه وأنا أرتدى قميصى الأصفر أو وأنا أرسم شاربا ولا يهتم بى ، كما لو لم أكن أنا . يبدو لى أنه لا يخاصمنى أنا بالذات بل إنه لم يعد يتكلم ، لأن شيئا ما يحزنه . آه لو ذكر لى ذلك الشئ ، فأنا مثل جدى ، وفى بعض الأحيان أقوم بأعمال السحر . حيثذ أتحذ بصوت عال ، وحيدا ، عما حدث فى السيرك . أحضر معى كلبة فيلاميدا الصغيرة وأحكى لها عن كل ما حدث فى السيرك . الكلبة الصغيرة تنظر إلىّ وهى ترغب فى البكاء كعهدها دائما . وعندما أنتهى تولينى ظهرها وتنصرف . لا يهمنى ذلك ، فما أريده هو أن يسمع عباد الشمس الحكاية بأى شكل . هل سيسمعها ؟ أنا أحكى بصوت عال إلا إذا جاءت إحدى الجارات لكى تنشر غسيلها ، لأنها بعد ذلك ستقول لجدتى أن تعطينى مشروبا يهدئ أعصابى ، وجدتى ستعطينى المهدئ . ذات يوم أعطتنا جدتى - لى ولإخوتى - دواء ضد

الطفيليات . لم يكن أحد منا يريد أن يشربه وكادت أختاي أن تبكيا .
صاحتا " لا يا جدتى . لا يا جدتى " جاءت ماريا تريسا لترى من هذا
الذى يسئ معاملتنا وليس معنا سوى عجوز عمياء وأمنا فى هافانا .
أخذت زجاجة الدواء ، وكانت على وشك أن تسقينا إياه بنفسها .
توقفت فجأة وقالت " آه صحيح . كيف يحبون هذا الشراب ؟ إنه
زيت شعر " فى تلك الليلة لم تشعل جدتى شمعة وزنها كيلوجرامين
للقديسة لوثيا ، بل شمعة واحدة طويلة .

عندما وصلت فى هذه المرة إلى آخر الفناء كانت الشمس قد
قفزت لتوها على الجدار الطينى الذى يحيط بالفناء ، وكانت تضيئ
الأوراق الخارجية لشجر الخروع . كان ضوءها جميلا ، أصفر فاقعا
لونه . ركزت الانتباه ورأيت كثيرا من شجيرات الخروع قد نبتت
لتوها . هذه الشجيرات ذكرتنى بشجيرات أخرى ، ربما لأن الفراشة
الصفراء مرت بسرعة . من المؤكد أنها ذاهبة لموعد هام ولا تستطيع أن
تتوقف لتسلم على . فجأة لم أجدنى واقفا أمام شجيرات الخروع هذه ،
بل أمام شجر الخروع الذى أحبته دائما ، ذى الأوراق الكبيرة التى
تشبه المظلات والتى كنت أنظر إلى الشمس من خلالها . لم أجد
نفسى واقفا أمامها فى يوم عادى - لأنه لو كان يوما عاديا لما أضاءت
الشمس بلون أصفر خفيفا ولما أضاءت الجو والأرض والشجيرات ولما
كانت الحشائش ندية - . كان يوما شبيها بذلك اليوم فى الصباح .
مكثت أنتظر . من المحتمل أن تعود الفراشة وأن تقول لى إن شخصا
ينام مختبئا بين أشجار الخروع . بل عادت الفراشة وأخبرتني . كانت
الفراشة صفراء تلمع ، تشبه زهرة فوق زهرة ، تشبه أمى وهى فى

الحديقة ، تشبه شيئاً لا نظير له . رفعت الفراشة رأسى وقالت " لا تغضب منى وانظر إلىّ . إننى أنا صديقتك . متى ستتجول معاً فوق البيت ؟ متى سنخلق عالياً ؟ " كنت سأبتسم وسأقول لها " الآن حالا " . قالت " الآن لا يمكن . هناك رجل بين أشجار الخروج يناديك . إنه يناديك ويناديك " كان هناك رجل بين شجرات الخروج ينادينى . ماذا سأقول له عندما أراه فوق الحشائش وبه ثلاثة جروح فى صدره وفى عروقه الزرقاء التى تشبه الأنهار فى ذراعيه القويتين؟ " أمى فى هافانا " تقدمت دون خوف . هناك زهرة ضعيفة شاحبة تعيش بالكاد بين الأحجار قالت لزميلتها عندما رأتنى " هذا هو ملكنا " . سرت وأنا أنحى أوراق الخروج عن طريقى ، وأخيراً أصبحت وجهها لوجه لا أمام الرجل الجريح بل أمام عباد الشمس الذى نظر إلىّ فى عينى وقال " هذه هى الحرب التى كان هو يتحدث عنها . فى هذه الحرب سيأتى هو " الآن عليك أن تنهض مع جيشك ومع أطفال آخرين وتسير فى الدرب . " متى ؟ فى أى لحظة ؟ " لا أدرى . سيقول لك هو بنفسه . إنه على وشك الوصول . الحرب على وشك أن تبدأ " مكثنا نتبادل النظرات ونتذكر كل شئ ، كل ما يجب عمله . شعرت أن صدرى ينتفخ . شعرت برغبة فى أن أنادى " أيتها الزهور " ، شعرت برغبة فى أن تمر السحب على مهل فى السماء ، فى أن يمتد ظل الأشجار لكى يملأ الأفق ، أن تتوقف العصفير فى السماء ، أن تمشى الأشجار ، أن يداعبنا نسيم الصباح ، أن تصطف حولى الفراشات والدبابير والأشجار الكبيرة وشجيرات الخروج والأزهار وكل الطيور . سرت فى اتجاه بيتنا وعلمت فى تلك اللحظة

أننى يجب أن أمشى دائما بالقميص الأصفر وألا أنظر يمينا أو شمالا .
دخلت وجلست بجوار المائدة وسألت عما إذا كانوا قد طلبوا استدعاء
أمى بالفعل . عندما رأتنى جدتى وماريا تريسا -وكانتا تتبادلان
الحديث همسا فى أحد الأركان- انتفضتا رعبا . قالت ماريا تريسا
" يا ولد ، قل إنك أنت . لقد أفرعتنا " قالت ذلك ثم صمتت .
قالت إحدى أخواتى " ماذا به ؟ إن عينيه تلمعان " قالت الأخرى
" لقد أضاء البيت " ، لكنهم لم يقولوا شيئا عندما ارتديت القميص
الأصفر النظيف المكوى . لم يقولوا شيئا كذلك عندما عدت إلى
جوار المائدة وظللت أنظر وأنظر عبر النافذة .

الآن أفهم أن غموض أهل الحى ليس وليد اليوم بل هو من قديم
الزمان . نعم ؛ لأنهم خلال حفلات السيرك الأخيرة كانوا يصفقون بلا
حماس ، إذ كانوا يراقبون ما حولهم ، والكثيرون منهم كانوا
ينصرفون قبل انتهاء الحفلة . ظننت أن ذلك كان بسبب غياب أمى .
لكن لا ، فقد كانت أختاى تقلدانها جيدا وكانت ميزتهما أنهما
اثنتان . ظننت أن ذلك بسبب أن القميص الأصفر قد تمزق ، ولم يكن
ذلك هو السبب أيضا . الآن أفهم لماذا كانت الشوارع خالية خلال
تلك الأيام وأن هناك رائحة تفوح فى كل الجهات . إنها رائحة الخطر ،
رائحة المجهول ، رائحة المستقبل ، رائحة الحرب . لهذا كنت أخرج
مرتديا قميصى الأصفر ولم يكن يحتفى بى أحد ، لم يكن أحد ينظر
من النافذة إلا امرأة عجوز كانت تأمرنى بأن أعود إلى بيتى بسرعة .
قلت لنفسى " غير ممكن " وسررت لأننى علمت أن الكثيرين
يراقبوننى من خلال حديد النوافذ ويغمضون أعينهم لكى يروا حفلات

السيرك بعين الخيال . الآن أفهم السبب . إنها الحرب . ولو أنني ركزت الانتباه لأدركت أنه لا توجد ضوضاء فى الحى ، ذلك لأنه لا أحد يتحرك أو يتكلم داخل البيوت . إن الناس يجلسون أو يدخلون المطابخ أو الحجرات . ليست هناك عربات فى الشارع ولا باعة متجولون . إذا كان شخص ما فى الشارع صدفة والتقى بشخص آخر أو إذا التقيا أمام بيت أو إذا تصادف وجودهما كلٌّ أمام بيته فإنهما لا يتحادثان بل يتبادلان النظرات . أقصى ما يفعلانه هو أن يتفوها بكلمات لا يفهمها إلا هما . يشيران إلى حيث القرى الأخرى ويقول أحدهما " فى الليلة السابقة " ويرد الآخر " وماذا ؟ " " النهاية " أو " استسلموا فى الحال . هؤلاء الناس ليست عندهم مبادئ " أو " حتى الآن يقاتلون . انصت وستسمع صوت الطلقات " . يقولان كل ذلك همسا ، وإذا اقترب منهما شخص ما فإنهما يلتزمان الصمت إلى أن يعرفا من هو ، وحينئذ يتحدث الثلاثة همسا وباختصار أو يدخل كل منهم إلى بيته . أحيانا يقولون لأحد الأطفال " قف هنا ونبهنا إذا جاء أحد . عندئذ تصفّر أو تنادى على صديق لك " . وحيث يوجد جهاز راديو يلتف حوله ثلاثة أشخاص أو أربعة يستمعون إليه وهو شبه مغلق . أحيانا يبدو أن جهاز الراديو يقول شيئا هاما لا يملكون معه إلا إطلاق صيحات الفرح ، وتأخذ المرأة سلتها وتذهب إلى بيت الجارة التى ليس عندها راديو لتطلب منها شيئا ، وبعد لحظة قصيرة تسمع هناك صيحات الفرح . وفى أحيان أخرى يرفع الناس أذرعهم إلى أعلى يلوحون بعلامة التهديد .

الآن نعم ، أعرف أن كل ذلك يحدث وأنه استمر فى الحدوث منذ أيام . الأشخاص الوحيدون الذين يسرون فى الشارع -كما لو كان ملكهم ، اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة- هم الحراس . حراس كثيرون موجودون الآن فى المدينة ليلا ونهارا ، وهناك عربات تنقل الحرس من مكان إلى آخر فتثير الغبار . إذا مروا ليلا أسمع جدتى تحصيهم : "سبعة ، ثمانية ، تسع عربات . يا إلهى !" عندما يرى الناس الحرس قادمون يبدأون فى الحديث عن السيرك أو عن أنهم يجب عليهم أن يغتسلوا أو أن يفعلوا شيئا ما فى البيت . الأمهات يدخلن أولادهن البيوت ويغلقن الأبواب . على أى حال يدخل الحرس إلى بيت ما -دون دعوة- وهم يركلون الباب بأقدامهم . عندما يفتح لهم الباب يفتشون كل شئ ، يقلبون كل شئ رأسا على عقب . لا أحد يذهب على الفور لرؤية ما حدث أو لمعرفة ما إذا كانوا قد اعتقلوا شخصا ما ، بل يذهب الناس بعد فترة ، بعد ثلاث أو أربع ساعات . فى بعض الأحيان يقول الجيران لشخص ما "عليك أن تهرب بأسرع ما يمكن" وهذا شئ آخر يحدث : أهل المدينة فى هذا الحى ينزحون . الرجال ينامون ليلا فى بيوتهم ثم لا يصبحون وهم فيها ، كما لو أنهم لم يوجدوا قط . لا أحد يسأل عنهم ولا يفتقدهم أحد . اختفى من حيننا زوج مارييل وابن فيلاميدا وأخوة كارولا الاثنان وصبى الجزار . ويأتى لتحصيل فاتورة الكهرباء الآن رجل عجوز . منع الناس أولادهم من الذهاب إلى المدرسة ، ولا يرسلوننا الآن لشراء طلبات ، ولا يريدون إلا أن يبقى كل واحد منا فى فناء بيته . كل الأولاد أصبحوا مطيعين ويمشون على أطراف أصابعهم وهم متحفظون .

يحذروننا من أن نقول أى شئ مما نسمعه وإلا أكلت الفئران ألسنتنا .
نحن لا نعرف أى شئ عن أى شئ ولا من هو فلان ولا أين يعيش
ترتان . كل ذلك ، كل ذلك من أجل الحرب ، الحرب التى تقترب
منا ، الحرب التى على وشك أن تندلع ، وأمى فى هافانا . أصبحت
السما رمادية . كما لو أن هناك سكاكين فى الجو . لا أحد يريد أن
يتنفس . كل الناس يتظرون أن تبدأ الحرب . أن تبدأ بين لحظة
وأخرى .

مكثت جالسا بجوار المائدة أنظر من النافذة وأفكر فى الأشياء
التي أفكر فيها ، أشم ، أنتظر . جدتى وأخواتى يراقبون ، يستقبلون
الجارات ويتهامسون معهن . نحن الأربعة نتمنى . نتمنى أن يفتح
الباب وتظهر أمى وقد عادت . أنا أتخيل أنها ستأتى مرتدية بلوزة
بيضاء . أحيانا نظل جميعا بلا حركة ، مترقين ، متبهين إلى صوت
جلبة نتوهم أنها حدثت . بعد ذلك يتضح أنه لم يحدث أى شئ
فنتأنف نشاطنا العادى . هناك دائما شمعة تشتعل أمام تمثال القديسة
لوثيا . تسألنى أختاى " ألا تخاف ؟ " يسألانى ذلك وهما ممسكتان
بعضهما بعضا وترتديان ملابس حمراء . أجييهما " لا " . كان من
الممكن أن أجييهما بعبارة " من ماذا ؟ " . لأننا ، مم نخاف بالضبط ؟
لا ندرى . إلى أن تأتى الحرب فنحن لا نعرف مم نخاف لأننا لا
نعرف ما هى الحرب . لكننى أعتقد أننى خائف ، أننى أشعر بشئ من
الخوف ، الخوف من شئ ما . ربما كان ذلك الانتظار الذى لا ينتهى .
قالت لنا جدتى إن الحرب ليست لعبة ، هى آخر شئ فى الدنيا . هى
نفسها لم تشهد حربا ، حربا حقيقية ، لكن أمها رأت حربين :

واحدة استمرت أربع سنوات والثانية استمرت عشر سنوات وأنها اشتغلت كما يشتغل حمار الحرث. تقول إن هذه الحرب -رغم ذلك- ستكون أسوأ كثيراً ، فالأسلحة الآن ليست مثل أسلحة زمان ، فالإسبان كانوا يحاربون بالبنادق وكان الكوبيون يحاربون بالسيوف. كان الإسبان أشرا ، أشرا جداً ، لكن هؤلاء الناس أسوأ. لقد تحولوا إلى مجانين وقتلة ولا بد أن الله سيرسل عليهم عذاباً كبيراً بسبب كل هذا الظلم. لم يعد هناك مفر من القتال ، لكنهم مسلحون. إنهم مجرمون ولا يهمهم قتل الأبرياء ، ومن المؤكد أنهم سيرسلون الطائرات لكي تقصفنا كما فعلوا في الشرق. الشيء السيئ في كل ذلك هو أننا -جدتي وأختاي وأنا- أبرياء. قضوا على الناس في الشرق ، لكن ذلك لم يفدهم في شيء فهم يخسرون. وكما لو كانت نذورها قليلة نذرت جدتي نذراً آخر. نصحتنا فيلاميدا أن نشتري كاكاو وبسكويت وملحاً ولبناً مكثفاً. قالت جدتي "إن أول ما ينفد في الحرب هو الملح ، والملح هو الأهم" ، وقالت مارييل إنه لا بد من أن نعمل ملجأ. بعد أن سمعتها أختاي قامت بإحضار كل المراتب من على الأسرة ووضعتها فوق المائدة وعملت منها ملجأ. فوق كل ذلك وضعنا المخدات والأجولة ثم الطشت وبه ماء. هذا شيء طيب ، فالرصاص والقنابل ستبرد إذا ما غطست في الماء ولن تقتلنا. دخلنا كلنا تحت الملجأ انتظاراً لقدم الطائرات. لم يكن أحد منا قد رأى الطائرات أبداً ولا حتى جدتي ، لأن الطائرات لا تعبر من هنا. لم نكن قد رأينا الطائرات حتى في الأفلام ، لأننا لم نكن قد رأينا أفلاماً. لكننا ستعرف على الفور على الطائرات بمجرد وصولها.

قالت لنا ماريبييل : إن الشيء الوحيد الذى ينقذنا من الحرب هو الملج ،
أما إذا كنا فى الخلاء فعلينا أن نحتمى تحت شجرة أو أن نمشى عكس
اتجاه الطائرة .

كان كل شئ مظلماً فى الملجأ . لم نكن نرى أنفسنا . كانت الدنيا
أكثر ظلاماً لأننا الآن لا نفتح الأبواب ولا النوافذ وأصبحنا نغطى
الشيء . كان الملجأ يتسع لنا بالكاد وما زالت أمى لم تأت بعد . بعد
ذلك لم يكن المكان مظلماً لأننا أدخلنا تمثال القديسة لوثيا ، وأوقدت
لها جدتى شمعة شاحبة . قمنا بتسخين الكاكاو على نار الشمعة .
كانت جدتى تدخن سجائرها وكانت تشعل السيجار من الشمعة وهى
تخفى النار بكلتا يديها . بحيث أن الطائرات لن تعرف أبدا أين نخبئ
ونحن نصلى . ومن كثرة المكث فى الظلام رأينا . رأينا كل شئ .
أخواتى ينظرن إلى بين الحين والحين ، وأحياناً تنظر إلى جدتى ،
وأحياناً تنظر إلى الدجاجة الملونة . الشيء الذى لا ينظر إلى هو تمثال
القديسة لوثيا . وأنا أنظر إليهم جميعاً . جدتى استعادت فجأة هوايتها
فى الحكايات بصوت منخفض جداً . إنها تتحدث عن الأعاصير
والعواصف وفيضانات الأنهار وحكايات من زمن أن توفى ناس من
عائلتها ، والأشياء التى فعلتها السيدة فلورندا لكى تغادر الريف ،
وحكاية الضباب الذى لف هذه المدينة ذات مرة فى يوم كانوا ينتظرون
فيه قطارا يقل فرقة سيرك . تقول إنه نفس الضباب الذى يغطى المحطة
الآن . أنا أصغى إليها لأن ذلك يعجبني ، وأتمنى أن تبدأ فى تمشيط
ضفائرها ، لكن ضفائرها الآن قد بهت لونها ولا تكاد تكفى لعمل

لغة واحدة حول رأسها . الشئ الآخر الذى أفعله هو التفكير فى عباد الشمس وهو فى الفناء ، وفى شجر الخروج وفى الفراشة الصفراء وفى الرجل الجريح . وبما أننا لا نخرج من المخبأ فلدىّ وقت لكى أتذكر كل شئ . لكى أتذكر كل شئ ثلاث أو أربع مرات . لقد فكرت فى النخلات خمس مرات حتى الآن . أتذكر نفسى وأنا أتحدث مع الأزهار ، وهى توافق على ما أقول ومستعدة للسير ورائى لاستهلال عهد جديد ولزراع الأعلام ولحرق جذور القصب . لكن علينا أن نتنظر . الشئ الوحيد الذى يمكننى أن أفعله هو أن أظل متنبها إلى أى صوت كبير أو صغير وأن أحاول معرفة هل هو صوت عباد الشمس أو صوت الفراشة الصفراء أو صوت الرجل الجريح أو صوت أمى وهى تقرع الباب بخفة وهدوء ونحن نجرى لنفتح لها لتدخل بسرعة البرق وتلجأ إلى المخبأ . كانت العجوز فيلاميدا هى التى جاءت ملتفة بملاءة ، وكان أنفها أطول من أى وقت مضى "سيهاجمون المدينة بين لحظة وأخرى . إن الحرس يستعدون . لن يتجاوز الأمر غدا . هل سارى ابنى ؟" قالت جدتى "ولم تصل بعد استيلا . هل دمروا الكبارى ؟ يا إلهى يا إلهى" .

هكذا جاء دورنا أخيرا . علينا أن نتنظر طوال الليل لأن فيلاميدا تقول إن الهجوم يتم دائما فى الفجر . لن نستطيع النوم هذه الليلة . لن نستطيع أن نغمض أعيننا ولا لحظة . خاصة أنا ، لأننى أريد أن أرى الحرب منذ البداية . عادت فيلاميدا وقالت إن الذى سيقود الهجوم هو

القائد الذى اسمه بدرو أنطونيو "به ثلاث جروح فى صدره ، وذراعاها فيهما عروق زرقاء كبيرة" هناك قصص أخرى تروى عنه بصوت منخفض جدا ، همسا . إنه من أشهر المتمردين . شخص ثائر جدا . تقول النسوة العجائز إن هجومه يبدأ دائما فى الفجر وينتهى دائما قبل الظهر وأنه - بعد ذلك وهو متصر - يصعد على حجر مرتفع أو على نخلة ويبتسم ويجمع الشعب المحرر حوله فى أجمل شارع ويلقى خطابا . بمجرد سماع كلماته يشفى المرضى ويستعيد العجائز شبابهم وتتحسن حالة الشوارع ويقرر الخطاب الزواج . هذا ما تقوله العجائز ، ويقولون إن شخصا هكذا فقط هو الذى يستطيع أن يحرر مدينتنا بضبابها القديم الكثيف الذى يغطى محطة السكة الحديد والذى تعيش فيه حمامات رمادية ، وحتى لو كان والد الحمام أيضا فإن الحمام الصغير يخرج رماديا . تقول جدتى إن هذا صحيح وإن كل ما يقولونه عنه صحيح أيضا ، إن بدرو أنطونيو يغطى أصابعه شعر كثيف وبه شامة على جبهته وأسنانه صغيرة . إنه قادر على فعل المعجزات ولا شك فى ذلك . لا بد أن قديسا ما يساعده وينير له الطريق . إنه يرتدى الزى الأخضر ويطلق لحيته . يتكلم قليلا لكنه ينظر كثيرا ، ومن بريق عينيه يعرف الناس ما يحدث . يصطف الرجال ويتحولون إلى جنود له . إن بدرو أنطونيو نفسه هو الذى سيهاجم مدينتنا غدا ، ونحن فى حاجة ماسة إلى الحرب لأن كل شئ هنا رتيب وحزين والناس لم تعد تضحك حتى فى حفلات السيرك . أخيرا سيحدث شئ حقيقى هنا . هاجم الثوار القرى الأخرى وحرروها . إلا هذه المدينة . لقد حرروا قرية ثولوتيا مرتين . إن هذه المدينة هى أحوج ما تكون إلى حرب ، نظرا للملل الذى خيم هنا منذ

أن توقفنا عن إقامة حفلات السيرك. وأمى لم تصل بعد. أمى لم تصل. لهذا لم تبدأ الحرب.

أفضل شئ هو أن يكون الإنسان سوبرمان كما يحدث فى مسرح العرائس. لأننى لو كنت سوبرمان وتحرش أحد بأخواتى أو قال لهم صاحب الدكان الكلمة النابية التى قالها لهم لكنت أخلع عنى ملابس الشخصية الثانية وأمتلك القوة والشجاعة. وفى يوم آخر يكون الناس يضعون ديناميت لتفجير الكوبرى فأطير وأرى بعينى أن ذلك كمين معد للمتمردين وهم قادمون فى الطريق فأذهب بسرعة وأحمل الكوبرى وأحلق به عاليا ثم أهبط وأضعه فوق رابية حيث لا يوجد خطر. أحضر كوبرى آخر يمر عليه الثوار. بعد ذلك أعيد كل شئ كما كان والحرس لا يعرفون ما فعلت. أو يكون الثوار سائرين وعلى وشك الوقوع فى كمين فأصل أنا وأعطل مدافع دبابات الجيش بقوتى وأصهر طلقات الرصاص بعينى وأقذف الطائرات فى البحر. يحينى الثوار ويقدمون لى الهدايا. يقول الجيش "ماذا يحدث هنا ؟ إن شيئا غريبا يحدث هنا" يرسلون قوات أخرى ودبابات وطائرات وسفنا ورشاشات ويقول الثوار إنهم لا يستطيعون عمل أى شئ إذا لم أظهر أنا. لكننى أظهر فى اللحظة الأخيرة التى تشتد فيها الحاجة إلى. أدخل فى باطن الأرض ، وأخرج ومعى حمم بركانية ملتهبة. أصنع سدا بين الفريقين لا يخترقه الرصاص. أجعل الحمم تنصب على الجهة التى فيها الحراس وتصيب الطائرات فى الهواء وتغطى الدبابات. أعمل دوامات للسفن فى البحر لكى تغرق. كسب الثوار الحرب وصفقوا لى. أمى تحييهم وتقول لهم إنها أمى ويقرعون الباب.

"هل يقرع أحد الباب؟" نظرنا جميعا إلى بعضنا البعض. "هل سمعت يا بنى؟ هل سمعتن يا بنات؟ هل سمعت يا قديسة لوثيا؟ نعم سمعنا جميعا وقد مدت الدجاجة الملونة رأسها. قرعوا الباب. إنهم يقرعون الباب مرة أخرى. رائحة الزهور وصلت حتى المخبأ. قرعوا الباب مرة أخرى لكن برقة لا تكاد تشعر أحدا. "معقول؟ هل هي استيلا؟ يا إلهي" هل هي أمى؟ "إنها أمى والزهور فى شعرها. أمى بعينها وقد وصلت مثلجة من هافانا، بحقائبها لا بحقيبة واحدة وقد وقفت فى منتصف الصلاة مبتسمة وذراعاها مفتوحان. قالت "ها أنذا"، لكننا لم نخرج لاستقبالها. فقط نظرنا إلى بلوزتها البيضاء والجونلة الجديدة. خرجت جدتى أخيرا ووصلت حبوا إلى حيث تقف أمى. اضطرتها إلى الانحناء وعادتا معا حبوا إلى المخبأ. كنت وأخوتى فى زاوية من المخبأ. تنظر إلينا أمى وتبتسم. تنظر إلينا وتنظر. تبتسم وتبتسم. حتى عانقناها نحن الثلاثة. رائحتها جميلة. وهى تضحك. قالت جدتى "صمتا" وتحركت المائدة. "أحضرت لكم أشياء كثيرة" لكن رائحة أمى جميلة. "كيف جرؤت يا ابنتى؟ هل هناك ثوار على الطريق؟" "هل تريدن كاكاو ساخنا يا أمى؟ نحن الذين أعددناه دون أن يلسعنا" "أنتما؟ أصبحتما أنستين. هاتوا أذوق. دعونى أراكما. لقد كبرتما. شعركما طويل. كيف تصرفتما؟ هل ساعدتما أمى؟ تعاليا قبلانى مرة أخرى. يا لجمالكما" أختاى تضحكان وجدتى تقول "صمتا". أمى تنظر إلى وحدى. كل نظرتها لى ولا أدرى لماذا ليس معى الدف

الصغير فى يدى . ستعانق . الآن حالا . جدتى تقول " استيلا ، بهدوء . لا يجب عمل ضوضاء " أمى تعانقنى . ولدها الحبيب . هل تصرفت بشكل لائق؟ هل تشاجرت؟ هل أكلت جيدا؟ هل كبرت؟ تضمنى إلى صدرها ونظّل هكذا ، لأننا فى تلك اللحظة نفسها نسمع صوت أول طلقة . بدأت الحرب . الحرب بعينها .

جاء صوت الطلقة الأولى وبدأت الحرب . " بوم . بوم " لم نكن قد سمعنا صوت طلقة من قبل إلا فى مسلسل مونكادا . زجاج البيت هو الآخر لم يكن قد سمع صوت طلقات ، ولا المرأة . توقفت أنفاسنا وتشابكت أيدينا ، وكان الزجاج يهتز ويهتز . صوت الطلقة يذهب بعيدا فى الشارع ويلف ويلف . لقد نجونا من هذه الطلقة . بينما جدتى تصلى " بوم " نسمع صوت الطلقة الثانية . أقوى من الأولى . فوق رؤوسنا بالضبط . ربما داخل البيت أو تحت السرير . دخلنا نحن الخمسة دفعة واحدة فى المخبأ وقلوبنا تدق . تسأل القديسة لوثيا " ماذا حدث؟ " وتوقد لها جدتى شمعة . " إنها الحرب " " يا إلهى! " " بوم بوم " صوت طلقات مجتمعة . يخيم ظلام الليل . إنه الفجر أم أنه الصبح؟ الطلقات كل طلقة وصوتها . كل الطلقات فوق سطح المنزل . جدتى تخلط بين صوت الرصاص والرعد فتقول " يا قديسة باربارا يا مباركة . فليحمنا الرب " تقول أمى " لقد بدأت الحرب " وتصلح من وضع الزهور على شعرها . فى الخارج كان صوت الطلقات يغطى كل شئ . لا يسمح لأحد أن يفكر أو أن يتكلم . لا يسمح إلا بسماع الطلقات . إنها طلقات شديدة . البيت

يهتز. الزجاج يرتج. المرأة ، المدينة بكاملها ، القديسة لوثيا. فى
الناحية الأخرى من الجدار هناك من ينادى ويقول "إنهم الثوار"
الثوار ! الثوار يهاجمون المدينة. أخيرا سيحدث هنا شئ مختلف.
سيحررون المدينة. يقول الصوت نفسه "لا يطل أحدكم إلى الشارع
مهما كانت الأسباب. ابقوا تحت السرير ولا توقدوا المواقد. كلوا
كاكاو جافا. اخلطوه بلبن مكثف ، لكن احترسوا حتى لا يختنق
الأولاد" أنا والحمد لله أرتدى القميص الأصفر وأمى تضع زهورا فى
شعرها. جدتى وأختى يرددن دعوات بسرعة فائقة لا أفهم منها إلا
"المسيح الذى فى بطن أمه" ، وأفكر فى عباد الشمس وفى الخروج
وفى الأعشاب وفى الرجل الجريح وفى الزهور التى أتخيل أنها تنظر
إلىّ وأنها تريد أن تكلمنى. لم أكن أتخيل أبدا أن إطلاق الرصاص
يكون بهذا الشكل. لكن آذاننا تأخذ فى التعود وقلوبنا تأخذ فى
التعود. أنا وأمى نتبادل النظرات لأننا نعرف -الآن فقط نعرف - أن
الحرب ليست فى المخبأ ولا حتى فى فناء البيت. بل فى الشارع ونحن
قابعون هنا ولا نرى شيئا بعد أن انتظرناها طويلا طويلا. هذا غير
معقول ! وخرجت أعدو وأصبحت فى الشارع فى عز الحرب .
لا يوجد شئ. لا أرى أحدا ولا كلابا ولا قططا ولا دوامات على
الناصية. فقط إطلاق الرصاص. عصافير المدينة والفراشات
والصراصير والذباب وفرس النبی وكل ما له أجنحة يحوم مذعورا
فوق البيوت. ربما لو ذهبت إلى آخر الشارع أرى الحرب ، لكن
شخصا ما يملؤنى عبيرا ويأخذنى من أذنى ويدخلنى المخبأ من جديد.
تقول جدتى عندما ترانى "يا لقوة أعصاب هذا الولد !" وتسألنى

أختاى "هل قتلوك؟" تسألنى جدتى وهى باكية "ماذا رأيت يا وجه الماعز؟" "لا شئ. لم أر شيئا. الحرب لا ترى ، بل تُسمع". نصغى. نعم ، إنها تسمع. يا للضوضاء! أقوى من صوت الرعد والعاصفة. من حين لآخر يخيل إلينا أن شيئا ثقيلا يوشك أن يقع فوق رؤوسنا رغم المخبأ ، ونشعر ببرد يدخل إلى أرجلنا. برد بارد جدا. هذا هو الجانب السيئ فى حرب كهذه ، فى حرب فى هذه المدينة الصغيرة والإنسان طفل. ماذا سيحدث بعد هذه الحرب؟ الحرب : ما فائدتها؟ تقول جدتى "سيتهى الظلم". نواصل الاستماع إلى صوت الطلقات ونحن فى صمت. نسمع ونسمع. لم أشعر قبل ذلك أننى صغير. بعد لحظة شعرنا بالملل. نامت الدجاجة الملونة ، وتذكرت أمى أن حقائبها لا تزال واحدة منها فى وسط الصالة والأخرى فى الشارع ، وهى الحقيبة التى بها النقود. "فى الشارع؟ مع وجود هذا العدد من اللصوص؟" أحضرت لنا هدايا. أمى تتخلص من جدتى وأخواتى اللاتى يجذبنها من ملابسها ، وتخرج حبوا. "استيلا ، يا بنت. دعى هذا" تعود أمى ومعها الحقائب ولبة الجاز والفانوس ودورق اللبن والصندوق الذى يحوى متعلقات جدى وحذاؤها الأخضر والمرآة والمقص ومخدة لكى تجلس عليها جدتى ومخدة أخرى تضع عليها رأسها وأوراق تبغ. "قلت أستغل فرصة الخروج من المخبأ" تحضر كاكوا ساخنا أيضا ، لكننا لا نريد أن نشرب. تفتح أمى الحقائب وهى تقول "انظروا ، هذه الحرب لا يدرى أحد كم تستمر. قد تستمر يومين أو أسبوعا ، والآن ربما تسقط قبلة على الموقد". تمر الأشياء من يد إلى أخرى: حذاء

جدتى المريح وقماش لأخواتى وجورب لى وأطباق ألونيوم كالتى
عندنا لكن جديدة ، ناموسية ، فساتين رمادية وسوداء ، أشرطة
للشعر. وتعلن عن أشياء أخرى كثيرة - بصوت خفيض لا يكاد
يسمع - موجودة فى الحقيبة الأخرى. نرى كل ذلك ونقيس ونقبل أُمى
ولا نكاد نشعر بإطلاق الرصاص الذى اشتد. وجدنا نوعا جديدا من
البسكويت. استيقظت الدجاجة الملونة فانتبهت جدتى وقالت "إذا لم
يتنصر الثوار ننام كلنا على بطوننا وألقى أنا حولكم وعلى صدوركم
صلصة طماطم حتى إذا ما جاء الحراس يقتلون الناس نجونا". قالت
أُمى "وهذه الملاءة للسريـر الصغير" "دعك من هذا يا استيلا. الشئ
الذى يجب أن تفعله هو الدعاء ، الدعاء الكثير فهو يساعد كثيرا
ويخلص الإنسان من الهموم" ثم قالت لإحدى أخواتى "وأنت ،
لماذا لا تصلين مع أختك ؟" "لأننى ليس معى صليب" "وأنا
مسيحتى تنقصها ثلاث حبات". فى تلك اللحظة قرعوا الباب.
الحرس !! "هل نرش على أنفسنا صلصة الطماطم ؟" "أنا كارمن
تريسا" "يا للجرأة يا ابنتى! يا لفرعنا ويا لشدة إطلاق الرصاص!"
"لقد استولى الثوار على المدرسة" "المدرسة ؟" "الآن ؟"
"هكذا بسرعة ؟" "ولماذا ؟" "يجب أن يستولوا على كل شئ"
قدمنا لها الكاكاو. لم تكن كارمن تريسا تعرف أنه ساخن فشربت
بسرعة واضطربنا إلى النفخ فى لسانها لأنها لو شربت ماءً بارداً
فسوف تتفخ معدتها. قالت "لقد فاض النهر" "لماذا ؟ مع أنه لم
تهطل أمطار" "ذلك بسبب إطلاق الرصاص. لقد أزهرت كل
النباتات ، وقد أصبح ابن ماريـا الأصم يسمع الآن". سألت أُمى

"ومن الذى يقود الهجوم ؟" "اسمعوا صوت الرصاص . يا لشدة الصوت ! بدرو أنطونيو" "بدرو أنطونيو ؟" "وكيف صوت الرصاص ؟" "انتبهوا جيدا . اسمعوا صوتا شبيها بالموسيقى بعد كل انفجار . عندما يكون الصوت هكذا يكون بدرو أنطونيو هو الذى يقود الهجوم" "إذن فقد نجونا" . فتح الباب وأطلت ماريسول "لقد استولوا على الكنيسة" "الكنيسة ؟ وهل يجب الإستيلاء على الكنيسة أيضا ؟" عبر الحائط كنا نسمع صوت فيلاميدا "اقتصدوا فى الكيوسين . لقد انقطع النور" "أهل الشرق يطلقون كلمة كيوسين على الضوء الباهر" "أنا لا أفهم لماذا لا يبقى أهل الشرق فى الشرق" . قال زوج ميكائيل "لقد دمروا الكوبرى . الآن لا يستطيع الحراس إرسال تعزيزات" عبر الحائط الآخر سمعنا صوت العجوز فيلاميدا "يا إلهى . اسمعوا صوت الرصاص . لقد انكسرت كل الأكواب الزجاج" انصرفت كل من ماريسول وكارمن تريسا . عادتا فى الحال . "لقد دخلوا مبنى البلدية" . قالت كارمن تريسا "استسلم العمدة وقال إنه لا يمانع" قال زوج ميكائيل "لقد اعتقلوه" . قالت ميكائيل "عليه الآن أن يدفع ثمن كل أفعاله" لم تعد أمى تستطيع أن تصبر أكثر من ذلك . عدلت من وضع الزهور على شعرها وخرجت من المخبأ ، لكن علىّ أنا أن أبقى هنا . علىّ ألا أتصور أننى سأخرج ، بل علىّ أن أساعد بالدعاء . توقفت أمى عند الباب ونصف جسمها داخل البيت والنصف الثانى فى الخارج . تأملت المنظر وتحادثت مع النسوة الأخريات ومع الرجال الذين كانوا فى بيوتهم يطلون أيضا من ناحية ما وهم يختبئون والرصاص فوق رؤوس الجميع

والطيور والهوام تتساقط من السماء كما لو كانت مطرا. " ادخلي يا استيلا ". قالت أمى " إنهم ينادون على الطائرات باللاسلكى. سيقصفون المكان بالطائرات لأن الحرس ينهزمون على ما يبدو " يا إلهى احمنا " ما معنى اللاسلكى؟ " بدأ نور الفجر يتضح ، تتخلله طلقات الرصاص ، وأمى تركتني أقف بجانبها. قالت كارولا وهى تطل من نافذة بيتها "اعتقلوا كل الخونة " اقتادوهم إلى السجن " إنهم ثلاثة من البيض وواحد أسود. فيهم نونيث. من كان يصدق؟ " لكن نونيث ليس أبيضاً ولا أسود. إنه أسمر " أسمر؟ نونيث ليس أسمر ، بل أبيض " أشعلوا النار فى مصنع التبغ ، ومحلات مودا اشتعلت من نفسها " تقول خوليا إن أمبروسيو العجوز واقف على الناصية ومعه سيف يهاجم النباتات وأن الصدفة هى التى جعلت الرصاص لا يصيبه " أراد فيليثيانو أن يدخله إلى بيته لكنه لم يستطع ". سيشرق نور الفجر. " لقد فجروا كوبرى آخر. الآن لا يمكن أن تصل تعزيزات من بلاثيتاس ولا من مانيكاراجوا " الآن يهاجمون المعسكر. المعسكر نفسه. إن الثوار لا يهابون أحدا " المعسكر؟ هيا ، فليصل الآن كل الناس وأنت أيضا أيها العفريت. اترك أملك العنيدة وتعال لتصلى " الساعة الآن السابعة " وهذا الضجيج ما هو؟ ما هو يا إلهى؟ " الطائرات. الطائرات. طائرة كبيرة وطائرتان صغيرتان. " تعالى يا استيلا ، تعالى " يا رب يا رب ينتهى هذا على خير. يا رب لا يموت إلا أشخاص قليلون " تجرى أمى وتضيف كمية أخرى من الماء على الطشت الذى فوق المخبأ وتدخل كارمن تريسا وتقول " لقد وصل

ثوار آخرون " تنصرف . تدخل كل من كارولا وبريجيدا وخوليا والعجوز فيلاميدا وميكائيل . تتسائل جدتي " و من أين يخرج هؤلاء الثوار الكثيرون ؟ " "إنهم أبناء وأزواج وأخوة ناس كثيرين " تسأل فيلاميدا " وابني ، هل رآه أحد ؟ " " لا " " أنا أظن أنني رأيت صبي الجزار " "صمتا يا أختي " إن الثوار يطلقون النار على الطائرات ، والطائرات تقصف الثوار . "ولماذا لا يختبأون خلف شجرة أو خلف عمود نور ؟ " "مدد يا عذراء الرحمة . ليصب الثوار أهدافهم بدقة " "إنهم يصيبون أهدافهم بدقة " "لتكن الدقة أكثر " الطائرة الكبيرة ترمي دخانا وإحدى الطائرتين الصغيرتين تغادر خلفها . الطائرة التي بقيت هي الأخطر . "أنا أعرف النذر الذي يجب أن أقدمه : لن أمسّ التبغ بعد ذلك . خذوا عقب السيارة هذا . ألقوه " المعسكر على وشك السقوط في أيدي الثوار بين لحظة وأخرى . قالت أمي "انظروا ، انظروا . واحد من الثوار يمشى في الشارع " قالت ماريسول "وهناك واحد آخر " قالت كارمن تريسا "انظروا ، هناك اثنان فوق ذلك السطح " قال واحد من الثوار "ادخلوا بيوتكن يا سيداتي " ميكائيل وزوجها الحالى جاءا مسرعين "لقد سقط المعسكر . لقد سقط المعسكر " "من الذى قال ؟ " "واحد من الثوار وهو يقفز في آخر الشارع " "لقد رفعوا الراية البيضاء ، الراية البيضاء علامة الاستسلام " صاح الثوار وهم في سيارتهم العسكرية الكبيرة "ليبق الجميع في بيوتهم " "اسمع أيها الضابط ، من الصعب القتال في هذه المدينة ، فأهلها لا يصبرون " الناس يطلون ويطلون من الأبواب والنوافذ وعلى ألواح خشب ينزعون منها المسامير . أنا أيضا

أطلّ. أطلّ كثيرا وكذلك أمى. كل الناس موجودون الآن خلف الأبواب أو بجوار النوافذ ، مستعدون للخروج إلى الشارع. لا ينتظرون إلا الإشارة. حتى أختاي قد جاءتا بجوارى ونحن فى بيت ماريا تريسا ، لا أدرى منذ متى ، لكنهما كانتا وراء كل الناس مستعدّتين للخروج جريا. انتهى صوت الرصاص. فى البداية لم نفطن لذلك. كنا نمشى على أطراف أصابعنا متيقظين. أمى هى التى ذكرتنا "وصوت الرصاص ؟" الجميع ينصت. صاح الناس "انتهى ضرب النار" وأحدثوا جلبة داخل البيوت. "هل يمكننا أن نخرج ؟" "لم يقولوا نعم" "ولم يقولوا لا" "يجب أن نكون مطيعين" صممتنا وخيم الصمت الكامل. الصوت الوحيد الموجود هو صوت الناس وهى تستمع. سمعنا صوت الأبواب والنوافذ تفتح. الناس كلها تتأمل الشارع. فجأة رأينا ضوءا مختلفا ينير كل شئ. ظهر النور من خلف الأسطح وملا الشارع ثم هو الآن فى كل مكان ، يجعل النهار أكثر وضوحا. إنها العلامة.

صاح الناس "إييسيه" وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصراعها وألقى الناس بأنفسهم إلى الشارع وأذرعتهم مفتوحة والمناديل فى أيديهم. صاح الناس وتقافروا وهم لا يدرون إلى أين يسرون:

- لقد استسلموا. لقد نجونا.

- فاجأنا مقدم الحرية ولم نزين المدينة بعد.

- أحضروا الزهور وأكاليل الغار والصور والأشرطة الملونة والرايات والأجراس. استدعوا عازفى الموسيقى.

- اخرجوا. الآن يمكنكم الخروج والرقص والضحك وعمل
إضراب عام. اخرجوا ومعكم نقود للدواء والتبرعات للحرب. اليد
فى اليد. انظروا إلى الثوار. عانقوهم. المسوهم. قبلوا لحاهم. قدموا
لهم الغذاء والكساء والهدايا.

- هيا اقفزوا وارقصوا ، فقد تغيرت الدنيا تماما .

كل الناس والبيوت وأعمدة التيار الكهربائى قفزت ورقصت من
الفرح ولم تستطع كبح جماحها .

كانت النساء أول من خرج وقد صبغن شفاههن ووضعن شرائط
فى أعناقهن وملأن أيديهن بالزهور وهن يصرخن ويصرخن . لقد
دفعن أمامهن الرجال والأطفال والعجائز . أمامهن كلهن كانت أمى
تتقدم الصفوف بجونلتها الحمراء التى بدت كشعلة تتحرك هنا وهناك
وبحذائها الأخضر ، وقد تزينت كما لم تتزين من قبل . أخواتى
ارتدين على عجل ملابس جديدة جاءت من هافانا . ربطت كل واحدة
منهما شريطا على خصرها وأعطت الطرف الآخر من الشريط لجدتى
لكى تتبعهما -ودجاجتها الملونة تحت إبطها- دون أن تصطدم بأحد .
بعدهن خرجنا نحن ، وأنا الآن موجود فى الشارع أقف على رجل
واحدة مرتديا قميصى الأصفر ، أتأمل كيف تبتسم النساء وهن يسرن
فى رفقة الثوار دون أن يكونوا أزواجهن أو إخوتهن . ولا أحد
يلومهن ، بل على العكس يدعونهن إلى اصطحاب الثوار إلى البيوت
وتقديم الحلوى والفطائر لهم وإعطائهم علب اللبن الجاف لاستعمالها
أثناء السفر . أرى الرجال يصافحون الثوار ويعانقوهم ويتبادلون معهم

الربت على الأكتاف. ينظرون إلى البنادق ويريدون أن يتعلموا كيف تضرب. أما نحن الأطفال فقد وضعنا حول أعناقنا أطواق والأساور، وكانت العجائز ينتقلن من مكان إلى آخر ومعهن الطعام الساخن ولم يكن يرتدين الملابس السوداء أو الرمادية كعاداتهن، بل جونلات واسعة زاهية الألوان. يحدثن النساء سرا فيصغين ويذهبن مسرعات إلى بيوتهن ويعدن وقد ارتدين جونلات واسعة حمراء فاقعة أو خضراء أو زرقاء أو صفراء أو بيضاء ناصعة أو مطبوع عليها ثلاثة أو أربعة ألوان. فجأة امتلأت القرية بالأعلام وأكاليل الزهور والرايات والأساور والقبعات والشمسيات والزهور التي يحملها كل الناس في أيديهم أو يضعونها في رؤوسهم أو في ملابسهم أو في سلال. كانت العجائز والنسوة المتزوجات أو الأراامل معهن زهور كبيرة، أما الأنسات وصغيرات السن فكنّ يحملن زهورا صغيرة خفيفة اللون. ثم جاءت الفراشات والعصافير من كل صوب. كانت الفراشات والعصافير تقف في مكان ما ثم تطير فوق رؤوسنا فتترع الطاقية عن رأس أحد الثوار. وكانت الفراشات تخلط بين القبعات وعباد الشمس. وجاءت النحللات والدبابير أيضا، لكنها لم تكن تلسع أحدا. الثوار أطول قامة من كل الناس، يرتدون الزى الأخضر ويتسمون، صدورهم عارية لكي نرى أطواق البذور حول أعناقهم. منهم من أطلق لحيته ومنهم من حلقها. كلهم مبتسمون، وكلهم يرتدى الزى الأخضر وكلهم مبتسمون، يدعوننا إلى أن نذهب إلى الحديقة. الاحتفال لم ينته بعد، بل سيبدأ. يجب أن نحتفل بالنصر، بالكفاح، بالانتصار، ببداية عهد جديد. إنه يومنا وعلينا أن

نستمع إلى كلمات القائد والنشيد الوطنى والخطاب الهام . أظننا
وذهبنا . ذهبنا وأظننا . فى الحال ملأنا الشوارع . لا تكاد الشوارع
تكفى . ملأنا الأرصفة أيضا . بعد ذلك وقفنا فى مداخل البيوت .
الثوار يأتون معنا وهم خضرو . يبدو كأنهم أعشاب متحركة . عندما
كانت الأعشاب الحقيقية تراهم كانت تقفز إلى الشارع وتأتى إلى
الحديقة وتبدو كأنها ثوار . كنا نريد أن نصل بسرعة فعدونا لكى نحتل
أفضل الأماكن . بعضنا كان يمشى فوق أسطح المنازل قفزا فيحطم
أغصان الشجر . الآن وصلنا . نحن الآن فى الحديقة ، والمكان لا
يتسع لنا . بعضنا احتل الشرفات المجاورة . ملأناها ولا يزال المكان
لا يتسع لنا . صعدنا فوق أسطح المنازل وفوق الأشجار ثم وقف
بعضنا فوق بعضنا الآخر . لا يزال الناس يتوافدون والثوار يتوافدون
والأشجار تتوافد . كنت أنا وأمى متشابكى الأيدي طوال الوقت .
التقينا بأخوتى وجدتى "إييه إييه" أخواتى يسألن "هل رأيت صبي
الجزار؟" تجيب أمى "صبي الجزار؟ أى صبي الجزار؟" جدتى
تعانق أحد الثوار وتدعو له أن يباركه الله . يجيب الثائر "آمين يا
سيدتى" ، ويخطف منها الدجاجة الملونة ليعمل بها مرقة وهو يقول
"شكرا جزيلا" . ترد جدتى "لا ، لا" وتستعيد دجاجتها "هذه
لم تعد تنفع" يتسم الثائر وينصرف . أمى تنظر فى كل الاتجاهات .
كل الناس تنظر إلى جميع الاتجاهات وتبتسم . لم أر فى حياتى الناس
مسرورة هكذا ولم أر أناسا كثيرين هكذا . أظن أن هناك بعض
الأشخاص من القرى الأخرى . أرى الناس يزينون بيوتهم وأرى النساء
يضعن الزهور والأعلام والزهور . من أين جاءت كل هذه الزهور؟

ولماذا تنظر إلى النساء وهن مسرورات؟ النساء ينادين على أمى لكى تساعدهن ولكى تغسل معهن الأبواب والشبابيك وتكنس الشارع وتوقد الشموع وتعدّ الماء بالصابون لكى يعمل منه الأطفال فقاقيع كبيرة لامعة ذات سبعة أو ثمانية ألوان. أمى تذهب وأنا خلفها. أرى النجارين يعدون منصة لكى يلقي عليها الخطاب وتختا لفرقة الموسيقى. العازفون يجرون التجارب ويلمعون آلاتهم لكى يكون لها بريق عند التقاط الصور. الثوار يتوافدون. لا يتوقفون عن التوافد. يزيد عددهم فى منتصف الحديقة. لا يعرف أحد من أين يجيئون. هم مبتسمون، جائعون، شاحبون، قذرون، ضاحكون وسعداء. هم سعداء عندما يصلون ويصطفون واحدا وراء الآخر وصفا وراء صف. فى الأمام يقف الملتحون وأمامهم من لحيتهم سوداء ثم يقف الآخرون وهم مسلحون. وأخيرا يقف من ليسوا ملتحين ولا مسلحين، وفى آخر الصفوف جدا يقف الثوار الصغار. بين هؤلاء كانت أختاى تبحثان عن صبي الجزار. الناس تصفق لهم دون أن يكونوا قد فعلوا شيئا، ويقفز الناس لكى يتمكنوا من رؤيتهم بشكل أوضح. يحملون أولادهم على أكتافهم. أنا وأمى تسلقنا شجرة، وتسلقت جدتى وأختاى شجرة أخرى. رأيناهم والأعلام فى أيديهم وتأثرنا. أناس كثيرون وثوار كثيرون. الحديقة كلها الآن مهياة وهم مصطفون بشكل صارم. فوق رؤوسنا جميعا وفوق رؤوسهم وفوق الحديقة وفى سماء المدينة تحلق الفراشات والنحل والعصافير وفراشات الليل التى جاءت لتشاهد ما يحدث. هناك حمام على منصة الخطاب وفوق أكتاف الرجال، وهناك فراشات فوق رؤوس النساء وقد انتصف

النهار تماما. لهذا كنا جميعا نتلأأ. فُتحت الشمسيات الأولى ثم كل الشمسيات. أصبحنا تحت ظل واحد ، وتناقل الناس خبر أن قائد الثوار سيأتى بين لحظة وأخرى. قائد الثوار هو رائد اسمه بدرو أنطونيو ، وسيلقى الخطاب الذى يجب أن يلقيه والذى ننتظر سماعه. يصنع المعجزات. هذا ما ننتظره. لهذا جاء إلى هنا كل المرضى والأولاد غير المؤدين والنساء اللاتى هجرهن أزواجهن. كل الناس. نريد أن نرى. القائد سيصل. سيصل بين لحظة وأخرى. نحن ننتظره. بل قد وصل بالفعل. وصل ! وقفنا على أطراف أصابعنا ونظرنا ناحية الشارع. الثوار أيضا نظروا. أمى أيضا نظرت. نعم ، نعم لقد وصل. لا ، لم يصل. إعلان خاطئ. خبر غير صحيح. إنه حتى لن يأتى من هذا الشارع ، بل من الشارع الآخر. لا يكون قد جاء إلا إذا سمعنا صوت جلبة كبيرة هناك ، بعيدا. الآن جاء. الآن قد وصل بالفعل قائد الثوار مستقلا عربة جيب مكشوفة ، يتبعه عدد من الثوار يستقلون عربات جيب مكشوفة وسيارات عسكرية كبيرة وصغيرة ، وبعضهم يمتطى الجياد والبعض الآخر يأتى سيرا على الأقدام يحمل الأعلام وياقات الزهور فى أيديهم والأجراس فى سروج الخيل. وهناك مئات بل آلاف من الفراشات والعصافير وفراشات الليل والنحل تذهب لاستقبالهم. فتحت الجماهير طريقا وسط الشارع ونظرت إلى آخر القرية. كلنا كنا ننظر إلى نفس المكان ونحن واقفون على أطراف أصابعنا. أصلحت النساء من هندامهن ودفعت العجائز الأنسات الصغيرات لكى يقفن فى الصفوف الأولى. الرجال استفادوا من كونهم أطول من النساء. الثوار ظلوا واقفين فى هيئتهم العسكرية

الصارمة. أنا أنظر وأسمع وأشم وأنا أرتدى قميصي الأصفر وحتى الآن لم نر عربة الجيب المكشوفة ولا حتى سمعنا صوتها. لم نسمع سوى صوت الضوضاء والأناشيد وتصفيق النساء في المكان الذي تسير فيه العربة وأعلم أن كل هؤلاء الناس الذين يصفقون يسرون وراءهم يغنون ويصيحون. ها نحن قد حيناه ولوّحنا بالمناديل والأعلام والقبعات ، لكن دون أن نراه. نحن الآن في صمت. فجأة "إيه إيه إيه" نعم إنه هو. إنهم هم. ارتفعت صيحاتنا إلى السماء كما لو كنا نعيش أحلى لحظات السيرك لأنه قد جاء بالفعل. أنظر إليه. انظري يا أمي. انظري يا جدتي. انظروا يا أخواتي. انظروا كيف تتلأأ النجوم على جبهته. انظروا إلى عروق ذراعه المتفخة. الناس كلها تصفق بحرارة إلا البعض الذين ظلوا ينظرون مشدوهين ونسوا أن يصفقوا ولم يتذكروا إلا أخيرا. أسرفت النساء في التصفيق وفي هز رؤوسهن فانتشر عبير الأزهار في الجو بقوة. عطرت كل شئ ولمعت الألوان أكثر من أى وقت مضى. وشقشقت العصافير ، حتى تلك العصافير التي لا تشقشق. حلقت الفراشات في الجو. تقافز الناس وصاحوا وحيوا وقالوا "مع السلامة". كنا نقول "انظروا. انظروا" حتى رأيناه بالفعل أمامنا والنجمة على جبهته. حينئذ لم نستطع حتى أن نصفق أو أن نقفز ، بل نظرنا ونظرنا إلى قائد الثوار وهو مبتسم وشعره يداعبه النسيم . كان يبتسم بطريقة لم تحدث من قبل في القرية كانت يده إلى أعلى والمسدس في خاصرته والحمام يقف على كتفيه الشمس تتوهج وكذلك بريق عينيه كان أكثر نحافة من الثوار الآخرين كان يسير ببطء. ببطء متناه حتى لا ننسى مطلقا وحتى نستطيع أن

نقول دائما أننا رأينا وأنا كنا هنا تحت وهج الشمس . رأينا يسير .
رأينا ثوارا آخرين يسرون بجواره وهم ملتحمون كانوا يلوحون لنا
ويبتسمون مثله . من عيونهم جميعا كان يخرج كل هذا الضوء الذى
ينير النهار . كانت الناس صامته تقف على أطراف أصابعها . كانوا
فقط يستمعون وينظرون وينظرون . فجأة انطلق صوت الموسيقى " بوم
بوم بوم " تصفيق وهتافات أعجبتنى جدا . صاحت كارولا " عاشت
الحرية . فليحيا الاستقلال عاش الثوار عاشت كوبا الحرة نعم للثورة ،
لا للانقلاب " ارتفعت كل الأعلام كل الزهور كل الرايات كل
القبعات كل الشمسيات الألعاب النارية الرقص المنفرد . أنا لم أسمع
فى حياتى تصفيقا هكذا ولا هتافات هكذا ولم أر الناس تقفز هكذا .
الثوار منظرهم جميل قائد الثوار يرفع يديه عاليا شعره يطير فى الهواء
المسدس فى خاصرته وهو يبتسم الشمس تركز ضوءها على كتفيه .
يبتسم كما لم يبتسم أحد من قبل فى هذه المدينة يسير ببطء ، ببطء
شديد والحمام على كتفيه كل الناس تجرى فى اتجاه آخر الشارع . مرة
أخرى نراه يسير وهو أكثر نحافة وشحوبا من بقية الثوار ويده مرفوعة
إلى أعلى جرينا مرة أخرى إلى ناصية أخرى ورأينا يسير ببطء وهو
أكثر نحافة وشحوبا من الثوار الآخرين ويده مرفوعة إلى أعلى وشعره
يطير فى الهواء الشمس تلمع على كتفيه عاش الاستقلال . إنه يمر
والنجمة على جبهته إنه يبتعد . وفى اللحظة الأخيرة ، قبل أن يختفى
وسط الجماهير ، التفت قائد الثوار إلى الوراء ونظر إلى أمى والزهور
تغطى شعرها وهى واقفة على حافة الرصيف ومعها علم تلوح به .
قفزت أمى وقفزت أنا . قالت " إنه أنطونيو ، إنه أنطونيو " . نظرت

إلى لكى تتأكد أنها لم تكن بمفردها حين رآته . أنا أيضا رأيت العروق المنتفخة التى كانت تتدلى فى ذراعيه كروافد الأنهار . الآن نذهب . الرجال مع النساء . كل شاب مع خطيبته . الثوار مع البنات . الألعاب النارية . الآن فهمت . نعم . الزهور تنظر إلى . الدبابير تنظر إلى . كانت الفراشات تنظر إلى ثم حزمت أمرها فى النهاية . ستأتى . لقد رأوه . والصف الذى يجب أن نشكله ، ألا أتذكر ؟ هل تتذكر الجيش الذى يجب أن نعهده ؟ يجب أن ننضم إلى أطفال آخرين والشعلة متقدة فى أيدينا ونتجه إلى الغرب لكى ندعو الجيوش الأخرى إلى الثورة . يجب أن نحرق جذور القصب . يجب أن نبدأ عهدا جديدا . كل الأزهار ، كل الأطفال والفراشات والدبابير والنخل وأشجار الخروج وكل الطيور وكل الأشجار والناس يرقصون ويستمرون فى الرقص فى الشوارع وأمام البيوت وداخل البيوت وفوق الأسطح . كلهم يحكى ما حدث وأنهم قد رأوه يمر من أمامهم ويرقصون ويرقصون والألعاب النارية . هذه هى الإشارة ، هل تتذكر؟ حينئذ كنا سنشكل صفا وجيشا . لم يتبه أحد ولم أنتبه أنا . وأمى التى كانت ترقص بمفردها فوق مقعد لم تتبه إلى خيوط الضباب وهى تلفنا . كانت خيوط الضباب تقودنا إلى المحطة القديمة . ها نحن قد وصلنا إلى هنا ونحن نرقص . "عاشت الثورة . عاش الاستقلال . عاش القائد " لا نتوقف عن الرقص ومعنا الأعلام وأطواق الزهور . لا أحد يستغرب أن ضباب المحطة العتيق لم يعد موجودا . رأينا قطارا أخضر ، فاقع الإخضرار ، أمام المحطة . قال الثوار "انظروا إلى القطار" قالت جدتى "آه لو ظهرت باقة زهورى وذلك الفستان الذى ضاع منى!"

الموسيقى لا تتوقف. القطار تغطيه الطحالب الخضراء الناعمة والزهور الصغيرة. الرياح تهب رقيقة على من يرقص حول القطار. النساء -وقد ارتدين جونلات واسعة ملونة- يقبلوننا نحن الأطفال مودعين ويقدمن لنا الزهور والشعلات والشموع والأعلام وباقات الزهور. رويدا رويدا يمتلئ القطار بنا ، بكل الأطفال وكل الزهور وكل الطيور والأشجار ، لكن السائق غير موجود. هذه لعبة ، أليس كذلك ؟ الثوار يتسمون ويستمرون فى إدخال الأطفال ويدخلوننى. أنظر إلى أمى وإلى أخواتى وإلى جدتى ودجاجتها الملونة حتى لا يظهر أحد. حينئذ تعزف الموسيقى وتطلق الألعاب النارية ويبتعد الناس عن قضبان القطار. يسمعون صوتا يهز الجميع: صوت القطار. وينطلق الدخان من القاطرة. تصفيق. يبدأ القطار فى الاهتزاز. تتلأأ السماء أكثر من ذى قبل. القطار يقرب الأرض أكثر والأرض تهتز. الضوء يبرق والمطر يتساقط والروائح تعطر الجو. تهب الرياح ويتحرك القطار. أجرى إلى النافذة ، وبين بحر متلاطم من الرؤوس والقبعات أكتشف أمى وجدتى وأخواتى. هن الأربعة واقفات على حجر يبحثن عنى بين أطفال كثيرين يطلون من نافذة القطار. كل الناس يبحثون عن أولادهم وأنا فى هذه النافذة. ها هى أمى وها هى جدتى. أقول "إيه إيه". يقعن من فوق الحجر ويعدن إلى الصعود فوقه. نقول لبعضنا إلى اللقاء. إلى اللقاء. نقول لبعضنا إلى اللقاء وإلى اللقاء وينطلق القطار. مع السلامة يا جدتى مع السلامة يا أمى . مع السلامة يا أخواتى. مع السلامة أيتها الدجاجة الملونة. أنا ذاهب. أنتم باقون هنا. لن أكون معكم ثانية. يحييننى. أراهنّ يتعدن وهن يتحركن

فوق الحجر ويلوحن بمناديل حمراء ويصغرن. لا تبكين ولا تحزن.
قلن لى مع السلامة. هذا ما كنت أنتظره دائما. ما كانت تنتظره
حديقتى. هذا ما أمر به الرجل الجريح. ما كان يقوله دائما عباد
الشمس. إنها حياتى. أن أنتقل من بلد إلى بلد ، أقدم حفلات
السيرك أو أحارب. أن أفعل الأعاجيب. أن أوقف الناس بأى شكل ،
بأن أزرع أشجار الخروج. مع السلامة. سأعود راكبا حصانا وسنذهب
لنبيع الأزهار فى الحديقة وأيدينا متشابكة. الآن لا أكاد أميز أسرتى.
القطار يزيد من سرعته ويزداد اخضرارا. نمر الآن على آخر بيوت
المدينة وعلى الأرض الزراعية. أجلس على المقعد وفى يدى عباد
الشمس الأصفر. أحتضنه وابتسم. عبر النافذة أرى سحابا يلمع.

المشروع القومى للترجمة

المشروع. القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالمين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

| | | |
|---|------------------------------|---|
| ١ - اللغة العليا (طبعة ثانية) | جون كوين | ت : أحمد درويش |
| ٢ - الوثنية والإسلام | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣ - التراث المسروق | جورج جيمس | ت : شوقي جلال |
| ٤ - كيف تتم كتابة السيناريو | انجا كارتيتكوفا | ت : أحمد الحضري |
| ٥ - ثريا فى غيبوبة | إسماعيل فصيح | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٦ - اتجاهات البحث اللساني | ميلكا إفيتش | ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد |
| ٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة | لوسيان غولدمان | ت : يوسف الأنطكي |
| ٨ - مشعلو الحرائق | ماكس فريش | ت : مصطفى ماهر |
| ٩ - التغيرات البيئية | أندرو س. جودى | ت : محمود محمد عاشور |
| ١٠ - خطاب الحكاية | جيرار جينيت | ت : محمد مقصم وعبد الجليل الأزني وعمر حلي |
| ١١ - مختارات | فيسوافا شيمبوريسكا | ت : هناء عبد الفتاح |
| ١٢ - طريق الحرير | ديفيد براونستون وايرين فرانك | ت : أحمد محمود |
| ١٣ - ديانة الساميين | روبرتسن سميث | ت : عبد الوهاب علوب |
| ١٤ - التحليل النفسى والأدب | جان بيلمان نويل | ت : حسن المودن |
| ١٥ - الحركات الفنية | إدوارد لويس سميث | ت : أشرف رفيق عفيفي |
| ١٦ - أثينة السوداء | مارتن برنال | ت : بإشراف / أحمد عثمان |
| ١٧ - مختارات | فيليب لاركين | ت : محمد مصطفى بدوي |
| ١٨ - الشعر النسائي فى أمريكا اللاتينية | مختارات | ت : طلعت شاهين |
| ١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة | جورج سفيريس | ت : نعيم عطية |
| ٢٠ - قصة العلم | ج. ج. كراوثر | ت : يعنى طريف الخولى / بدوي عبد الفتاح |
| ٢١ - خوخة وألف خوخة | صمد بهرنجى | ت : ماجدة العناني |
| ٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين | جون أنتيس | ت : سيد أحمد على الناصري |
| ٢٣ - تجلى الجميل | هانز جيورج جادامر | ت : سعيد توفيق |
| ٢٤ - ظلال المستقبل | باتريك بارندر | ت : بكر عباس |
| ٢٥ - مثنوى | مولانا جلال الدين الرومي | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| ٢٦ - دين مصر العام | محمد حسين هيكل | ت : أحمد محمد حسين هيكل |
| ٢٧ - التنوع البشرى الخلاق | مقالات | ت : نخبة |
| ٢٨ - رسالة فى التسامح | جون لوك | ت : منى أبو سنه |
| ٢٩ - الموت والوجود | جيمس ب. كارس | ت : بدر الديب |
| ٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢) | ك. مادهو بانيكار | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى | جان سوفاجيه - كلود كاين | ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب |
| ٣٢ - الانقراض | ديفيد روس | ت : مصطفى إبراهيم فهمي |
| ٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية | أ. ج. هويكتز | ت : أحمد فؤاد بليغ |
| ٣٤ - الرواية العربية | روجر آلن | ت : حصه إبراهيم المنيف |
| ٣٥ - الأسطورة والحدائق | بول . ب . ليكسون | ت : خليل كلفت |

- ٣٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
- ٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها بريجيت شيفر
- ٣٨ - نقد الحداثة آلن تورين
- ٣٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
- ٤٠ - قصائد حب آن سكستون
- ٤١ - ما بعد المركزية الأوربية بيتر جران
- ٤٢ - عالم ماك بنجامين بارير
- ٤٣ - الذهب المزدوج أوكتايفو پاث
- ٤٤ - بعد عدة أصياف ألدوس هكسلى
- ٤٥ - التراث المغفور روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين
- ٤٦ - عشرون قصيدة حب بابلو نيرودا
- ٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) رينيه ويليك
- ٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسوا توما
- ٤٩ - الإسلام فى البلقان هـ . ت . نوريس
- ٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
- ٥١ - مسار الرواية الإسبانية أمريكية داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستى
- ٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل
- ٥٣ - الدراما والتطعيم أ . ف . ألتجتون
- ٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح ج . مايكل والتون
- ٥٥ - ما وراء العلم چون بولكنجهوم
- ٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
- ٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
- ٥٨ - مسرحيتان فديريكو غرسية لوركا
- ٥٩ - المحبرة كارلوس مونيهيت
- ٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
- ٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميث
- ٦٢ - لذة النص رولان بارت
- ٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) رينيه ويليك
- ٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) آلان وود
- ٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
- ٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
- ٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
- ٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالتين راسبوتين
- ٦٩ - العلم الإسلامى فى أول القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
- ٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوكينيو تشانج رودريجت
- ٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
- ت : جمال عبد الرحيم
- ت : أنور مغيث
- ت : منيرة كروان
- ت : محمد عيد إبراهيم
- ت : عطف أحمد / إبراهيم قحى / محمود ملج
- ت : أحمد محمود
- ت : المهدي أخريف
- ت : مارلين تادرس
- ت : أحمد محمود
- ت : محمود السيد على
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : ماهر جويجاتي
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : محمد برادة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكى
- ت : محمد أبو العطا
- ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
- ت : مرسى سعد الدين
- ت : محسن مصيلحي
- ت : على يوسف على
- ت : محمود على مكى
- ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
- ت : محمد أبو العطا
- ت : السيد السيد سهيم
- ت : صبرى محمد عبد القنى
- مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
- ت : محمد خير البقاعى .
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : رمسيس عوض .
- ت : رمسيس عوض .
- ت : عبد اللطيف عبد الحليم
- ت : المهدي أخريف
- ت : أشرف الصباغ
- ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
- ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
- ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
٧٤ - صلاح الدين والممالك فى مصر ل . ا . سيمينوفا
٧٥ - فن التراجى والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
٧٧ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
٧٨ - العولة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
٧٩ - شعرية التأليف بوريس أوسينسكى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١ - الجماعات المختيلة بندكت أنرسن
٨٢ - مسرح ميغيل ميغيل دى أونامونو
٨٣ - مختارات غوتفريد بن
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاى
٨٦ - طول الليل جمال مير صادقى
٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
٨٨ - الابتلاء بالتقرب جلال آل أحمد
٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جيدنز
٩٠ - وسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
٩١ - المسرح والتجرب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميغل
الإسبانيون أمريكى المعاصر مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٣ - محدثات العولة صمويل بيكيت
٩٤ - الحب الأول والصحية أنطونيو بويرو بايخو
٩٥ - مختارات من المسرح الإشباني قصص مختارة
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة فرنان برودل
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١) نماذج ومقالات
٩٨ - الهم الإشباني والابتزاز الصهيونى ديفيد روبنسون
٩٩ - تاريخ السينما العالمية بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠٠ - مساعلة العولة بيرنار فاليط
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) عبد الكريم الخطيبى
١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الوهاب المؤدب
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء برتولت بريشت
١٠٤ - أويرا ماهوجنى جيرارچينيت
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع د ماريا خيسوس روبييرامتى
١٠٦ - الأدب الأندلسى نخبة
١٠٧ - صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر
- ت . فؤاد مجلى
ت . حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت . أحمد درويش
ت . عبد المقصود عبد الكريم
ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت . أحمد محمود ونورا أمين
ت . سعيد الغانمى وناصر حلاوى
ت . مكارم الغمرى
ت . محمد طارق الشرقاوى
ت . محمود السيد على
ت . خالد المعالى
ت . عبد الحميد شيحة
ت . عبد الرازق بركات
ت . أحمد فتحى يوسف شتا
ت . ماجدة العنانى
ت . إبراهيم الدسوقى شتا
ت . أحمد زايد ومحمد محبى الدين
ت . محمد إبراهيم مبروك
ت . محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت . عبد الوهاب علوب
ت . فوزية العشماوى
ت . سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت . بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت . إبراهيم فتحى
ت . رشيد بنحدو
ت . عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت . عبد الغفار مكاوى
ت . عبد العزيز شبيل
ت . أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكلويد
١١٣ - راية التمرد سادى پلانت
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى ومكان المستقيم وول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١ - الليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية نيلز الكسندر وفنابولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جراى
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦ - فعل القراءة قولفانج ايسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى
١٢٨ - الأنثى المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا داولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريع حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كونو
١٣٧ - منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى
١٣٩ - باريس فى باريس ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هريرت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا للتظلم فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونونى
- ت : محمود على مكى
ت . هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت . ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت . سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : ليس النقاش
ت . بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت . محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
ت . منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحة الخولى
ت . عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت . طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت . كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت . مصطفى ماهر
ت . أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت . عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فوينتس
١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دى ليبس
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد نورست
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأندونيس عاطف فضول
١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
١٥٣ - غرام الفراعنة فيولين فاتويك
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر نخبة من الشعراء
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو
١٥٧ - خسرو وشيرين النظامى الكتوجى
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرليش
١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الأسويى
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جورديون مارشال
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لاکوتير
١٦٥ - حكايات الثعلب أ . ن أفانا سيفا
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والطمانين في إسرائيل يشعياهو ليتمان
١٦٧ - فى عالم طاغور رابندرانات طاغور
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
١٧٠ - الطريق ميغيل دليبيس
١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
١٧٢ - حجر الشمس مختارات
١٧٣ - معنى الجمال ولتر ت . ستيس
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية لورينزو فيلشس
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
١٧٧ - أنطون تشيخوف هنرى تروايا
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث نخبة من الشعراء
١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى فنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
ت . على عبد الرؤوف اليمبى
ت : عبد الفقار مكاوى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت . بشير السباعى
ت : محمد محمد الخطابى
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التمسانى
ت : عبد العزيز بقوش
ت : بشير السباعى
ت : إبراهيم فتحى
ت : حسين بيومى
ت : زيدان عبد الحليم زيدان
ت . صلاح عبد العزيز محجوب
ت بإشراف : محمد الجوهري
ت : نبيل سعد
ت : سهير المصايفة
ت : محمد محمود أبو غدير
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : بسام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابى
ت . إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : جلال البنا
ت : حصة إبراهيم منيف
ت : محمد حمدي إبراهيم
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : سليم عبدالأمير حمدان
ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
- ١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
- ١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز ايندورفر
- ١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
- ١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
- ١٨٧ - الأرضة بَرُزَجْ علوى
- ١٨٨ - موت الأدب القين كرنان
- ١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
- ١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
- ١٩١ - الكلام رأسمال الحاج أبو بكر إمام
- ١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك زين العابدين المراغى
- ١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
- ١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى مجموعة من النقاد
- ١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
- ١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسبوتين
- ١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
- ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون
- ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندأوى
- ٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبيروك
- ٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
- ٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤ رينيه ويليك
- ٢٠٣ - الشعر والشاعرية أَلطاف حسين حالى
- ٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
- ٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى - سفورزا
- ٢٠٦ - الهبولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
- ٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسندير
- ٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان
- ٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
- ٢١١ - فريبنان بوسوسير جوناثان كلر
- ٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣ - مصر منذ قوم ثلجىين حتى رجل عبد القاصر ريمون فلاور
- ٢١٤ - قواعد جديدة المنهج فى علم الاجتماع أستونى جیدنز
- ٢١٥ - سيلحت نامه إبراهيم بيك ج٢ زين العابدين المراغى
- ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
- ٢١٨ - راويلا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
- ت : فتحى العشرى
- ت : دسوقي سعيد
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : علاء منصور
- ت : بدر الديب
- ت : سعيد الغانمى
- ت : محسن سيد فرجاني
- ت : مصطفى حجازى السيد
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : محمد عبد الواحد محمد
- ت : ماهر شفيق فريد
- ت : محمد علاء الدين منصور
- ت : أشرف الصباغ
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
- ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
- ت : فخرى لييب
- ت : أحمد الأنصارى
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : أحمد محمود هويدي
- ت : أحمد مستجير
- ت : على يوسف على
- ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
- ت : محمد أحمد صالح
- ت : أشرف الصباغ
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : محمود حمدي عبد الفنى
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : سيد أحمد على الناصرى
- ت : محمد محمود محى الدين
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : نادية البنهاوى
- ت : على إبراهيم على منوفى

| | | |
|---|-------------------------|---|
| ٢١٩ - بقايا اليوم | كانزو ايشجورو | ت : طلعت الشايب |
| ٢٢٠ - الهبولة في الكون | باري باركر | ت : علي يوسف علي |
| ٢٢١ - شعرة كفاقي | جريجوري جوزدانيس | ت : رفعت سلام |
| ٢٢٢ - فرانز كافكا | رونالد جراي | ت : نسيم مجلى |
| ٢٢٣ - العلم في مجتمع حر | بول فيرابنر | ت : السيد محمد نقادي |
| ٢٢٤ - نمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد |
| ٢٢٥ - حكاية غريق | جابريل جارتيا ماركث | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله |
| ٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى | ديفيد هريت لورانس | ت : طاهر محمد علي البربري |
| ٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر | موسى مارديا ديف بوركي | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله |
| ٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | جانيت وولف | ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن |
| ٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد | نورمان كيمن | ت : أمير إبراهيم العمري |
| ٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر | فرانسواز جاكوب | ت : مصطفى إبراهيم فهمي |
| ٢٣١ - الدرافيل | خايمي سالوم بيدال | ت : جمال أحمد عبد الرحمن |
| ٢٣٢ - مابعد المعلومات | توم ستينر | ت : مصطفى إبراهيم فهمي |
| ٢٣٣ - فكرة الاضمحلال | أرثر هيرمان | ت : طلعت الشايب |
| ٢٣٤ - الإسلام في السودان | ج. سبنسر تريمنجهام | ت : فؤاد محمد عكود |
| ٢٣٥ - ديوان شمس تبريزي ج ١ | جلال الدين الرومي | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| ٢٣٦ - الولاية | ميشيل تود | ت : أحمد الطيب |
| ٢٣٧ - مصر أرض الوادي | روين فيدين | ت : عنايات حسين طلعت |
| ٢٣٨ - العولة والتحرير | الانكتاد | ت : ياسر محمد جاد الله وعري مديولى أحمد |
| ٢٣٩ - العربي في الأدب الإسرائيلي | جيلارافر - رايوخ | ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فليق |
| ٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار | كامي حافظ | ت : صلاح عبد العزيز محمود |
| ٢٤١ - في انتظار البرابرة | ك. م كويتز | ت : ابتسام عبد الله سعيد |
| ٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض | وليام إمبسون | ت : صبري محمد حسن عبد النبي |
| ٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١ | ليفى بروفنسال | ت : مجموعة من المترجمين |
| ٢٤٤ - الغليان | لاورا إسكييل | ت : نادية جمال الدين محمد |
| ٢٤٥ - نساء مقاتلات | إليزابيتا أنيس | ت : توفيق علي منصور |
| ٢٤٦ - قصص مختارة | جابريل جرتيا ماركث | ت : علي إبراهيم علي منوفى |
| ٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر | وولتر أرمبرست | ت : محمد الشرقاوى |
| ٢٤٨ - حقول عدن الخضراء | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم |
| ٢٤٩ - لغة التمزق | دراجو شتامبوك | ت : رفعت سلام |
| ٢٥٠ - علم اجتماع العلوم | دومنيك فينك | ت : ماجدة أباطة |
| ٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢ | جورجون مارشال | ت : بإشراف : محمد الجوهري |
| ٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية | مارجو بدران | ت : علي بدران |
| ٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية | ل. أ. سيمينوفا | ت : حمن بيومي |
| ٢٥٤ - الفلسفة | ديف روينسون وجودي جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٥ - أفلاطون | ديف روينسون وجودي جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |

| | | |
|---|-------------------------------|-------------------------------|
| ٢٥٦ - بيكارت | ديف روينسون وجودي جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة | وليم كلى رايت | ت : محمود سيد أحمد |
| ٢٥٨ - الفجر | سير أنجوس فريزر | ت : عبادة كحيلة |
| ٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني | نخبة | ت : قاروجان كازانجيان |
| ٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢ | جوردون مارشال | ت : بإشراف : محمد الجوهري |
| ٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود | زكي نجيب محمود | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٢٦٢ - مدينة المعجزات | إيوارد منوثا | ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف |
| ٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن | جون جرين | ت : علي يوسف علي |
| ٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة | هوراس / شلى | ت : لويس عوض |
| ٢٦٥ - روايات مترجمة | أوسكار وايلد وصموئيل جونسون | ت : لويس عوض |
| ٢٦٦ - مدير المدرسة | جلال آل أحمد | ت : عادل عبد المنعم سويلم |
| ٢٦٧ - فن الرواية | ميلان كونديرا | ت : بدر الدين عروكي |
| ٢٦٨ - ديوان شمس تيريزي ج ٢ | جلال الدين الرومي | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| ٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١ | وليم جيفور بالجريف | ت : صبرى محمد حسن |
| ٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢ | وليم جيفور بالجريف | ت : صبرى محمد حسن |
| ٢٧١ - الحضارة الغربية | توماس سى . باترسون | ت : شوقي جلال |
| ٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر | س. س. والترز | ت : إبراهيم سلامة |
| ٢٧٣ - الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط | جوان آر. لوك | ت : عنان الشهاوى |
| ٢٧٤ - السيدة بربارا | رومولو جلاجوس | ت : محمود علي مكي |
| ٢٧٥ - س. س. إليوت شاعراً ونقاداً وكتّاباً مسرحياً | أقلام مختلفة | ت : ماهر شفيق فريد |
| ٢٧٦ - فنون السينما | فرانك جوتيران | ت : عبد القادر التلمساني |
| ٢٧٧ - الجينات الصراع من أجل الحياة | بريان فورد | ت : أحمد فوزي |
| ٢٧٨ - البدايات | إسحق عظيموف | ت : ظريف عبد الله |
| ٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية | فرانسيس ستونر سوندرز | ت : طلعت الشايب |
| ٢٨٠ - من الألب الهندي الحديث والمعاصر | بريم شند وآخرون | ت : سمير عبد الحميد |
| ٢٨١ - ألفريدوس الأعلى | مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي | ت : جلال الحفناوى |
| ٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية | لويس وليبرت | ت : سمير حنا صائق |
| ٢٨٣ - السهل يحترق | خوان روافو | ت : علي البمبي |
| ٢٨٤ - هرقل مجنوناً | يوريبيدس | ت : أحمد عثمان |
| ٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي | حسن نظامي | ت : سمير عبد الحميد |
| ٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج ٢ | زين العابدين المراغي | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمى | أنتونى كينج | ت : محمد يحيى وآخرون |
| ٢٨٨ - الفن الروائى | ديفيد لودج | ت : ماهر البطوطى |
| ٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى | أبو نجم أحمد بن قوص | ت : محمد نور الدين |
| ٢٩٠ - علم الترجمة واللغة | جورج مونا | ت : أحمد زكريا إبراهيم |
| ٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ١ | فرانشيسكو رويس رامون | ت : السيد عبد الظاهر |
| ٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ٢ | فرانشيسكو رويس رامون | ت : السيد عبد الظاهر |

| | | |
|---|---------------------------------|-------------------------------|
| ٢٩٢ - مقنعة للأدب العربي | روجر آلان | ت : نخبة من المترجمين |
| ٢٩٤ - فن الشعر | بوالو | ت . رجاء ياقوت صالح |
| ٢٩٥ - سلطان الأسطورة | جوزيف كامبل | ت - بدر الدين حب الله الديب |
| ٢٩٦ - مكبث | وليم شكسبير | ت : محمد مصطفى بدوي |
| ٢٩٧ - فن الحربين اليونانية والسورية | ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني | ت : ماجدة محمد أنور |
| ٢٩٨ - مناساة العبيد | أبو بكر تفاعيليوه | ت - مصطفى حجازي السيد |
| ٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية | جين ل. ماركس | ت - هاشم أحمد فؤاد |
| ٣٠٠ - أسطورة برومئوس مج١ | لويس عوض | ت : جمال الجزيري وبهاء جاهين |
| ٣٠١ - أسطورة برومئوس مج٢ | لويس عوض | ت . جمال الجزيري ومحمد الجندي |
| ٣٠٢ - فنجنشتين | جون هيتون وجودي جروفز | ت - إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٣ - بوذا | جين هوب وبورن فان لون | ت : إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٤ - ماركس | ريوس | ت - إمام عبد الفتاح إمام |
| ٣٠٥ - الجلد | كروزيو مالابارته | ت - صلاح عبد الصبور |
| ٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطي للتاريخ | جان - فرانسوا ليونار | ت - نبيل سعد |
| ٣٠٧ - الشعور | ديفيد بابينو | ت . محمود محمد أحمد |
| ٣٠٨ - علم الوراثة | ستيف جونز | ت . ممدوح عبد المنعم أحمد |
| ٣٠٩ - الذهن والمخ | انجوس چيلاتي | ت : جمال الجزيري |
| ٣١٠ - يونج | ناجي هيد | ت - محيى الدين محمد حسن |
| ٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى | كولنجوود | ت - فاطمة إسماعيل |
| ٣١٢ - روح الشعب الأسود | وليم دى بويز | ت - أسعد حليم |
| ٣١٣ - أمثال فلسطينية | خاير بيان | ت - عبد الله الجعدي |
| ٣١٤ - الفن كعدم | جينس مينيك | ت : هويدا السباعي |
| ٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى | ميشيل بروندينو | ت : كاميليا صبحي |
| ٣١٦ - محاكمة سقراط | أ. ف. ستون | ت : نسيم مجلى |
| ٣١٧ - بلا غد | شير لايموفا - زنيكين | ت - أشرف الصباغ |
| ٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة | نخبة | ت - أشرف الصباغ |
| ٣١٩ - صور دريدا | جايتير ياسييفاك وكريستوفر نوريس | ت - حسام نايل |
| ٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج | مؤلف مجهول | ت - محمد علاء الدين منصور |
| ٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢ | ليفى برو فنسال | ت : نخبة من المترجمين |
| ٣٢٢ - التاريخ الغربى للفن الحديث | دبليوجين كلينباور | ت - خالد مفلح حمزة |
| ٣٢٣ - فن الساتورا | تراث يونانى قديم | ت : هانم سليمان |
| ٣٢٤ - اللعب بالنار | أشرف أسدى | ت : محمود سلامة علاوى |
| ٣٢٥ - عالم الآثار | فيليب بوسان | ت : كريستين يوسف |
| ٣٢٦ - المعرفة والمصلحة | جورجين هابرماس | ت . حسن صقر |
| ٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة | نخبة | ت . توفيق على منصور |
| ٣٢٨ - يوسف وزليخة | نور الدين عبد الرحمن بن أحمد | ت : عبد العزيز بقوش |
| ٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد | تد هيوز | ت : محمد عيد إبراهيم |

- ٢٢٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٢٢١ - عندما جاء السردين ستيفن جراي
٢٢٢ - رحلة شهر الصل وقصص أخرى نخبة
٢٢٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
٢٢٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٢٢٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٢٢٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٢٢٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس
٢٢٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة
٢٢٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ علي أصغر حكمت
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربيروجلو
٢٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه
٢٤٢ - سلامان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نانين جورديمر
٢٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن بونه ندائي
٢٤٦ - سحر مصر رشاد رشدي
٢٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٢٤٨ - المتصوفة الأولون في الأدب التركي جا محمد قواد كويريلي
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٢٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٢٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٢٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (منسية) باسيليو بابون مالدونالد
٢٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية) باسيليو بابون مالدونالد
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٢٥٦ - الميراث المر بول سالم
٢٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية نخبة
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس أفلاطون
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٢٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة آلان جرينجر
٢٦٢ - تلميذ باينبرج هاينرش شيبورال
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقي ريتشارد جيسون
٢٦٤ - حداثه شكسبير إسماعيل سراج الدين
٢٦٥ - سأم باريس شارل بودلير
٢٦٦ - نساء يركضن مع النئاب كلاريسا بنكولا
- ت . سامي صلاح
ت : سامية دياب
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت . بكر عباس
ت : مصطفى فهمي
ت : فتحى العشري
ت . حسن صابر
ت : أحمد الأنصاري
ت . جلال السعيد الحفناوي
ت . محمد علاء الدين منصور
ت . فخرى لبيب
ت . حسن حلمي
ت : عبد العزيز بقوش
ت . سمير عبد ربه
ت . سمير عبد ربه
ت . يوسف عبد الفتاح فرج
ت . جمال الجزيري
ت . بكر الحلو
ت . عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت . عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصاري
ت : نعيم عطية
ت . علي إبراهيم علي منوفي
ت . علي إبراهيم علي منوفي
ت . محمود سلامة علاوي
ت . بدر الرفاعي
ت . عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازي السيد
ت : حبيب الشاروني
ت : ليلى الشربيني
ت . عاطف معتمد وآمال شاور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبري محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت . محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد

| | | |
|---|-------------------|----------------------------|
| ٣٦٧ - القلم الجريء | نخبة | ت . البراق عبد الهادي رضا |
| ٣٦٨ - المصطلح السردي | جيرالد برنس | ت . عابد خزندار |
| ٣٦٩ - المرأة في أدب نجيب محفوظ | فوزية العشماوي | ت . فوزية العشماوي |
| ٣٧٠ - الفن والحياة في مصر الفرعونية | كليلا لويت | ت . فاطمة عبد الله محمود |
| ٣٧١ - المتصوفة الأولون في الأدب التركي ج٢ | محمد فؤاد كويريلي | ت . عيد الله أحمد إبراهيم |
| ٣٧٢ - عاش الشباب | وانغ مينغ | ت : وحيد السعيد عبد الحميد |
| ٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه | أمبرتو إيكو | ت . علي إبراهيم علي منوفي |
| ٣٧٤ - اليوم السادس | أندرية شديد | ت . حمادة إبراهيم |
| ٣٧٥ - الخلود | ميلان كونديرا | ت . خالد أبو اليزيد |
| ٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين | نخبة | ت . إيوار الخراط |
| ٣٧٧ - تاريخ الأدب في إيران ج٤ | علي أصغر حكمت | ت : محمد علاء الدين منصور |
| ٣٧٨ - المسافر | محمد إقبال | ت . يوسف عبد الفتاح فرج |
| ٣٧٩ - ملك في الحديقة | سنيل بات | ت . جمال عبد الرحمن |

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٦٣٧ / ٢٠٠٢

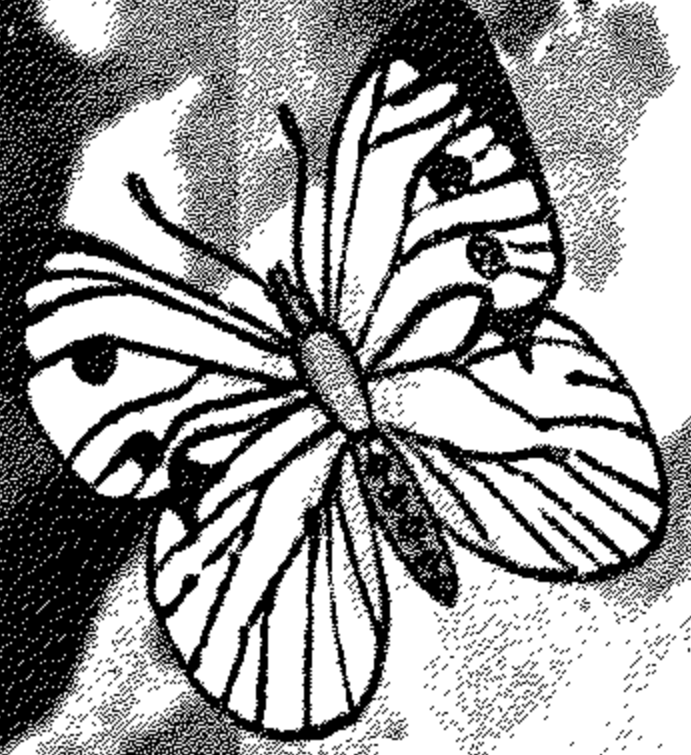
ملك في الحديقة

المجلس
الأدبي
العراقي



تتحدث الكتب التي تتناول أدب كوبا بالتحليل عن سنيل باث فتصفه بأنه "كاتب من الطراز الأول رغم أنه شاب"، ذلك لأن كل أعماله التي نشرها فازت بجوائز محلية أو دولية ، وبالرغم من ذلك فإن كاتبنا له رأى غريب في أعماله ؛ فهو يقول في تواضع صادق إنه لا يدرى إن كانت أعماله تستحق النشر أو لا ، رواية "ملك في الحديقة" - على سبيل المثال - امتدحها الجميع في كوبا وفي خارجها ، وفازت بجائزة النقاد في كوبا ، لكن سنيل يقول إنه لا يدرى سبباً لهذا الاحتفاء .

وتحدثنا رواية "ملك في الحديقة" عن معاناة أسرة ريفية فقيرة في كوبا في عهد ما قبل ثورة ١٩٥٩ ، والمؤلف يروي الأحداث من وجهتي نظر : وجهة نظر الطفل ذي الخيال الواسع، وجهة نظر الجدة التي تتسم بالواقعية الشديدة . الطفل الذي اسماً يسمع لغة الزهور والدجاجات وعبثاً والفراشات والبعلة ... إلخ ، وروايته الخيال تتعارض تعارضاً شديداً مع الواقع المؤلم المجتمع الكوبي قبل الثورة .



Un rey en el jardín
Senel Paz